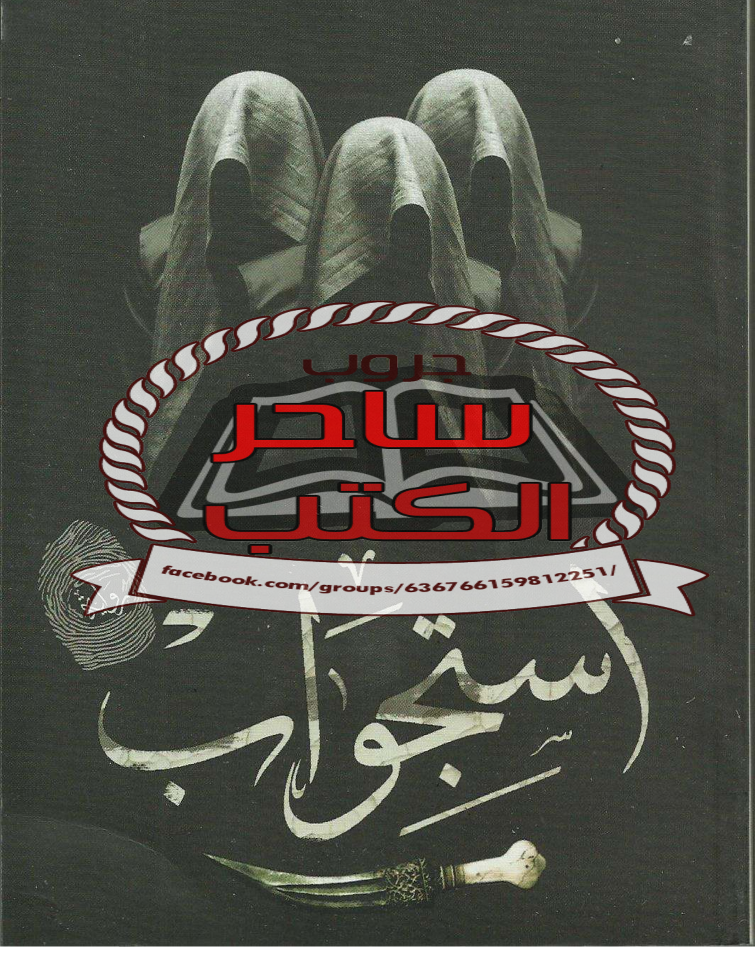
محمود أمين




جروب
ساحر
الكتب
facebook.com/groups/636766159812251/

محمود أمين

# استجواب

# محمود أمين

# استجواب

أمين، محمود.

استجواب: رواية / محمود أمين.ـ القاهرة:

بصمة للنشر والتوزيع، 2015.

402 ص؛ 20 سم

تدمك: 5 - 952 - 851 - 977 - 978

1 ـ القصص العربية.

أ.العنوان 813

رقم الإيداع: 09814 / 2015

---



**بصمة للنشر والتوزيع**

تليفون:0128221105 - 01158699902 - 01003734421

E-mail:darbasmanashr@Gmail.com

https://www.dar-basma.com

---

# تمهيد

لقد سُرقت الكأس المقدسة.. سُرقت من المعبد الكبير.. سُرقت رغم الحراسة المشددة.. سُرقت ولا أحد يعرف مكانها.. سُرقت وتلك الجثة الموجودة في الساحة الرئيسية للمعبد يدعي الحراس أنها للسارق, لكنهم لم يجدوا معه أي شيء.. لو كان هو السارق فأين ما سرقه؟! ظلت جثة السارق في مكانها بأمر الفرعون ليومين حتى إن رائحتها بدأت تعبئ المكان.. كانت الأوامر واضحة للجميع.. لن يتحرك أحد حتى يجدوا الكأس المقدسة.. لكن كيف سيعرفون طريقها والوحيد الذين يظنون أنه قادر على إرشادهم إلى مكانها قد فارق الحياة؟!

لو لم يكن خبر سرقتها قد تم تسريبه للعامة لكان من الممكن أن يصنعوا غيرها.. لكن المشكلة الآن أن العامة قد عرفوا أن الكأس المقدسة الخاصة بالفرعون قد تمت سرقتها ولا يستطيع أن يعرف مكانها.

المشكلة الحقيقية هنا أن الفرعون يحكم على أساس أنه ابن الإله، فكيف تتم سرقة شيء ثمين هكذا منه ولا يعرف مكانه؟! الوضع الحالي للفرعون شديد الحساسية، والكهنة لم يعد لديهم ما يمكن أن يقدموه للفرعون الذي أصبحت هيبته على المحك.

هنا وقف «أنينا» بثقة أمام باب المعبد يطلب مقابلة الفرعون، وعندما

طلب الحراس منه الرحيل أخبرهم أنه يمكنه معرفة مكان الكأس. خرج إليه أحد الكهنة وقد كان يعرف «أنينا».. يعرف أنه ساحر مغمور.. تجادلا كثيرًا، فالكاهن متأكد من أن «أنينا» غير قادر على فعل أي شيء.. قال له محذرًا:

- لو أخفقت يا «أنينا» في معرفة مكانها فسوف يقتلك الفرعون.

رد عليه «أنينا» بثقة:

- لن أخفق يا سيدي.. لن أخفق.

أدخله الكاهن على مضض، فوقف أمام جثة اللص وقال بهمس ممسوع كأنه يتحدث إلى الجثة:

- عندما أريد أن أعرف منك شيئًا.. لن أسألك وأنتظرك كي تجيب أو ترفض أن تتحدث إلي.. لن أعذبك حتى تنطق.. سوف أعرف منك وعنك كل ما أريد دون أن أسألك سؤالًا واحدًا، ودون أن أنتظرك كي تقول كلمة واحدة.. سيكون استجوابي لك استجوابًا من نوع خاص.

كان يتحدث بنغم في كل كلمة يقولها كأنه يغني أغنية قبل النوم لطفل صغير. ابتسامة واثقة على شفتيه ونظرة توحي بالجنون تعلو وجهه.

كان من الطبيعي أن يظن الجميع أنه مجنون، وأن اللحظة التي سيأمر فيها الفرعون أحد الحراس بفصل رأسه عن جسده قد حانت.. لكن ما حدث بعد ذلك هل كان مذهلًا، أم من الأفضل أن نقول إنه كان مرعبًا وغريبًا؟!

# مشكلات عائلية

معظم أصحاب الحِرَف لا يكونون مقتصدين أو يتمتعون بموهبة الادخار.. لكن - كما قلنا - معظمهم على قدر ما نعرف.. أما «عادل» فقد كان من القلة التي تعمل حساب الغد.. الذي يتوقع المعظم أيضًا أن يكون سيئًا ومخيفًا, ولا يحب هو أن يخيب ظنهم.. بل ربما يجاملهم ويكون أسوأ مما توقعوا.. لكن «عادل» لم يكن يدخر لأنه يخشى الغد, بل لأنه لم يكن يعرف عَلامَ ينفق ماله أو على من.. «عادل» عامل الكهرباء الذي يقولون عنه «صنايعي» تُلف يده في الحرير.. لم يكن من هواة الجلوس في المقهى أو التدخين.. لم يكن يحب المكيفات.. كان كل ما يفعله في حياته العمل والادخار.. كان يدخر في البداية بلا سبب لأنه لم يكن يعرف كيف ينفق المال حتى رآها فأصبح الادخار له معنى وسبب.. صار يفعل كل ذلك من أجل الزواج بـ«هناء».. أول مرة رآها فيها كانت في إحدى شقق المنطقة التي كان يقوم بعمل بعض الإصلاحات بها.. كانت تنظفها, وقد فهم أنها ليست صاحبة الشقة أو ابنتها، بل خادمة.. فصاحبات الشقق لا يقمن بالتنظيف أمامه قَط.

أنهى عمله بسرعة على الرغم من أن قلبه كان قد تعلق بها وأراد أن يظل أطول فترة ممكنة معها، لكن «عادل» كان يريد أن يعرف كل شيء عنها فطلب من قلبه الصبر قليلًا حتى يعرف من هي، وربما تكون له فينعم القلب بقربها

إلى الأبد. طار «عادل» على الدرج ليسأل البواب عنها.. ذلك البواب الذي يجب أن يفكر قليلاً قبل أن يرد على أي شيء.. حتى لو قلت له «صباح الخير» فإنه سيفكر قليلاً قبل أن يرد التحية عليك.. لذلك ظن «عادل» أنه لا يعرفها، لكن البواب فاجأه برده عليه فجأة كأنه أَفَاقَ من نومه للتو:

- هل تقصد البنت البيضاء التي عند المهندس «محمد»؟

فهز «عادل» رأسه بالإيجاب.. فاستطرد الرجل:

- إنها بنت بواب جديد بالمنطقة.. أنت تعرف أنني ليس عندي بنات يمكنهم تنظيف الشقق، وزوجتي صحتها ضعيفة.. هذه الأيام لم يعد فيها بركة والحركة صارت...

فقاطعه «عادل» بلهفة وهو يعلم جيدًا أنه لو تركه فسيبدأ بالترحم على الأيام الخالية:

- وما رأيك فيها؟

فأجابه الرجل الذي بلغ من العمر أرذله:

- بنت مثل القشدة.

رد عليه «عادل» بغضب:

- احترم نفسك يا عم «عبده».. أنا أقصد هل هي من أسرة طيبة؟

فحك «عبده» - الذي ربما لم يلحظ إلا أنها مثل القشدة - رأسه وقال له

بتردد:

- أبوها يبدو عليه أنه رجل طيب.. لم يشتكِ منه أحد حتى الآن.. لقد أتى منذ فترة وجيزة.. ماذا تريد منها؟

أجابه «عادل» بحزم:

- سوف تعرف الذي أريده لكن بعد أن تعطيني عنوانها.

فضحك «عبده» وهو يجيبه بسخرية:

- أي عنوان؟! إنه بواب «برج الأحلام».. البرج بعد القادم.. منذ متى والبوابون لهم عنوان.. نحن بلا مأوى.. نحن.. «عادل».. انتظر.. أنا ما زلت أتحدث معك.

لكن «عادل» كان قد تركه وابتعد عنه بعد أن علم منه ما يريد، وقبل أن يستطرد الرجل في كلامه عن طبقة البوابين الكادحة.

***

فحبيبة قلبك يا ولدى ليس لها عنوان.. فحبيبة قلبك يا «عادل» ليس لها عنوان.. إنها ابنة بواب «برج الأحلام».

وكما هو متوقع فقد أصبح «عادل» كثير المرور من أمام البرج علّه يراها.. كأنه «الشاطر حسن» الذي يعمل في قصر الأميرة وينتظر أن تطل عليه من نافذة قصرها.. وهذا هو القاسم المشترك في معظم قصص الحب.. السهاد وعدم القدرة على النوم.. السير أمام بيت الحبيبة.. كتابة الخطابات الغرامية.. ثم تكون

إحدى النهايات السعيدة الآتية.. إما أن يتركا بعضهما لأنهما فجأة شعرا بالملل وإما لأنه وجد من هي أجمل منها، أو وجدت هي من هو أغنى منه.. تتطور العلاقة وتتحول إلى فضيحة.. يتزوجان ويكره كل منهما الآخر.. ولكن للإنصاف فالبعض يتزوج وتكون حياته سعيدة.

لم يكن «عادل» متعلمًا.. بالكاد يعرف القراءة، لكنه فهم جيدًا كلمات «قارئة الفنجان».. ربما شعر بها قبل أن يفهمها.. فهم جيدًا عناء أن تبحث عن امرأة ليس لها عنوان.. ربما لو كان «عادل» يمتلك قسطاً من التعليم لحول تلك المشاعر إلى قصيدة أرسلها إليها.. تخيل «عادل» أن الأمر مجرد إعجاب ولن يتطور معه إلى أكثر من ذلك.. لكنه هو شخصيًا كان يساعد في تطور الأمر.. لو لم يكن يريدها بالفعل فلماذا أصبح يمر كثيرًا من أمام البرج؟ لماذا تحول الأمر إلى ما يشبه المراقبة؟!

نعم.. ظل «عادل» يراقب «هناء» في الأيام التي تلت أول مرة رآها فيها.. وبدأ يلاحظ نظرات الناس إليها.. ويغار عليها من تلك النظرات.. إنها لا تمر من أمام أحد إلا ورماها بكلمة إعجاب.. كما يقول الشاعر أصبح يغار عليها من فم المتكلم.. وبالطبع معروف الألفاظ التي يعبر بها معظم الباعة في السوق عن إعجابهم.. فيمكننا أن نغير البيت إلى.. «أغار عليها من الصرف الصحي الخارج من فم المتكلم».

كانت «هناء» بيضاء.. وهي عملة نادرة في بلد لا تتركها الشمس وكأنها

ملتصقة بها.. عيناها واسعتان عسليتا اللون.. ممشوقة القوام.. لم تمتلئ كباقي النسوة في السوق فهي من أصغر الفتيات اللاتي يأتين لشراء الحاجيات من السوق.. لم يعد للفتيات مقدرة أو رغبة للنزول إلى أسواق الخضار.. ربما يذهبن إلى المراكز التجارية أو المحال التي تبيع مستحضرات التجميل.. لهجة «هناء» الريفية وتدللها في الحديث - الذي لا تستطيع أن تعرف هل هو متعمد أم فطري - زاد من جمالها وفتنتها.. كانت لا تكترث بأحد.. تسير كأنها أميرة في بهو قصرها الملكي.. لا تعبأ بالكلمات التي سمعت الكثير منها من قبل حتى صارت تألفها.. تمشي في السوق لتشتري حاجات سكان العقار فتسمع الكثير من التلميحات البريئة بالزواج فتبتسم لها في حياء مصطنع, وتلميحات لأشياء أخرى فتمشي وكأنها لم تسمعها.. هكذا الفتاة التي تريد الزواج؛ تبتسم في حياء كأنها خجلى عندما تسمع عرضًا غير مباشر للزواج، وأقصى أماني «هناء» أن تتزوج وتخرج من الغرفة التي تعيش فيها تحت الأرض مع أبيها وأمها وإخوتها.. لكنها بالطبع لن تقبل إلا بفرصة زواج فوق سطح الأرض.. لا تريد أن تعود إلى أسفل العقارات من جديد.. كانت تتذكر عندما كانت في بلدتها، وكان والدها يعمل فلاحًا بالأجر عند أحد أصحاب الأراضي الذي جعل أرضه تبور حتى يستطيع البناء فيها.. بعدها لم يجد والدها عملًا ووجد نفسه في القاهرة بعد أن نصحه قريب له بالمجيء لأنه قد وجد له فرصة عمل كحارس لأحد العقارات.. القاهرة مدينة قاسية لا ترحم، وأي وظيفة بها تحتاج إلى خبرة

حتى لو كنت ستحرس العقارات.

كانت «هناء» تتوق إلى أن تصبح سيدة بيت كما يقولون.. كانت تريد أن تكف عن خدمة من هن أقل منها جمالًا.. كانت تريد أن تعود كما كانت على الأقل في بلدتها قبل أن يفقد والدها عمله.. وإن كان طموحها قد ازداد بعد أن رأت حياة المدينة وما فيها من سُبل إشباع الشهوات.. حياة المدينة القادرة على خلق الشهوات في من لا يمتلكها.. فهل يمتلك «عادل» مقومات تلك الحياة التي تطمح «هناء» إليها؟

على الجانب الآخر كان «عادل» ينظر إلى نفسه بسخرية.! بشرته السوداء.. قامته القصيرة.. لكنه على الرغم من ذلك ليس أقصر منها.. هو بالنسبة للرجال قصير لكنه في مثل طولها.. يقول لنفسه بسخرية وهو ينظر في المرآة:

– إذا تزوجنا فسوف نصنع شايًا باللبن.

النظر في المرآة والحديث إلى النفس.. علامتان مميزتان للعشق والجنون، اللذين يمتزجان في كثير من الأحيان.

كان يعتقد أنها لن ترضى به.. كثيرون غيره اعتقدوا ذلك.. لذلك لم يُقبلوا على التقدم لخطبتها.. كانت شديدة الفقر لكنها تمتلك سلعة غالية.. يعرف الكثيرون قيمتها ويقدرونها ويمكنهم أن ينفقوا كل ما يملكون من أجلها.. إنها الجمال.. الجمال الذي قامت من أجله الحروب في ما مضى وبنيت

عليه الأساطير.. والآن حروب جديدة من نوع مختلف تقوم من أجلـه.. حـروب من نوع من يدفع أكثر يتزوج أجمل. كان يعقد العزم بينه وبين نفسه كثيرًا على نسيان ذلك الموضوع.. هي لن ترضى بك أيها الأسود القصير.. ربمـا تتـزوج أحـد أبناء سكان العقار.. هذا لو وافقت هي.

لكن البشر يمتلكون عادة غريبة تجعلهم يُقْدِمُون على فعل أشياء اعتقدوا في ما سبق أنها فاشلة ولا جـدوى منهـا.. تلـك العـادة هـي الأمـل.. لـذلك قـرر «عادل» أن يجرب حظه، وكما كـان يحـاول أن يقنـع قلبـه أن يكـف عـن حبهـا بحجة أنها لن توافق فقد أقنعه قلبه بالمحاولة وكانت حجته قوية:

- ماذا ستخسر؟ ستظل تندم طوال حياتك علـى أنـك لم تحـاول.. ومـن يعلم؟ ربما توافق بك.. أمل ضعيف أن توافق.. لكن عندك حق.. لن أخسر شيئًا.

في ذلك اليوم ذهب «عادل» إلى العقار الذي يحرسه والد «هناء» وهو يُقَدِّم قدمًا ويؤخر الأخرى.. كأنه ذاهب ليطلب الزواج بابنة الباشا وهو فـلاح ملعـون (خرسيس نرسيس)، التي بالمناسبة لا أعـرف معناهـا ولكـن مـن الواضـح أنهـا سبة.. ربما لو علم أحد أن كل ذلك الخوف والقلق من حارس العقار لسخر منـه، لكنه لو رأى «هناء» لفهم وغير رأيه.

عندما عادت «هناء» إلى الغرفة التي تعيش فيهـا مـع أسرتها في مـرآب السيارات الخاص بالعمارة رأت «عادل» جالسًا مع والدها ففهمت ما يـدور علـى الفور؛ فهي ليست بالسذاجة التي تبدو عليها.. لقد لاحظت مراقبة «عادل» لها

في الأيام الماضية.. لكنه، والحق يقال، كان يراقبها فقط دون محاولة التحدث إليها.. لم يكن وسيمًا مثل أبطال الأفلام الذين تراهم.. أو حتى كمن يغازلونها في السوق.. لكنه رجل قادر على أن يكفل لها حياة كريمة، وهي لا تريد أكثر من ذلك.

كان والدها يقف مع «عادل» أمام باب الغرفة.. فالغرفة ليس بها متسع لجلوسهما على انفراد.. دخلت «هناء» الغرفة فمرت عليهما فتعلق بصره بها وتوقف عن الحديث رغمًا عنه وكأن صاعقة أصابته حتى غابت عن ناظريه، فاستطرد بصوت مرتفع كأنه يريد أن يسمعها، بينما كانت هي تُصِيخُ السمع من الداخل:

– وأنا تحت أمرك يا عم «حسان» في كل ما تطلبه أنت و«هناء».

فرحت «هناء» لكلام «عادل»، فهي تعرف أنه يكسب ما يكفيه ويفيض عن حاجته.. سوف تحيا الحياة الكريمة التي كانت تتمناها وتستريح من الخدمة في البيوت.. سوف تطلب كل ما كانت تبتغي أخيرًا.

– يا بني كل ما نريده لها الستر وأن تتقي الله فيها.

هذا ما كان يضايقها في أبيها.. طيبته التي تراها تصل إلى حد السذاجة.. لكن «عادل» رد عليه ردًا أثلج صدرها:

– من هذه الناحية لا تخف.. ستكون في عيني.. لكن من حقها أيضًا أن أحضر لها كل ما تريد.

كان «عادل» يجد رغبة حقيقية لشراء كل ما يريده لها.. ربما كان يرى تلك هي مزيته الوحيدة ونقطة قوته. فرح «حسان» لكلام «عادل» وزاد من فرحته واطمئنانه إليه تزكية الناس لأخلاقه وسمعته الطيبة عندما سألهم عن «عادل».. ربما يكون الأوان قد آن حتى تخرج «هناء» من المرآب.. سوف تخرج للحياة.. تخرج للنور. كانت «هناء» تراها فرصة يجب أن تستغلها إلى أقصى حد، وربما لا يمكننا أن نلومها على ذلك.. فمن عاش فوق الأرض لن يشعر أبدًا – مهما وصفت له – بمشاعر من هو مدفون تحتها في ما يشبه الحياة.

***

– أنا لم أَرْتَدِ ذهبًا من قبل.. على الرغم من أننا كنا مستورين قبل ذلك.. لكني لم أمتلك قط غير هذه الأقراط التي أرتديها.

قالتها «هناء» بحسرة حقيقية لعادل وهو جالس معها عند باب المرآب الذي حل محل غرفة الضيوف بالنسبة لـ«حسان». أشفق «عادل» عليها وظهر ذلك من صوته وهو يقول لها:

– سوف أعوضك عن كل شيء.. عن تلك الأيام التي قضيتها في خدمة البيوت.. مثلك يجب أن يخدمه الناس ولا يخدم أحدًا.

فردت عليه «هناء» بدلال وهي تبتسم بامتنان:

– كم المبلغ الذي ستشتري به «الشَّبْكَة»؟

فرد عليها «عادل» بثقة:

– سوف نشتري كل ما تريدين.. لا يهم المال.. المهم أن تحصلي على كل ما تريدين.

كان «عادل» يراها كثيرة عليه.. كان كل من يراهما معًا يستكثرها عليه.. جمالها الذي لو وزع على فتيات العقار كله لتزوجن على الفور يحصل عليه «عادل».. ربما لو لم تكن ابنة حارس العقار لتزوجت ابن صاحبه.. لذلك أصبح كل ما يهم «عادل» في الحياة هو إرضاء «هناء»، وجلب كل ما يفرحها.. كان يُحضر الشيء قبل أن تطلبه أو تحتاجه.. كانت سعادته في إسعادها، وكأنه تحول إلى آلة لطباعة المال.

مرت أيام الخطبة – على قلتها – بطيئة على نفس «عادل» التي كانت تتوق إلى أن يُغلَق باب واحد عليهما.. لكنها مرت دون مشاكل تذكر، فعادل ليس له أهل وهو يذعن لكل ما تطلبه «هناء» منه.. حتى جاء موعد الزفاف الذي كلف حفله «عادل» الكثير بالنسبة لحالته المادية، والذي كان عظيمًا بالنسبة لحالته الاجتماعية.. لكن كل شيء يهون ويرخص من أجل تلك العيون العسلية.

***

ظل «عادل» قلقًا أمام باب غرفة الولادة.. لا يتوقف.. يتحرك ذهابًا وإيابًا.. ذلك المشهد الذي رآه في الأفلام وكان يسأل نفسه عن سبب توتر الزوج في أثناء وضع زوجته، وها هو يعرف الآن السبب.. الحقيقة أنه لا سبب معينًا.. ربما تكون قدسية الحياة.. هيبة الحياة الجديدة التي ستخرج إلى النور.. كائن

حي يحمل جيناتك التي لا تساوي شيئًا عند أحد سوف يحملها ذلك الطفل وربما يورثها إلى ابنه في ما بعد. عاش «عادل» يتيمًا وحيدًا فكان أعظم أمانيه أن يحصل على عائلة.. ربما لحظات ويأتي العضو الثالث في عائلته الخاصة.

لم يكن «عادل» يتخيل أن الأيام ستمر بتلك السرعة.. كأنه تزوج منذ أيام, والآن سيصبح أبًا.. تلك اللحظة الفاصلة بين كونك زوجًا, أو زوجًا وأبًا. لم يسمع صوت النكاء كما يحدث في الأفلام, بل خرجت الممرضة تبشره بمولوده الجديد الذي خرج للتو إلى الحياة.

كاد «عادل» يطير فرحًا.. قبل والد زوجته ووالدتها اللذين كانا بمثابة الأب والأم له, فوالداه كانا قد ماتا منذ وقت طويل. حاول أن يدخل ليطمئن على زوجته, لكن الممرضة طلبت منه الصبر وطمأنته عليها.

وكعادة أي مناسبة أو احتفال يجب أن يكون هناك طعام، ولكل مناسبة الطعام الخاص بها.. كان الاحتفال الذي أقامه «عادل» بمناسبة مرور أسبوع على ولادة ابنه «وليد» كبيرًا كزفافه.. وزع الحلوى والمشروبات على كل من بالشارع.. كما ذبح عجلًا صغيرًا ووزع منه على فقراء الحي ووسع على أهله وأهل زوجته.. منذ أن تزوج «هناء» والخير في ازدياد.. حتى إنه استأجر محلًا صغيرًا كبر مع الوقت.. كان يعتبر «هناء» قدم السعد عليه, واستبشر خيرًا بقدوم «وليد» الذي كانت فرحته به لا تقل عن فرحته بزوجته التي يحبها إلى أقصى حد ويستبشر بها إلى أقصى حد.

ما زاد فرحته بعد ذلك ابنته «هند» التي أنجبها بعد ذلك بسنوات.. والبنت مهما حدث يظل لها وقع خاص على قلب الأب.. لها مكانة خاصة بوجدانه.

يا لها من أسرة سعيدة!

يظل «عادل» يعمل طوال اليوم ليجلب كل ما يتمناه أهل بيته.. بل ربما يأتي بما يريدون لو سمع فقط أنه أعجبهم دون أن يطلبوه. زوجة جميلة وبصحة جيدة وتقوم بكل واجباتها.. ابن مهذب ورث بعض الجمال من أمه وابنة ورثت جمال أمها كله فأصبحت كالدمى التي تفنن صانعها في أن تكون مثالًا لكل ما هو جميل.. لن تعاني «هند» كثيرًا في الزواج بهذا الوجه الجميل.. هكذا كان «عادل» مطمئنًا على ابنته، وبالنسبة لـ«وليد» حتى لو لم يكن يحب الدراسة فسيعمل معه.. الشبح الوحيد الذي كان يطارده هو شبح المرض أو الموت.. هذا هو الشيء الوحيد الذي من الممكن أن يضرب بكل تلك السعادة عرض الحائط.

لو كانت الحياة سارت بتلك الأسرة في المسار الطبيعي الذي تسير فيه الكثير من الأسر غيرها, لما كانت موضوع تلك القصة.. كان من الممكن أن يظل «عادل» على طيبته.. أن يظل على هدوئه, لكن السنوات مرت ليبدأ فجأة صراع عنيف يعصف بالأسرة.. «عادل» صار فجأة عنيفًا مع الجميع حتى وصل الأمر به ذات مرة أن صفع «هناء» على وجهها.. حاول «وليد» تهدئته فضربه.. «وليد» لا يعرف السبب, ولم يكن يتوقع النتائج, لم يكن يتوقع أن يصل الأمر بين والده

ووالدته إلى حد الانفصال.

ما الذي حدث؟! هل هناك امرأة أخرى؟! هل نبحث عن المرأة كما قيل من قبل؟

***

جلس «وليد» على الرصيف تحت الكوبري يحتمي من حرارة الشمس.. ظل يبكي بمرارة على حاله.. طفل بالتاسعة بلا مأوى.. بالطبع لم يكن كذلك.. تذكر كيف كان حاله.. وكيف وصل إلى هذا الحال.

ظل «وليد» يبكي كثيرًا حتى جفت الدموع في عينيه.. كان يبكي من الجوع.. من الظلم.. من الوحدة والقهر والخوف.. أين سيذهب الآن؟ زوج أمه لا يريده ووالده طرده.. ما الذي حوّل والده هكذا؟! لقد كان طيبًا حنونًا.. كيف تحول في يوم وليلة إلى النقيض؟! سؤال يقتله ولا يعرف له إجابة.

كف «وليد» عن البكاء.. ربما بعد أن انتهى مخزونه من الدموع.. لكن شعوره بالجوع لم ينتهِ.. توجس خيفة من الفتى المتوجه نحوه بثقة وهدوء.. كانت ملابسه ممزقة شديدة الاتساخ.. كان في مثل سنه.. لكن ثقته بنفسه جعلته يبدو أكبر بكثير.. وقف «وليد» له عندما اقترب منه ينظر إليه برعب والولد يمد يده نحوه ويسأله:

- هل أنت جائع؟

قالها الصبي المتسخ لـ«وليد» وهو يمد يده إليه بكسرة خبز.. تردد

«وليد» في أخذها منه، وقرأ الصبي تردده فقال له:

- خذها ولا تخف.. لن تجد أفضل منها.. الآن على الأقل.

فأمسك بها «وليد» وأكلها بلهفة.. كانت شبه جافة وغريبة الطعم، بالإضافة لكونها فارغة من الداخل.. كان «وليد» لا يأكل خبزًا فارغًا أبدًا.. بل عَوَّده والده على أكل كل ما اشتهت نفسه.. لم يكن يتخيل أنه سيأتي اليوم الذي يأكل فيه من القمامة مع أحد أطفال الشوارع تحت الكوبري.. بالطبع لا يوجد أحد يكون هذا مخططه للمستقبل.. لن تجد من يقول لك إنه يريد عندما يكبر أن يصبح متشردًا.. لكنها الحياة.. الحياة التي تخبئ من الأحاجي ما يفشل في حله أمهر العقول.

قال له الصبي وقد بدأ «وليد» يطمئن له بعد أن أطعمه:

- ما اسمك؟ أنا كان اسمي «شادي».

لاحظ «وليد» تكلمه عن اسمه بصيغة الماضي، وكأن الأسماء تفنى ولا يعود لها وجود.. فرد عليه بصوت متكسر بائس:

- اسمي «وليد».

ثم فكر قليلًا.. ربما هو الآخر عليه أن يقول.. كان اسمي «وليد»، فما فائدة اسمه الآن، وأيد من وجهة نظره تلك ابتسامة الصبي الساخرة وقوله بلهجة مماثلة:

- لن تهم الأسماء بعد ذلك.

ثم أضاف سؤاله بلهجة جادة:

- منذ متى وأنت في الشارع؟

أجابه «وليد» وهو يطيل في مقاطع الكلمات:

- منذ الصباح.

كان «وليد» يقصد أن وجوده منذ الصباح فترة طويلة جدًا، فضحك الصبي بسخرية من جديد وقال له:

- لذلك ما زلت تبكي.. أنا في الشارع منذ أكثر من عام.. توقفت عن البكاء منذ مدة طويلة.

عاد «وليد» يبكي بعد أن سمع كلمات الصبي غير المشجعة.. فربت الصبي على كتفه وقال له:

- هل السبب طلاق والدك ووالدتك؟

نظر إليه «وليد» بدهشة وسأله:

- كيف عرفت؟

فأجابه «شادي» - الذي لا يهتم لاسمه أو لغيره من الأسماء - بفخر الخبير ببواطن الأمور:

- معظمنا القصة البائسة نفسها.. بالتأكيد أنت لا تريد العيش في الشارع

من باب التغيير أو هذه هي إحدى هواياتك.

فقال له «وليد» والدهشة لا تزال تسيطر عليه:

- هل يوجد الكثير مثلنا؟

فرد عليه الصبي وهو يخرج صفيرًا من بين شفتيه كناية عن الكثرة:

- في كل مكان.. الأب والأم ينفصلان.. زوج الأم لا يريد تربية ابن غيره.. زوجة الأب تعذب الطفل ليفر هاربًا.. لا يسأل عنه أحد وتنتهي القصة عند هذا الحد.. يستريح الجميع منا ونعتاد نحن العيش في الشوارع.. لقد أصبحت كل هذه الشوارع بيوتنا.. هل رأيت بيتًا أكبر من ذلك؟

رد عليه «وليد» بكلمات لا تكاد تكون مفهومة من بين نشيجه المتواصل:

- لكني أريد العودة إلى بيتي الصغير.. فالأمر معي مختلف.

ابتسم الصبي بسخرية من جديد وقال:

- كلنا كنا نعتقد أننا مختلفون.. لكن الحقيقة غير ذلك.

فقال له «وليد» وهو يجاهد ليثبت وجهة نظره:

- لا.. أنا بالفعل لا أدري لماذا تركنا والدي.. لقد طلق والدتي ولم يتزوج حتى الآن.

رد عليه الصبي بعدم اكتراث:

- لا تستعجل الأمر، سوف يتزوج بالتأكيد.

فاستطرد «وليد» بإصرار:

- لقد طلقها منذ عدة أشهر ولم يتزوج حتى الآن.

سأله «شادي» باهتمام:

- وهل تزوجت أمك من غيره؟

فأشار «وليد» بالإيجاب وقال له:

- تزوجت فنحن منذ أن تركنا والدي ولم يعد لدينا مصدر رزق.. لكن زوجها لا يطيقني وأنا كذلك لا أحبه.. لقد وافق على مكوث أختي الصغرى معه لكنه لا يريدني بالبيت.. حدث بينه وبين أمي شجار عنيف بالأمس بسببي؛ لذلك قررت الذهاب إلى والدي اليوم.

فسأله «شادي»:

- وهل تعرف عنوانه؟

فأجابه «وليد»:

- نعم.. ذهبت إليه فنهرني على المجيء إليه وطردني.. أمرني ألا أذهب إليه مرة أخرى.

حك «شادي» رأسه المليء بالحشرات قبل أن يقول بحيرة:

- تقول إن والدك يعيش بمفرده!

فرد «وليد» بثقة من بدأ يثبت وجهة نظره:

- نعم.. وقد كانت الحياة معه جميلة وهادئة من قبل.. لكن فجأة بدأ الشجار مع أمي.. لقد تحملت منه الكثير.. حتى حدث الطلاق وانفصلا.

ثم رفع صوته بالبكاء وهو يقول:

- لقد كان يحبني ويُحضر لي كل ما أريد.. ماذا حدث له؟!

قال له «شادي» بحيرة:

- لا أعرف لماذا يفعل بك والدك هذا دون سبب.. ما دام ليس هناك امرأة أخرى.. ربما أصابه الجنون.

قال له «وليد» بغضب:

- لا تقل هذا عن والدي.

ربت الصبي على كتفه مهدئًا وهو يقول بلطف:

- لا تغضب من أجله هكذا.. لقد تركك في الشارع دون مأوى.. لو كنت كلبه لعاملك بطريقة أفضل من ذلك.

ارتفع نشيج «وليد» وبكاؤه من جديد.. ربما يكون في كلام «شادي» بعض المنطق.. إنه لا يستطيع أن يكرهه، ولكنه أيضًا لا يستطيع أن يسامحه.. لقد تركه مع زوج أمه هو وأخته الصغرى.. وعندما ذهب إليه ألقى به إلى الشارع وهو يعلم جيدًا أنه لم يعد له مأوى آخر.

سأله «شادي» بجدية من جديد:

- ماذا ستفعل الآن؟

أجابه «وليد»:

- لا أدري.. لكني لن أعود إلى زوج أمي على كل حال.

سأله «شادي» بتردد:

- ألن تجرب العودة إلى والدك؟

رد «وليد» بحزم وإصرار:

- لا.. أنت لم ترَ كيف عاملني بقسوة وطردني.

قال له «شادي» بلهجة محفزة:

- لو كنت مكانك لعاودت المحاولة.

رد عليه «وليد» وقد حزم أمره:

- أنا متأكدٌ من أنه لم يعد يريدني.

قام «شادي» واقفًا وهو يقول:

- حسنًا.. فلتأتِ معي.

سأله «وليد» بدهشة:

- إلى أين؟

أجابه «شادي»:

- إلى أسرتك الجديدة.. أكبر أسرة في العالم.. وأكبر منزل.. سوف يكون كل أطفال الشوارع الذين نعرفهم إخوتك.. وشوارع المدينة بيتك.

أمسك «وليد» يد «شادي» وقام معه وهو يقول بامتنان:

- لا أدري ماذا كان يمكنني أن أفعل من دونك.

ضحك «شادي» وهو يقول له ساخرًا:

- كنت ستجد طفل شوارع غيري يتبنَّاك.

مشي «وليد» خلفه وهو يسأله بترقب:

- إلى أين سنذهب؟

أجابه «شادي» بتملل:

- وهل يمثل المكان فارقًا كبيرًا بالنسبة لك الآن؟! سوف نذهب إلى مقر الأسرة الرئيسي يا سيدي.

فسأله «وليد»:

- وأين ذلك المقر؟

أجابه «شادي» وقد بدأ يشعر أنه أصبح مرشدًا سياحيًّا:

- لا تخف.. قريب من هنا.. بين محطتي الترام.. تحت الكوبري.

سار «وليد» خلفه بجد.. يستقبل حياته الجديدة بخوف وحزن ويأس.. هي في الحقيقة ليست حياة.. لكنها محاولة للبقاء على قيد الحياة.

كان سؤال يؤرقه.. وسيظل يؤرقه، وربما لن يعرف إجابته على الرغم من أنه سوف يتحمل تبعاته: لماذا تركهم والده؟ كيف يمكن لشخص أن يتحول هكذا في يوم وليلة وكأن سحرًا قد أصابه؟! ربما تكون مشاعر الحب ليست تفسيرًا من الأساس.. لكن تحول المشاعر بتلك السرعة محير أكثر من المشاعر نفسها.. سمع عن الآباء الأنانيين الذين لا يحبون إلا أنفسهم.. لكن والده لم يكن كذلك. لماذا انطفأ حبه فجأة وتحول إلى سخط على كل شيء، حتى على أولاده؟

# العائلة

طوال الطريق وهو يسير خلف «شادي»، كان «وليد» يفكر في والده.. يتذكر كيف كان يعمل الليل والنهار ليوفر له ولأخته حياة كريمة.. كيف كان يخاف عليه من كل شيء.. كيف كان يهتم بتعليمه حتى إنه أدخله أفضل المدارس.. «عادل» والده الكهربائي الذي لم يتلقَ قسطًا وفيرًا من التعليم كان مصرًا على أن يُعلمه أفضل تعليم.. كان يكفي أن يتمنى «وليد» أي شيء ويخبر والده لتصبح المشكلة مشكلة الوالد، وهدفه الوحيد الحصول على الشيء الذي يريده «وليد».. فما الذي تغير فجأة؟!

ربما لم تعد المشكلة الآن معرفة سبب ذلك التغير المفاجئ لأن هناك مشكلة أكبر بكثير صار يواجهها «وليد».. مشكلة البقاء على قيد الحياة.. الآن عليه بمنتهى البساطة أن ينسى كل شيء عن حياته التي صارت ماضيًا.. عليه أن ينسى حياة الترف التي كان والده يحاول أن يوفرها له ويعيش في الشارع.. كان «وليد» يقول لنفسه:

- يقولون إن من لا يحمد النعمة ولا يعرف قيمتها تؤخذ منه.. لكني كنت أعرف قيمتها جيدًا.. فلماذا فقدتها؟!

يفكر «وليد» في الأمر باستغراب.. فالرجل الذي كان يدعوه «أبي» صار

عليه الآن أن يدعي أنه لا يعرفه.. ربما يراه صدفة في مكان ما.. ولن يكون عليه الهرب منه لأنه لن يطارده؛ فهو لا يريده من الأساس، عليه فقط بمنتهى البساطة أن يدعي أنه لا يعرف والده.

وصل «وليد» مع «شادي» إلى مقر العائلة المكونة من مجموعة من الصبية المطرودين والضائعين.. ربما تضيع حافظة نقودك أو حقيبتك؛ لكن يضيع طفلك شيء غريب.. الأغرب من ذلك ألا تسأل عنه، أو تدعي أنك بحثت عنه ولم تجده.

كان هناك ثلاثة صبية على جانب يشمون علبة غراء في استمتاع غريب، وهي هواية قد يتعجب منها البعض لكنها بالنسبة إليهم حلت محل المساحيق المخدرة.. آخران يأكلان ما حصلا عليه من القمامة، وقد حلت القمامة محل المراكز التجارية التي تعرض السلع المخفضة.. هنا لا توجد تخفيضات.. توجد أشياء مجانية، لكنها من القمامة.. في ذلك الركن القصي يوجد آخران يتعاركان دون أن يتدخلْ أحد للفض بينهما فقد اعتادوا جميعًا مشاهد العراك.. سوف يملان من العراك ويتركان بعضهما بعد قليل.. حتى لو مات أحدهما فلن تنقلب الدنيا من أجله.. سوف ينقلون جثته إلى مكان ظاهر حتى يراها رجال الشرطة فيدفنوها وينتهي الأمر بخبر في إحدى الصحف عن مقتل أحد أطفال الشوارع، وحلقة في برنامج راتب مذيعه قادر على حل مشكلة أطفال الشوارع، ثم يعود الجميع مرتاحي الضمير إلى مضاجعهم.

كان منظر «وليد» بملابسه التي لا تزال نظيفة وهو يسير بجانب «شادي» لافتًا للنظر، كأنه سائح نزل خطأ في إحدى المناطق العشوائية.. استوقفهما طفل أضخم منهما وقال لـ«شادي»:

- من هذا الوافد الجديد يا «شادي»؟

قالها بطريقة أخافت «وليد» الذي أمسك بذراع «شادي» بطريقة لا إرادية.. رد عليه «شادي» بعدائية لا تتناسب وفارق الحجم الكبير بينهما:

- ليس هذا من شأنك يا «حسن».

كان «وليد» يريد أن ينصحه ألا يغضبه، لكنه كان قد اقترب منهما حتى طغت رائحة أنفاسه الكريهة على رائحة اليوريا الناتجه من تبولهم في أماكن نومهم تحت الكوبري.. قال «حسن» بغلظة وصوت حاول أن يكون خشنًا قدر استطاعته، وقد كان كذلك بالفعل:

- إذا أردتني أن أتركه في حاله فليخلع تلك الملابس الجديدة وسآتي له بأخرى تناسبه.

رد عليه «شادي» وهو ينظر في عينيه بتحدٍ:

- لن يخلع ثيابه وستتركه في حاله.

لم يتكلم «حسن» مرة أخرى - فلغة الحوار هنا لا تأخذ حيزًا كبيرًا في المفاوضات - بل انهال عليه ضربًا وكأنهما كانا يتعاركان منذ ساعات.. في العادة

عندما يبدأ عراك يكون هناك في البداية شد وجذب، لكن «حسن» لا يعترف بتلك الأشياء التي ربما لا نراها إلا في برامج «المصارعة الحرة»، لقد كور قبضته وأرسلها مباشرة إلى وجه «شادي».. هذه المرة توقف الجميع عما كانوا يفعلونه والتفوا حولهما ليشاهدوا العراك.. نادرًا ما يتعارك «حسن» مع أحد؛ لأن الجميع يخشاه.. لكنه عندما يفعل ذلك يكون الأمر ممتعًا بالنسبة لهم بالطبع.. كانوا يعرفون أن الأمر سينتهي بضرب «شادي» وترك بعض العلامات على جسده للذكرى.. كان «شادي» نفسه يعرف ذلك.. هو لن يستطيع ضرب «حسن» أو حتى مقاومته لكنه في الوقت نفسه لن يكون لقمة سائغة.. سوف يقاوم ويصنع له بعض الندوب والكدمات، لكن يجب أن يتركه ينتصر في النهاية حتى يتركه.. تلك هي المعادلة الصعبة.. الحبل الذي يجب أن يسير عليه «شادي» بحذر شديد.. يتركه ينتصر لكن بعد عناء حتى يفرح بنصره، وفي الوقت نفسه لا يعاود العراك معه.. لم يتدخل «وليد» في العراك، بل تكور على نفسه بجانب أحد الجدارن في خوف كأنه ليس فقط لا يريد ألا يشاهد العراك، بل يخاف من أن يراه «حسن» أو حتى أحد المستمتعين بالعراك.

الوحيدون الذين كانوا في عالم آخر ولم يحركوا ساكنًا هم المجموعة التي كانت تشم علبة الغراء.. عندما أحس «شادي» أنه قد أرهق «حسن» بما فيه الكفاية تركه يضربه حتى يرحل وهو يعلم أنه سيضربه في النهاية على كل حال.. قال له «حسن» وهو يبصق عليه بعد أن أحس بالتعب والملل:

- سوف أتركك الآن أيها الكلب.. اشبع برفيقك الجديد.. ربما أتيت به لتعاشره.. هو مناسب لذلك بالفعل.

كان «وليد» بنظافته وملامحه التي بها الكثير من ملامح والدته يمكننا أن نعتبره أنثى بالنسبة إليهم، وربما يكون هذا ما دفع «حسن» لقول ذلك الكلام الذي لم يكن الغرض منه الإهانة، بل كان ظنًّا واقعًا في نفسه.. عندما ابتعد «حسن» جرى «وليد» نحو «شادي» الذي كان ممددًا على الأرض والدم ينزف من أنفه والكدمات تملأ وجهه وجسده.. ساعده «وليد» على الجلوس وقال له:

- أنا آسف يا «شادي».

فسأله الصبي المحطم:

- على ماذا؟

أجابه «وليد» بخجل:

- لأنني لم أتدخل وأحاول أن أساعدك في ضربه.. لقد كنت تتعارك معه من أجلي.

قال له «شادي» وهو ينفض الغبار عن ملابسه السوداء من الاتساخ التي لم يزدها الغبار اتساخًا:

- من الجيد أنك لم تتدخل.. كنت ستزيد من غضبه وضربه لكلينا.

عاد «وليد» يقول له مشفقًا عليه:

- كان من الممكن أن نعطيه ما يريد بدلًا من أن يضربك هكذا.

ابتسم «شادي» بسخريته التي صار «وليد» يعتادها وقال:

- لو أعطيناه ما يريد الآن فلن يكف عن أخذ ما في أيدينا.. لا تشغل بالك بما حدث أنا أعرف كيف يدار المكان هنا.

استند «شادي» على «وليد» وسارا معًا إلى جانب حائط عليه غطاء ممزق من الصوف.. جلسا عليه برفق و«شادي» يقول:

- سوف ننام هنا.. هذا الغطاء أنام عليه في الصيف وأتدثر به في الشتاء.. سوف تكون شريكي فيه من الآن.

نظر إليه «وليد» بصمت دون أن يتحرك، فتفرَّس «شادي» ملامحه قليلًا قبل أن يقول له وهو يضحك:

- لا تخف أنا لن أعاشرك كما قال ذلك المجنون.

رد عليه «وليد» بخجل:

- ليس ذلك ما أفكر فيه.. بل أفكر في سبب ما تفعله معي.

رد عليه «شادي» بلا مبالاة وهو يسند رأسه إلى الجدار:

- ضع هذا السؤال بجانب كل الأسئلة التي لا تعرف لها جوابًا في ذلك المكان المظلم في عقلك حتى تستريح.

تمدد «وليد» جوار «شادي» الذي كان جالسًا مسندًا رأسه إلى الجدار

فاردًا قدميه أمامه.. كانت الأرض صلبه و«وليد» لم يَعْتَد النوم عليها.. لكن إرهاق اليوم دفعه للنوم.. بعد قليل بحركة لا إرادية زحف رأس «وليد» ليستريح على فخذ «شادي» الذي لم ينم بعد والذي أراح رأس «وليد» على فخذه ونام هو جالس حتى الصباح.

***

عندما استيقظ «وليد» بعد نوم قلق استيقظ فيه عدة مرات وهو يظن أنه سيجد نفسه بالمنزل يتقلب في سريره الرحب، لتصيبه بعد ذلك بلحظات خيبة أمل سريعة من مكان نومه الجديد تحت الكوبري.. كان الوقت مبكرًا لكنه لم يعتد النوم بالشارع فأقلقه صوت السيارات والذاهبون إلى أعمالهم.. تذكر أن ذلك الوقت المبكر كان وقت ذهابه إلى المدرسة.. لكن أي مدرسة الآن سيفكر فيها وهو على هذا الحال.. بالإضافة إلى كونه في فترة العطلة الصيفية.. فالمدارس لم يعد لها وجود، والأطفال في مثل سنه في عطلة الصيف لو تحدثت معهم عن المدراس فسوف تجد أعتى إمارات الدهشة والاستنكار.. لكن على الرغم من أنها العطلة الصيفية فإن هناك شبحًا مدرسيًا يحوم في الجوار، إنه شبح نتيجة الامتحانات الذي اقترب.. لكن كل هذا لم يعد يعنيه الآن.. كان في ما مضى ينتظر النتيجة بفارغ الصبر لأنه كان يشعر بالفخر والسعادة كلما رأى تلك النظرة في عيني والده وهو ينظر إلى نتيجته في شهادة درجاته.. كان والده يحضر له مكافأة كبيرة كل عام عندما ينجح، على الرغم من أنه يحضر له الكثير والكثير من الأشياء طوَال العام بمناسبة وبغير مناسبة.. كل شيء تغير الآن ولم يعد هناك فارق كبير بين

الحاح والرسوب.. إنه يفكر في العودة إلى والدته.. لن يمكنه الصمود في الشارع أكثر من ذلك.. لكنه كلما نظر إلى آثار الكي في جسده يَعْدل عن الفكرة.

- ما سبب آثار الكي هذه في ذراعك يا «وليد»؟

كان «شادي» قد استيقظ فشاهده وهو يتأمل ذراعه المتلئة بالعلامات.. فعلى «وليد» ذراعه وهو يجيبه:

- زوج أمي.. كان يحرقني لأتفه الأسباب.. بل قل بلا سبب من الأساس.

عاد «شادي» يسأله وهو يتلفت حوله ليعرف أحوال المكان الذي بدأت الحياة تدب فيه:

- هل والدتك هي زوجته الوحيدة؟

هز «وليد» رأسه نافيًا وأجابه:

- لا.. عنده زوجة أخرى لكنها مريضة.. يذهب إليها كل فترة طويلة.. إنه لا يهتم بأولاده الذين أنجبهم منها هل سيهتم بي؟!

عاد «شادي» يسأله:

- ماذا يعمل؟

أجابه «وليد» بحسرة وكره واضح في كل كلمة من كلماته:

- نقّاش.. اسمه «بهجت».. يظل يعمل طوال اليوم لينفق كل ما يكسبه

على الحبوب الزرقاء والمخدرات.. يعطي والدتي مصاريف البيت نظير معاشرته لها.

نظر إليه «شادي» بشك قبل أن يقول له:

- كيف عرفت هذا؟! أنت تبدو ذكيًا.. الأذكياء يتعبون في هذه الحياة.

لم يعقِّب «وليد» فقام «شادي» وهو يقول له:

- هيا بنا نبحث عن شيء نأكله.. أنا جوعان.

فوقف «وليد» بجانبه وهو يردد:

- أنا أيضًا جوعان.. لكن ماذا سنأكل؟

فقال له «شادي» وهو يسير ويشير إليه أن يتبعه:

- حسنًا.. تعالَ معي وسترى كيف سنجد قوتنا.. هيا بنا، ما الذي تنتظره؟! الجميع يبحث في القمامة القريبة من الكوبري، أما أنا فأعرف قمامة سرية لا يعرفها أحد هؤلاء.. سوف نجد فيها ما لذ وطاب.

كان يتكلم كأنه يتحدث عن مخزن أحد الفنادق الفاخرة لا عن الطعام الذي من الممكن أن يجدوه في القمامة.. مشيا قليلًا حتى وجدا سلمًا للمشاة.. نقلهما إلى منطقة سكنية فقيرة.. بجانب السلم كان سور الترام لا يزال ممتدًا وبجانب السور كومة كبيرة من القمامة لم يقترب منها أحد منذ فترة طويلة.. نظر إليها «شادي» في سعادة وفخر كأنه «علي بابا» وقد فتح باب الكهف الموجود

فيه الكنز، وقال لـ«وليد»:

- ما رأيك؟ ألم أقل لك؟

لم يفقد «وليد» الوعي من السعادة كما توقع «شادي»، بل نظر إليه في حسرة وخيبة أمل كونه صار عليه أن يفرح لكونه قد وجد قمامة بكرًا لم يمسها أحد قبله، ودون سابق إنذار قفز «شادي» مباشرة وسط كومة القمامة كأنه يقفز في حمام سباحة وبدأ رحلة البحث المضنية وسط نظرات المارة التي كانت معظمها اشمئزاز واحتقار، مع بعض نظرات الخوف من الفتيات.. لم يكن «شادي» يكترث للمارة أو نظراتهم فقد اعتاد عليها حتى إنها باتت غير مؤثرة فيه.. هم يعاملونه على أنه أقل من الحيوانات فصار يقنع نفسه بأنهم غير موجودين من الأساس.. كان كذلك مشغولًا ومنهمكًا في عمله ولم يكن لديه الوقت كي يشعر بالإحباط بسبب تلك النظرات.. على عكس «وليد» الذي وقف في خجل ينظر إليه دون أن يشاركه في بحثه.. كان «وليد» يشعر بالخجل لمجرد وقوفه معه في مكان واحد. وفجأة وقف «شادي» وسط كومة القمامة ممسكًا ببنطال «جينز» ممزق في قبضته وقال لـ«وليد» بفرح:

- هل رأيت هذا البنطال؟ لقد قلت لك سوف نجد فيها الكثير من الأشياء الثمينة.

ثم بدأ في خلع بنطاله في مكانه وسط نظرات المارة دون أدنى مشكلة، بينما كان الخجل قد وصل إلى ذروته في نفس «وليد»، حتى إنه فكر في الابتعاد

عنه حتى ينتهي من بحثه في القمامة, لكنه عاد وعَدَلَ عن الفكرة بعد أن تذكر ما فعله معه «شادي» الذي كان يرتدي ملابس تحتية ممزقة لا تستره فارتدى عليها البنطال في فرح وهو يقول:

- إنه مقاسي.. الحمد لله لقد وجدت بنطالًا جديدًا.. هيا بنا الآن نبحث عن الفطور.

ظل «وليد» يتأمل البنطال الممزق ويسأل نفسه:

- لو كان هذا هو البنطال الجديد فكيف سيكون حال الطعام؟!

وبالطبع لم تكن وجبة الفطور أفضل حالًا من البنطال الذي وجده وفرح به.. كانت وجبة الفطور تتكون من خبز عليه عفن وجاف فأمسك بكيس من وسط القمامة ووضعه فيه، قبل أن يقلب ليجد علبة جبن بها آثار جبن مع ماء الجبن المالح.. قال له «وليد» بتقزز وهو ينظر بذهول إلى تلك الأشياء التي من المفترض أنه سوف يشاركه في أكلها:

- كيف سنأكل هذا الخبز العَفِن؟

أجابه «شادي» وهو ينظر إلى الكيس ويفكر.. هل سيكفيهما هذا الطعام أم لا:

- سوف نأكله بأفواهنا.

بالطبع لم يكن ذلك هو مقصد «وليد» الذي استطرد ليوضح مقصده من

السؤال فقال:

- أقصد أن هذا الخبز...

قاطعه «شادي» ضاحكًا وهو يقول:

- أنا أفهم سبب السؤال ولكنني أداعبك.. سوف نغسل هذا الخبز فيعود طريًا ونظيفًا، يوجد على الرصيف في الشارع العام مجموعة من الأشجار يسقونها كل صباح، سوف نستخدم خرطوم الماء في غسلها ونأكل تحت الأشجار.. سوف نتخيل أننا في حديقة جميلة نأكل تحت أشجارها.. لم يعد لدينا غير التخيل.. وعلى فكرة شم الغراء يساعد على ذلك.. هل تتذكر المجموعة التي كانت تشم الغراء بالأمس ولم يحركوا ساكنًا؟ إنهم مجموعة من مدمني شم الغراء.. هواية جميلة بالنسبة لحالتنا المادية.. المهم هيا بنا الآن قبل أن تزدحم الطرقات.

تركا كومة القمامة التي كانت بمثابة «البوفيه المفتوح» وصعدا سلم المشاة مرة أخرى ليسيرا بعض الوقت حتى وصلا إلى الشارع العام الذي كانت الحركة قد دبت فيه.. لم تكن الحركة الدؤوب مثل أيام الدراسة لكنها كانت نشيطة على كل حال.

عمال الحي يقلمون الأشجار ويسقونها.. فالشارع العمومي ليست له علاقة بالشوارع الجانبية.. كأنه في مدينة وتلك الشوارع في مدينة أخرى.. ذلك الشارع الرئيسي تمر فيه الشخصيات الهامة، أما الشوارع الجانبية فيسكن فيها عامة الشعب. تلفت «شادي» حوله ثم قال لـ«وليد» فجأة:

- انتظر هنا، سوف أعود على الفور.

انطلق «شادي» إلى الجزيرة التي تقسم الشارع إلى اتجاهين.. كادت سيارة تدهسه في أثناء عبوره الطريق.. صوت صرير مكابحها وسب السائق «شادي» بصوت مرتفع نبه أحد العمال على وجود «شادي».. جرى العامل نحو «شادي» حتى يبعده عن الأشجار.. لم يكترث «شادي» كان كل ما يريده استخدام خرطوم الماء قبل وصول العامل إليه.. ملأ الكيس الذي فيه الخبز بالماء والعامل يجري نحوه ممسكًا بحجر صغير ليرميه به.. جرى «شادي» قبل وصول العامل إليه، لكن العامل عندما أحس أنه لن يصل إليه في الوقت المناسب أراد أن يترك له تذكارًا.. كان ذلك التذكار هو الحجر الذي ألقاه على ظهره فأصابه إصابة مباشرة وآلمه بشدة.. جرى «شادي» مبتعدًا بعد أن أصابه الحجر وسباب العامل يلاحقه:

- اذهب يا ابن الـ... ربنا يأخذك أنت وأمثالك ويريحنا منكم.

لم يكن العامل شريرًا لكنه اعتاد أن يفعل ذلك بمن هم مثل «شادي» وأن يراهم كذلك.. ربما لو فعل تلك الفعلة طفل يقف مع والده كان أقصى ما يفعله العامل أن ينهره بلطف.. قال العامل لزميله:

- يا ليتهم يضربونهم بالنار مثل الكلاب ويريحونا منهم.

كما قلنا.. إنه ليس شريرًا، لكنها نظرية «مكيافيللي» في التخلص من المرضى وأصحاب العاهات.. هذا الرجل لا يعرف أن ما يفعله كان يمكن أن

يدخله من أوسع أبواب الفكر في عصر من العصور.. صحيح العصور المظلمة، لكنه كان سيجني الكثير من المال.. كان سيجني ربحًا أكثر بكثير مما يجنيه من العمل بالحكومة وجعله على هذا الحال.

عاد «شادي» إلى «وليد» فأفرغ الماء من الكيس على الخبز ليغسله وهو يقول له:

- هيا بنا، لا يمكننا الجلوس تحت الأشجار كما وعدتك ما دام هذا الرجل يعمل هنا اليوم.. هناك رجل آخر يراني فيدعي أنني هواء.. يتركني أجلس وبعد ساعات يقول لي: اذهب يا بني الآن سوف تمر سيارة دورية لو رأوك جالسًا في الجزيرة فسوف يأخذونك إلى القسم يمسحون بك الأرض قبل أن يعيدوك إلى الشارع، وأحصل أنا على خصم.

بالطبع هذا العامل غير مقتنع بنظرية «مكيافيللي» مثل زميله.. سأله «وليد» بحزن:

- أين سنذهب الآن؟

أجابه «شادي» بسخرية:

- كأننا كنا سنجلس في شرفة قصرنا! هل سيفرق معك المكان كثيرًا؟ أي مكان فيه ظل.

ابتعدا عن المكان بسرعة بعد أن لاحظا أن العامل يسير نحوهما، وربما يريد أن يمسك بهما بالفعل.. ظل «وليد» يسير خلف دليله وهو لا يعرف

وجهته التي بالفعل لم تعد تعنيه حتى وجدا منطقة هادئة عند مطلع أحد الجسور.. جلسا تحته فأخرج «شادي» الخبز ووضعه على الكيس، ثم نظر فجأة خلف «وليد» وقال له وهو يجري في اتجاه نظره:

– انظر هناك.

شعر «وليد» بالرعب من طريقة نظرة «شادي» وجريه فالتفت إليه بعد أن تجاوزه فرآه يجري على كيس ملقى على الأرض حمله ثم عاد به وهو يقول بفرح:

– يبدو أنك سعيد الحظ. لقد ألقى أحدهم بهذه الشطائر.. لقد صرت خبيرًا بالأكياس.. بمجرد رؤيتي الكيس من بعيد أعرف من أي مطعم وكم الطعام الموجود فيه.. من النادر أن نجد هذه الأشياء في أثناء عطلة نهاية العام.

سأله «وليد» بدهشة:

– وما علاقة هذا بالعطلة؟

أجابه «شادي» وهو يفتح الكيس:

– نأكل أولًا وبعدها أشرح لك كل شيء.

وبدآ في أكل ما جمعاه من القمامة بنهم شديد.. بفرح شديد.. برضا شديد.. على الرغم من أن القمامة هي موائدهم.

***

لم تحتمل معدة «وليد» ذلك الطعام فظل يتقيأ لساعات و«شادي» يقف إلى

جواره بملل. قال له بضجر بعد أن أوشك على الموت:

- ما لك يا عم «وليد» هل أكلت سم فئران؟!

رد عليه «وليد» وهو يلهث من فرط التعب وقد أحس أنه سوف يتقيأ معدته نفسها:

- يبدو أن الطعام كان فاسدًا.

ضحك «شادي» حتى دمعت عيناه وقال:

- بالطبع كان فاسدًا.. لماذا تعتقد إذًا أنهم قد ألقوا به في الشارع؟!

نظر إليه «وليد» في صمت.. وبدأ يفكر جديًا في العودة إلى والده.. لكن هل يعود إلى والده فيطرده مرة أخرى؟ ربما من الممكن أن تحتمل قسوة الغرباء، لكن من الصعب تحمل قسوة أقرب الناس إليك عليك.. ربما يمكنه أن يحاول مع أمه.. لكن هل يعود إلى أمه فيكويه زوجها من جديد بلا سبب كما كان يفعل.. وكأنها هواية عنده؟ غريب ذلك الشخص الذي يكوي ابن زوجته لمجرد الاستمتاع.. لكن اتضح أنه موجود.. «وليد» الآن يفتقد أمه أكثر من أي وقت مضى.. يفتقد حنانها عليه.. هي الوحيدة التي تحبه بصدق في هذا العالم.. مغلوبة على أمرها.. لو تركت زوجها فمن أين ستعيش؟ ليس أمامها سوى ابتلاع إهاناته وظلمه.. لكن السبب الحقيقي وراء كل هذا والده.. لا يدري سبب اللوثة العقلية التي أصابته فجأة وصار على أثرها على ذلك الحال.. ترك زوجته وبيته وعاش بمفرده.. حتى ابنه لم يعد يريد رؤيته.

– فيمَ أنت شارد يا عم «وليد»؟

أخرجه سؤال صاحبه من شروده.. فأجابه باليأس الذي أصبح سمته المميزة وهو يجلس على الأرض ويسند ظهره إلى الجدار الذي كان يتقيأ بجانبه ليستريح قليلاً:

– لا شيء.. ماذا سنفعل الآن؟

هز «شادي» كتفيه في لا مبالاة وقال له:

– ماذا تريدنا أن نفعل؟

أجابه «وليد» وهو يزفر في تعب:

– لا أدري.. أنا متعب الآن.

فقال له «شادي»:

– فلتنم قليلاً.. وعندما تستيقظ سوف أعلمك طرق الحصول على غداء ممتاز وطازج.

لم يغفُ «وليد» لأكثر من ساعة.. نام فيها نومًا قلقًا.. قام بعدها وقد هدأت معدته قليلاً فبدأ يشعر بالجوع.. خصوصًا أنه قد أفرغ كل ما كان فيها قبل النوم.. وجد «شادي» يجلس بعيدًا عنه قليلاً في هدوء يتأمل المارة.. فناداه وسأله:

– «شادي».. ماذا تفعل طوال اليوم؟ هل تجلس هكذا طوال اليوم لا تفعل

أي شيء سوى مراقبة المارة؟!

أجابه «شادي» وعيناه لا تزالان معلقتين على الطريق:

- مراقبة المارة شيء مهم سوف تعرف قيمته في ما بعد.. لكن عملي الأساسي طوال اليوم هو محاولة الحصول على طعام.. إذا حصلت عليه وكان لا يزال هناك وقت فيمكنني أن أستريح أو أنام.

عاد «وليد» يسأله وقد لاحت إليه فكرة فجأة:

- لماذا لم تجرب التسول؟

رد عليه «شادي»:

- ومن قال لك إنني لم أجرب؟ هل ترى ذلك الرجل هناك؟

نظر «وليد» حيث أشار صاحبه.. كان هناك رجل بملابس رثة يجلس على كرسي متحرك متهالك.. هز «وليد» رأسه بما يعني رؤيته الرجل.. فاستطرد «شادي»:

- هذا الرجل من كبار المتسولين بالمنطقة.. لو عملنا معه فيمكننا الحصول على الأكل الطيب والمأوى.. الكثيرون كانوا معنا في البداية ثم ذهبوا للعمل معه.. هل تعرف ما المؤهل المطلوب للالتحاق بالعمل عنده؟

سأله «وليد» بدهشة:

- وهل هذا العمل يحتاج إلى شهادات؟!

ابتسم «شادي» بمرارة وهو يقول:

- ليست شهادة.. بل عاهة.. إذا كنت على استعداد أن تفقد طرفًا أو عينًا فيمكنك العمل معه.. أنا أعرف أنك ربما ترى هذه الفكرة غريبة الآن.. لكن عندما ترى ما رأيت من التشرد في الشوارع لن تستغرب الفكرة وستعذر من يقدم عليها.

زادت كلمات «شادي» من الهم والحزن الذي فيه «وليد». استطرد «شادي» بطريقة عادية كأنه كان يتحدث عن مباراة كرة قدم:

- الآن سوف أعلمك كيف نحصل على غداء آدمي.

قال له «وليد» وقد تذكر لتوه حديثهما قبل نومه:

- نعم.. لقد تذكرت الآن.. لقد قلت لي عن علاقة الأكل الملقى بالشارع وعطلة نهاية العام.. أنا لم أفهم العلاقة بينهما حتى الآن.

قام «شادي» واقفًا وأمسك بذراع صاحبه ليساعده على النهوض وهو ينظر بحذر إلى رجل كبير بملابس رثة وقف بالقرب منهما، وقال لصاحبه هامسًا:

- هل ترى ذلك الرجل هناك؟

نظر «وليد» حيث أشار فرأى ذلك الرجل يخله ملابسه كاملة ويبدأ في قضاء حاجته بجانب الكوبري تحت سمع وبصر الجميع.. كان المنظر غريبًا على «وليد» الذي سأله بدهشة:

- ماذا يفعل ذلك الرجل؟!

أجابه «شادي» وهو يدفعه للسير حتى يبتعدا عن الرجل:

- لقد سمعنا عن ذلك الرجل الكثير من الحكايات.. المهم أن نبتعد عنه فمن الممكن أن يغضب في أي وقت ويقذف الحجارة على أقرب الموجودين بجانبه.

كانا قد بدآ يسيران على مهل، و«وليد» يفكر في الرجل الذي رآه للتو.. هل من الممكن أن يصبح مثله! هل الخلل العقلي الذي يعتقد أنه أصاب والده يمكنه أن يجعله مثله! يصعب على النفس أن تتخيل والدك على هذا الحال، على الرغم من أن هناك بالفعل من يتركون آباءهم هكذا وهم يقدرون على رعايتهم.

كان «شادي» قد بدأ في شرح نظريته التي عن طريقها يحصل على الطعام.. كان يتكلم كأنه عالم يشرح نظريته الجديدة في الربط بين الطعام الملقى في الشارع والعطلة الصيفية:

- هناك عدة طرق للحصول على طعام مجاني.. الطرق ترتبط بالمكان الذي سوف تطلب فيه الطعام؛ فمثلًا وسط المدينة.. هناك الكثير من المطاعم وسوف تجد الحبيب يعزم حبيبته على الغداء، وحتى لا يظهر أمامها بمظهر البخيل فسوف يطلب الكثير من الطعام الذي بالطبع لن تأكله كله حتى لا تظهر بمظهر المحرومة.. هذه الطريقة تحتاج إلى صبر وسرعة.. سوف يجلسان في أي جانب يأكلان ثم يقومان ويتركان ما فاض منهما.. هذا بالطبع إن لم يأكلا داخل

المطعم.. المكان المحرم علينا مجرد الاقتراب منه.. هناك الأسر التي تجلس مع أطفالها.. يكفي أن تقف أمامهم بعض الوقت وأنت مثبت نظرك إلى الطعام وسوف ترسل لك الأم شطيرة على الفور.. إذا كنت بالقرب من إحدى الأسواق التجارية أو «المولات» فسوف تحصل على التحلية أيضًا من الأحبة.. عندما تسير خلف الفتاة وتطلب منها بعض المثلجات التي معها فسوف تعطيها لك على الفور.. ربما لتتخلص منك أو تتقي شرك أو تظهر بالمظهر الرحيم أمام حبيبها.. لكن لا تطلب من الرجال شيئًا لأنهم دائمًا يتفاخرون كونهم غليظي القلوب ويعاملوننا بفظاظة.. بالنسبة للعطلة وعلاقتها بطعامنا.. ففي الغالب تكون الشطائر الملقاة أيام المدارس من التلاميذ الذين لا يحبون طعام أمهاتهم.. أما طالبات الجامعة فهن الوحيدات اللاتي يمكننا التسول منهن.. لكن يجب أن تنتقي.. يجب أن تكون واحدة تسير مع زميل لها.. يبدو عليهما الحب.. فتدعو لها أن يبارك لها ربنا في الأستاذ الذي يسير بجوارها.. بعضهن يستبشرن خيرًا ويعطينك.. والأخريات سوف يعطينك خجلًا.. المهم أن نحصل على ما سنحصل به على الطعام.. بالطبع لو كنا من أصحاب العاهات لحصلنا على العمل كمتسول محترف على الفور.. لكن عملية التسول بها مخاطرة جسيمة.. فلو رآك كبير المتسولين المسؤول عن المنطقة التي تتسول بها ربما أبلغ عنك الشرطة, فالقسم يعرف المتسولين المسؤولين عن المنطقة، ومتعاقد معهم.. إذا أردت أن تتسول فيجب أن يكون من خلال أحد «المعلمين» الكبار.. لذلك في هذه الحالات يذهب

واحد والآخر يراقب.. على كل حال مهما كان ما سنفعله فستقوم أنت بدور المراقب حتى تتعلم.. يبدو عليك الذكاء؛ سوف تتعلم بسرعة لكنك ما زلت خَجِلًا.. الجوع والعيش في الشارع سوف يقضيان تمامًا على تلك الصفة التي في حالتنا هذه تكون ذميمة.. هذه الصفة خاصة ببني آدم الذين لم نعد منهم.

سأله «وليد» بمزيج من الإعجاب والدهشة وهو ينظر إليه بنظرة أشبه بنظرة عالِم بحار إلى عروس البحر التي كان يعتقد أنها غير موجودة:

– كيف تعلمت كل هذا؟!

أجابه «شادي» بفخر:

– كما قلت لك من قبل.. العيش في الشارع يعلم أكثر من ذلك.

سارا فترة طويلة حتى وصلا إلى ميدان «رمسيس»، حيث وسط المدينة الذي صار بيئة خصبة للتسول والسرقة وخلافه.. تذكر «وليد» شيئًا ما فقال لـ«شادي» فجأة:

– أنت لم تحكِ لي قصتك حتى الآن.. هل طلق والدك والدتك؟

فهز «شادي» رأسه نافيًا وهو يقول:

– لقد قلت لك إن المعظم قصتهم كذلك.. أنا من القلة الذين تختلف قصتهم.

فسأله «وليد» بشغف:

- وما قصتك؟

رد عليه «شادي» وهو يجره من يده:

- سوف أحكيها لك، لكن الآن هيا بنا ندخل حمام مسجد «الفتح» فحمام المسجد خارجه.. أرجو ألا نجد أحد عمال المسجد بالداخل، فسوف يمنعنا من الدخول لو رآنا أحدهم.. أنا تعودت على قضاء حاجتي في أي جانب في الشارع.. لكن كلما رأيت مسجدًا يمكنني دخول حمامه دون التعرض للضرب دخلته اشتياقًا لاستخدام الماء.. أنت مظهرك معقول.. ادخل وإذا لم تجد أحد العمال فأشر إلي فآتي بسرعة.

سأله «وليد» بحيرة:

- وكيف سأعرف عمال المسجد؟

زفر «شادي» في ضيق وقال له:

- كيف لا تعرف شكل العمال؟! إنهم مثل.. مثل.. هذا الرجل هناك.

وأشار إلى أحد العمال الذي كان ينظف سلم المسجد.. هز «وليد» رأسه في فهم وانطلق إلى الحمام.. بعد قليل أشار لـ«شادي» الذي انطلق بدوره إلى الداخل.. لم يكن وقت صلاة، لكن الحمام على الرغم من ذلك كان مزدحمًا.. فموقع المسجد يجعله قِبلة ليس فقط للمصلين بل أيضًا لمن أرادوا الاستراحة من أسفارهم.. لذلك سوف تجد فيه دائمًا من ينام ويضع حذاءه وحقيبة سفره تحت رأسه مخافة السرقة.

دخل الصبيان الحمام.. شعر «شادي» بوخز شديد في جسده وهو يستعمل الماء لأنه لم يكن قد استخدمه منذ أيام، وبعد قضاء حاجتيهما غسلا رأسيهما وخرجا بسرعة قبل أن يلحظهما أحد العاملين بالمسجد.

جلسا تحت شجرة في ساحة المسجد فأسند «شادي» ظهره إلى الشجرة فجلس «وليد» بجانبه وفعل مثله.. وضع «شادي» يده على كتف صاحبه وهو يقول له:

- سوف أحكي لك الآن سبب تركي البيت.. والدي كان يعمل في شيء لا أعرفه.. لكنه كان يدر عليه الكثير من المال.. كان السبب الرئيسي للمشاكل بينه وبين أمي أنها تتهمه باستمرار أن ماله حرام.. كانت كلما نصحته رد عليها باستهزاء: وهل يمكن أن أحصل من الحلال على نفس المال. كانت تقول له: البركة في الحلال. لكنه لم يكن يقتنع بهذه الأشياء.. بالطبع هذا ليس سبب هروبي من البيت.. نعم فأنا من هرب من البيت.. لقد كان أبي يعود مخمورًا كل ليلة ويبدأ في ضرب والدتي.. أنا أكبر إخوتي.. لي أخت وأخ أصغر مني.. أخي الأصغر كان ساعتها قد وُلد منذ أيام.. والدتي المريضة لم تكن تقوى على مقاومته.. كنت أحاول أن أوقفه فيكون مصيري الضرب والطرد في الشارع.. كل ليلة على هذا الحال.. تعبت من رؤية أمي تُضرب كل يوم.. أبي هو من علمني النوم في الشارع حتى اعتدته.. لكنني أفتقد أمي.. أريد رؤيتها.

لاحظ «وليد» الدموع التي تترقرق في عينيه فربَّت على رِجل صديقه

المتدة بجانب رجله وقال له:

- لا تحزن يا «شادي».. يمكنك العودة إلى البيت ربما يكون والدك قد تغير بعد فرارك من البيت.

ابتسم «شادي» في أسى وقال:

- لقد ذهبت إلى البيت ذات مرة وانتظرته قرب الفجر أراقبه ساعة عودته.. كان يترنح كعادته.. وعندما صعد إلى الشقة سمعت صراخها من ضربه.. لم يتغير ولن يتغير.. أصبح من العلامات المميزة للشارع.. وصوت صراخها صار من الأصوات المألوفة ليلاً.

لم يَدْرِ «وليد» ماذا يقول له فآثر السكوت.. بعد قليل قال له «شادي» فجأة:

- هيا بنا.. هذا العامل الذي يقترب منا جاء ليطردنا.

نظر «وليد» حيث أشار زميله ليجد العامل المقصود يسير نحوهما فقام بسرعة خلف صاحبه.. قال له «شادي»:

- لم يعد أمامنا الكثير.. نمشي في شارع «عماد الدين» بعدها نكون قد وصلنا.

كانت حرارة الشمس بدأت في الانكسار فالوقت بين العصر والمغرب.. في موسم العطلة والصيف الجو لا يشجع أحدًا على المكوث بالمنزل.. بدأت شوارع

وسط المدينة تمتلئ بطالبي الترفيه عن نفوسهم التي أرهقها طول السعي خلف أرزاقها.. في ما مضى كانت منطقة وسط المدينة بمحالها الراقية وعماراتها الأقرب للتحف الفنية ملاذ أصحاب الثروات، لكن كل شيء يتبدل.. تآكلت الطبقة المتوسطة وهاجر أصحاب الأموال إلى أطراف القاهرة وصارت منطقة وسط المدينة مرتعًا للباعة الجائلين ومحترفي التسول وأطفال الشوارع الذين منهم «شادي» و«وليد».

وصل الصاحبان إلى شارع مشاة لا تمر به السيارات.. فيه عدة مطاعم، وفي نهايته مجموعة بائسة من الشجيرات على نجيلة تتظاهر بأنها حديقة.. محاطة بسور حجري صغير يجلس عليه الناس يأكلون ما اشتروه من محال الأكل القريبة.. وقف «شادي» يراقب الجالسين حتى حدد من سيذهب ليطلب منه الطعام.. قال لـ«وليد» وهو يشير إلى أسرة مكونة من أب نحيف يرتدي العوينات وأم ترتدي طرحة وتظهر عليها علامات الطيبة وطفلين يركضان حولهما:

– هل ترى هذا الرجل النحيف هناك؟ انتظر هنا وشاهد ماذا سأفعل.

ذهب «شادي» ليقف أمام الأسرة ونظر إلى الأم نظرة توسل وبدأ في ازدراد ريقه وهو ينظر إلى الطعام.. لم يلحظ «شادي» أحد عمال محل الطعام القريب وهو يقترب منه، لكن «وليد» شاهده وهو يقترب منه من الخلف ثم يصفعه بقوة على قفاه.. كاد «شادي» يقع على الأرض لكنه تماسك.. كانت

الضربة قوية، حتى إن الرجل النحيف صاحب العوينات قال للعامل بلوم:

- حرام عليك.. لا تضربه هكذا.

رد عليه العامل وهو يركله ليبعده:

- أنت لا تعرفهم يا بيه.. أولاد الحرام هؤلاء.. هؤلاء لصوص متسولون.. يضايقون الزبائن، ونحن نريد أن نرى «أكل عيشنا».

قام الرجل النحيف فهدأ العامل ثم أعطى «شادي» شطيرة وهو يقول له:

- هيا.. خذها واذهب من هنا.

قال العامل بغيظ وهو يبتعد:

- طيبتكم هذه هي ما تجعلهم يتمادون.

أخذ «شادي» الشطيرة وعاد بها إلى «وليد» الذي سأله بشفقة:

- هل آلمك الضرب؟

أجابه «شادي» في لا مبالاة:

- لا يهم.. أنا لم أعد أشعر، ولا تنظر إلي بهذه الطريقة.. هيا بنا نذهب إلى أي شارع جانبي لنأكل الشطيرة.

جلسا إلى جانب جدار في شارع ضيق.. فأعطى «شادي» الشطيرة لـ«وليد» وقال له:

- كُلْها.. أنا ليست لي رغبة في الأكل.

أخذها منه «وليد» الذي كان جائعًا وهو يقول:

- سوف أترك لك نصفها.

فأشار «شادي» بيده وهو يقول:

- لا.. أنا يمكنني أن آكل أي شيء من القمامة.. أما أنت فمعدتك متعبة.. كلُّها لا أريد منها شيئًا.

بدأ «وليد» في الأكل بنهم لأنه كان جائعًا بعد أن أفرغ كل ما في معدته.. لكنه لاحظ دموع صاحبه التي تنهمر منه في صمت.. لقد قال له إن الضرب لم يؤلمه لأنه لم يعد يشعر.. لكنه كان كاذبًا.. لقد آلمه الضرب ويبدو أنه يشعر بالقهر والشفقة على نفسه.

***

جَنَّ الليل عليهما وهما يتجولان في شوارع وسط المدينة وبدأت دور العرض في استقبال الزائرين.. سأل «شادي» «وليد» بشغف:

- هل دخلت دار عرض من قبل؟

أجابه «وليد» وهو يشرب من أحد ثلاجات الماء الموضوعة سبيلاً في الشارع:

- نعم.. لقد كان والدي يدخلنا دور العرض في العطلات.

قال له «شادي» وهو يفكر:

- أشعر من كلامك أن والدك كان شديد الطيبة.. والدي لم يفكر في فعل

نصف ما تتحدث عنه.. شيء غريب بالفعل أن يتحول والدك هكذا فجأة.. تُرى ما الذي حوله إلى هذا الحد؟

أوشك «وليد» على البكاء وهو يقول:

– لا أدري.

قال له «شادي» ليغير الموضوع حتى لا يبكي:

– هيا بنا نبحث عن أي شيء نأكله للعشاء.

هذه المرة ساعده «وليد» في الحصول على الطعام سواء من القمامة أو من الجالسين في الشارع.. عندما جمعا ما يكفيهما قال «شادي» وهو يحمل الطعام في كيس بلاستيكي:

– هيا بنا نعود إلى مكاننا تحت الكوبري لنأكل وننام.. لقد تعبت من اللف طوال النهار.

وافقه «وليد» على الفور وعاد معه إلى بيته الجديد.. ظل «شادي» طوال الطريق يتحدث عن أشياء لم يستمع إليها «وليد» الذي كان شاردًا.. يتذكر كيف كانت أمه تنتظره بعد يوم طويل من اللعب في الشارع ليستحم ويغير ملابسه قبل عودة والده الذي يعود إليه كل ليلة بشيء يحبه.. حلوى.. فاكهة.. لعبة.. الآن يعود لينام تحت الكوبري.

طال بهما السير فاستراحا في الطريق. جلسا على الرصيف.. أخرج

«شادي» من الكيس البلاستيكي الذي معه كيسًا آخر من الورق ملفوف فيه ربع شطيرة شبع صاحبها فألقى ما تبقى منه في سلة المهملات، وكانت من نصيب «شادي» الذي أعطاها لـ«وليد» وبحث هو عن شيء آخر يأكله.. سأله «وليد»:

– هل تكره والدك؟

أجابه «شادي» وهو يبتلع الطعام بصوت مسموع:

– ماذا تعتقد؟ والدي ليس كوالدك.. أنا لم أرَ منه إلا كل قسوة وحزن وظلم.. فكيف سأحبه؟ أنا أعرف فيما تفكر.. في والدك.. لا تدري هل تكرهه أم لا.. لكن على كل حال فهو السبب في ما أنت فيه الآن.

لم يرد «وليد» بل قام وقال له:

– هيا بنا أريد العودة إلى مكاننا حتى ننام.. تلك هي فائدة السير في الشوارع طوال اليوم؛ تجعلنا قادرين على النوم آخر اليوم.

أكملا.سيرهما حتى وصلا إلى المكان الذي ناما فيه بالأمس والذي صار ملجأ الكثير من الصبية أمثالهم.

جلسا يأكلان ما حصلا عليه ويحكيان لبعضهما ما حدث معهما اليوم.. كأنهما لم يكونا مع بعضهما طوال اليوم، وعندما انتهيا من الطعام وتحضرا للنوم جاء «حسن» الصبي الذي ضرب «شادي» بالأمس.

كان من الطبيعي أن يأتي «حسن» فهو يبيت في المكان نفسه، لكنه لم

يكن بمفرده هذه المرة، بل معه ثلاثة صبية في مثل حجمه.. كان الشر واضحًا على ملامحه.. كان يتجه نحوهما.. حتى إن «وليد» لاحظ أمارات الشر المبيَّت في ملامحهم فقال لـ«شادي» بخوف وبصوت مرتعش:

- ما الذي يريده «حسن» منا؟

رد عليه «شادي» بقلق:

- لا أدري.. لكن يبدو أنه ليس خيرًا.

وقف «حسن» ومن معه أمامهما.. ينظر إليهما في صمت وتشفٍّ بما ينذر بأنه ينوي الانتقام منهما.. ثم قال لهما باستهزاء:

- كيف حالكما اليوم أيها الفأران؟ كيف حالك يا «شادي»؟

لم يرُد «شادي» بل حك رأسه بطريقة حاول أن يبدو فيها واثقًا من نفسه.. فاستطرد «حسن» وهو يمسك بذراعه:

- هل ظننت أن ما فعلته بالأمس سيمر دون عقاب؟

تأكد «شادي» من أن ضربًا مبرحًا ينتظره هذه الليلة فقال له وهو يسحب ذراعه محاولًا أن يهدئه:

- ليس هناك داعٍ للعراك يا «حسن» يكفينا ما نلاقيه طوال اليوم.

فرد عليه «حسن» بسخرية:

- ومن تحدث عن العراك؟! لقد أتينا أنا وأصدقائي لنلعب معك لعبة

جميلة وممتعة.

نظر إليه «شادي» في توتر وترقب وهو لا يعرف ما الذي سيفعله به «حسن»، ولا يريد أن يعرف.. ثم فجأة بعد إشارة من «حسن» انقض عليه الصبية وانهالوا عليه ضربًا.. كان الضرب مبرحًا ومؤلمًا لكن «شادي» الذي لم يكن ينام هذه الليلة كان يتمنى أن تمر الليلة بالضرب فقط.

لم يتدخل «وليد» لشعوره بالخوف، لكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد.. لقد ألقوا بـ«شادي» على وجهه ونزعوا عنه سرواله وبدأوا في إدخال عصاة في مؤخرته.

لم يستطع «وليد» الوقوف صامتًا عند هذا الحد فانقض على الصبي الذي يمسك بالعصا وأوقعه على الأرض فقام «حسن» وهذا الصبي بضرب «وليد» بينما أكمل الآخران الاعتداء على «شادي»، وباقي الصبية يشاهدون الموقف بترقب كأنهم يشاهدون فيلم رسوم متحركة.. كان الأمر بالنسبة إليهم مسليًا، خصوصًا في عدم وجود جهاز تلفاز.

عندما انتهى «حسن» ومن معه من الضرب والاعتداء عليهما تركوهما والدم ينزف من معظم فتحات جسديهما.. لكن «شادي» كان ينزف من فتحة زائدة عن «وليد».. من مؤخرته.

قال لهما «حسن» وهو يضحك باستعراض قبل أن يرحل:

– هذا حتى تتعلم ويتعلم الجميع مَن الزعيم هنا.

قام «شادي» وارتدى بنطاله قبل ينظر إليه في تحدٍّ ويقول بسخرية وهو يمسح الدم عن وجهه:

- زعيم «مقلب الزبالة» الذي نعيش فيه.

نظر إليه «حسن» بغيظ ثم عاد وضحك هو ومن معه وذهبوا.. جرى «شادي» إلى «وليد» الذي كان ملقى على الأرض والدم يكسو وجهه.. قال له معاتبًا وهو يسند ظهره:

- ألم آمرك ألا تتدخل؟

رد عليه «وليد» بوهن والدموع تتساقط من عينيه:

- كيف لا أتدخل وأنا أراهم يفعلون بك هذا؟!

ومن بين الدماء والدموع التي تغطي عينيه رأى دموع صديقه.

# تضحية

عند الفجر شعر «وليد» بيد تهزه فقام يتلفت حوله في فزع.. خصوصًا بعد ما حدث في الليلة الماضية، لكنه كان «شادي» الذي هدَّأه.. قام «وليد» يسأله عن سبب إيقاظه في ذلك الوقت، لكن «شادي» وضع يده على فم صديقه وهو يقول له بصوت منخفض:

- اسكت يا «وليد» لا نريد إيقاظ أحد.. يجب أن نرحل على الفور دون أن يلاحظ أحد.

سأله «وليد» بصوت منخفض يملؤه الفزع:

- إلى أين سنذهب؟

ابتسم «شادي» بحزن وهو يقول له:

- تشعرني بأننا كنا في فندق «خمس نجوم».. هل تتذكر الكوبري الذي أريتك المتسول بالناحية الأخرى منه هذا الصباح؟ المكان هناك خال.. هيا بنا قبل أن يستيقظ أحد.. لا نريد أحدًا منهم أن يعرف طريقنا.. ما حدث الليلة الماضية ربما يتكرر وبصورة أبشع.

عندما سمع «وليد» أن ما حدث الليلة سوف يتكرر قام على الفور مسرعًا كأنه قد تعرض للدغة عقرب.. لَمَّ «شادي» الغطاء الذي ينامان عليه والذي يعتبر

بمثابة متاعه في هذه الحياة حتى يستطيع حمله وتحركا.. صار هذا الغطاء هو كل ما يملكانه في الحياة فحملاه بحرص شديد.. مشيا حتى اقترب موعد الشروق.. كان في مشية «شادي» عرجة من أثر الإصابة التي تعرض لها في مؤخرته.. لاحظ «وليد» عرجة صديقه فأشفق عليه وقال:

- يجب أن نشتري لك دهانًا لعلاج إصابتك.. أنت حتى لا تستطيع المشي.

رد عليه «شادي» محاولًا أن يظهر أن الأمر لا يؤلمه:

- لا تهتم.. أنا بخير.

لكن صوته كان يُظهر عكس ما يقول.. لقد كان مصابًا في جسده ومكسورًا في نفسه.. قال له «وليد» بإصرار:

- لا يا «شادي».. يجب أن نحصل على المال ونشتري لك الدواء.

فسأله «شادي» بيأس:

- وكيف سنحصل على المال؟ الجامعة في عطلة.. طالبات الجامعة فقط هن من يعطينني المال.

أجابه «وليد» بثقة وإصرار:

- سوف أدعي أنني كنت ذاهبًا لشراء أي شيء وفقدت المال، وليس معي نقود للعودة إلى المنزل.

ضحك «شادي» حتى إن الجرح آلمه فأمسك مؤخرته وهو يقول له:

- هذه خدعة قديمة الكل يعرفها.

فرد عليه «وليد» بجدية:

- سأجربها.. سوف أذهب أولًا إلى خرطوم المياه فأغسل وجهي ويدي لأبدو نظيفًا.. لن أعود لك إلا ومعي المال.

كانا قد وصلا إلى المقر الجديد الذي اختاره «شادي»، والذي يبعد مسافة كافية عن «حسن». العرق الذي تصببه حَوَّلَ إصابة «شادي» إلى جمرة من النار فوضع الغطاء الذي كان يحمله على الأرض وجلس عليه على الفور.. كان لا يستطيع أن يجلس على مقعدته فمال كثيرًا في جلسته، حتى إن «وليد» قال له بتأثر:

- استرح أنت هنا.. سوف أذهب لأعود بالطعام والدواء.

حاول «شادي» أن يثنيه لأنه كان يخافَ عليه.. فوليد ما زال جديدًا على حياة الشارع فقال له:

- لن تستطيع الحصول على أي منهما.. لا تذهب، فربما تتعرض للضرب أو السب أو أسوأ من ذلك بكثير.

رد عليه «وليد» وهو يبتعد:

- لا تخف.. دعني أجرب.

ابتعد «وليد» عن ناظري صديقه الذي كان منهكاً فآثر النوم.. رغم طلوع النهار والحركة التي دبت بقوة في الشارع نام «شادي» بعمق لتعبه وألمه وعدم نومه ليلة أمس, وحتى في نومه لم يسلم من «حسن» فكانت كل كوابيسه عما حدث بالأمس.

عندما استيقظ «شادي» أول شيء خطر بباله «وليد» الذي لم يكن قد وصل بعد.. بدأ القلق يدق قلبه الذي انشغل مع فكره على «وليد».. بدأ في تأنيب نفسه لأنه كان عليه أن يمنعه من الذهاب.. ربما لم يكن عليه تركه يذهب بمفرده.. ربما ضربه أحدهم.. ربما حاول سرقة أحدهم فسلموه للشرطة.. ربما صدمته سيارة في أثناء فراره.

كان يتدفق إلى ذهنه كل خاطرة سوداء أكثر كآبة ومرارة من الواقع الذي يعيش فيه.. وكلما مر الوقت زادت الأفكار قتامة.. لم تتوقف تلك الأفكار القاتمة حتى عاد «وليد» ومعه الطعام والدهان.. كان يسير بفخر الموظف الذي حصل على أول بطيخة في فصل الصيف.. يمشي كأنه عاد لتوه من فتح «روما». نظر إليه «شادي» بدهشة وسأله بتعجب:

– كيف حصلت على هذا الطعام؟!

أجابه «وليد» بزهو:

– لقد اشتريته.

فعاد «شادي» يسأله:

- وكيف حصلت على المال؟!

أجابه «وليد» بنفس الزهو:

- يبدو أن التسول مربح أكثر مما نتصور.

نظر إليه «شادي» وقد لاحظ لأول مرة ملامحه التي كانت أقرب للفتيات.. كان «وليد» يشبه والدته بدرجة كبيرة، لم يرث من ملامح والده إلا أقل القليل.. كان شديد بياض الوجه صاحب عينين عسليتين مثل والدته.. وله شعر ناعم.. كان شديد الجمال.. هنا قفزت الفكرة إلى ذهن «شادي» وقال فجأة بصوت مرتفع:

- لقد فهمت لماذا نجحت في التسول بهذه السهولة.

فسأله «وليد» وهو يضع الطعام أمامه:

- لماذا؟

أجابه «شادي»:

- مظهرك الذي يدعو للشفقة بملامحك التي تشبه ملامح الفتيات هذه.. خصوصًا أن ملابسك لا تدل على أنك من الشارع.. يمكننا أن نكوِّن معًا فريقًا ممتازًا للتسول.. سوف نصبح أغنياء.

فعاد «وليد» يسأله بعدم فهم، وإن كان معترضًا على حكاية ملامحه تلك:

– وكيف سنفعل ذلك؟

أجابه «شادي»:

– في البداية يجب أن نشتري لك ملابس جديدة.. سوف يكون عليك اليوم أن تقوم بما قمت به حتى نكمل ثمن بنطال «جينز» وفانلة.

فقال له «وليد» مطمئنًا:

– لا تقلق كُلْ أنت فقط الآن واستخدم الدهان.. سوف أعود إليك آخر اليوم بالمال والطعام.. استرح أنت اليوم وأنا سأقوم بكل شيء.

وبدآ في الأكل معًا.. كان «وليد» يأكل بسرعة لأنه كان متحمسًا للعودة إلى عمله.. بعدما انتهى «وليد» من طعامه قام وودع صديقه الذي قال له بقلق:

– حافظ على نفسك.. إذا أحسست بأي شيء عد على الفور.

رد عليه «وليد» وهو يبتسم:

– لا تخف.. ولا تقلق إذا تأخرت.

نظر إليه «شادي» وهو يبتعد وقال لنفسه:

– بعد أقل من ثلاثة أيام تعلم التسول.. ماذا سيتعلم بعد عام؟! هذا الفتى له مستقبل باهر.

عندما ذهب «وليد» أخذ «شادي» الدهان ليستعمله.. كان يبكي في أثناء استعماله من فرط الألم.. لكنه بعد أن انتهى بدأ يشعر بالخدر يسري في جروحه

فاستراح قليلاً.. ظل طوال اليوم يراقب المتسول الجالس على الكرسي على الجانب الآخر من الطريق, وكلما شعر بعودة الألم استعمل الدهان من جديد.. أحس بالملل من طول الانتظار، وأراد أن يشغل نفسه حتى لا يزداد إحساسه بالقلق على صديقه فقام وعبر الشارع إلى الرجل المتسول.. جلس أمامه على الرصيف فسأله الرجل بغلظة عندما انتبه إلى وجوده:

- ماذا تريد يا ولد؟

رد عليه «شادي» وهو يبتسم كأنه يتحدث إلى صديق قديم:

- ألا تعرفني يا «سليمان»؟

فرد عليه الرجل باستخفاف وسخرية:

- والله لا أتذكر سيادتك يا باشا.

فقال له «شادي» مذكرًا إياه:

- لقد كنت أريد أن أعمل معك.. لكنك أصررت أن تقوم بعمل عاهة لي.

قاطعه الرجل صارخًا لأنه تذكره للتو:

- «شادي»؟! لم أتذكرك لأنك كما تعلم يمر علي أشكال وألوان طوال النهار.. أين كنت يا حمار؟

أجابه «شادي» وهو يشير إلى الرصيف الذي كان يجلس عليه منذ قليل:

- أنا أجلس على الرصيف الذي أمامك في الناحية الأخرى منذ الأمس.

رد عليه «سليمان» وهو يفرك عينيه:

- العتب على النظر.. لم أعد أرى جيدًا ولا يمكنني أن أتسول بالنظارة.. أنا متسول.. لست طبيبًا.

تنهد «شادي» في تعب قبل أن يقول له:

- كيف حالك يا معلم «سليمان»؟

رد عليه «سليمان» بشَك:

- هل جئت اليوم لتسأل عن حالي؟ يبدو أنك قد فكرت في ما عرضته عليك.

أجابه «شادي» بطريقة توحي بأنه يريد الموافقة لكنه يحتاج إلى بعض الضغط:

- ألا يوجد طريقة أخرى غير العاهة؟

قال له «سليمان» ليزين له الفكرة:

- يا بني يوجد الكثير غيرك يتمنى هذا العرض.. لكنني أريدك أنت فأنت ولد ذكي ولماح لا ينقصك سوى العاهة.. أنت ما زلت صغيرًا، وإذا قمنا بعمل العاهة لك وأنت صغير فسيكون أمامك العمر لتكوِّن مستقبلك.

رد عليه «شادي»:

- موضوع العاهة هذا صعب ولا يمكن العودة فيه لو قمنا به.. على

العموم كنت أريد أن أسألك عن العشش التي تؤجرها.. كم سعرها الآن؟

رد عليه «سليمان» في سخرية:

- هل تريد تأجير واحدة؟!

أجاب «شادي» وهو يتصنع أن الأمر غير جدي بالنسبة له:

- لا.. أنا أسأل فقط.. نتسلى.

فقال له «سليمان» بغلظة مفاجئة:

- أنا ليس عندي وقت للتسلية.. لا تأتي إلي مرة أخرى إلا إذا كنت تريد العمل معي.. وبالعاهة.

عاد «شادي» إلى مكانه وهو يسب الرجل في سره.. كان الجوع قد بدأ يؤلم معدته التي فرغت من جديد من طول الانتظار وبدأت تطالب بحقها في القليل من الطعام.. لكن القلق علا صوته على صوت ألم الجوع.. قلقه على «وليد».

لكن قلقه لم يَطُلْ فـ«وليد» عاد ومعه كيس الطعام.. ابتسم «شادي» في فرح لعودة صديقه.. جلس «وليد» على الفور وهو يقول له:

- هيا نأكل بسرعة قبل أن تبرد الدجاجة.

لم يصدق «شادي» أذنيه.. سأله في دهشة:

- هل تقصد أن هذا الكيس به دجاجة؟!

فرد «وليد» بفخر:

– دجاجة مشوية.

أحس «شادي» بالدوار من فرط السعادة.. قال وهو يوشك على البكاء من شدة الفرح:

– لقد افتقدتها لزمن طويل.. هل أنت جاد؟!

رد عليه «وليد» وهو يفرغ ما في الكيس أمامه كأنه تاجر يتفاخر ببضاعته فائقة الجودة:

– انظر وعاين وأنت تتأكد.

كانت دجاجة حقيقية.. ذلك الكائن الذي لم يره «شادي» منذ فترة طويلة.. كان بالكاد يشم رائحة شوائها وهو يمر أمام أحد المطاعم.. قال «شادي» بسعادة وهو يتحسس الدجاجة:

– من الآن أنت المعلم وأنا أعمل عندك.

ضحك «وليد» وقال له وهو يعطيه المال الذي تبقى معه:

– وهذا المال تبقى معي.. ماذا سنفعل به؟

نظر «شادي» إلى المال وعده قبل أن يقول له:

– نأكل أولاً ثم أشرح لك الذي سنفعله.

وبدأ «شادي» في أكل ذلك الشيء الذي لم يقابله منذ فترة طويلة.. الدجاجة.. الدجاجة المشوية.

***

كانت خطة «شادي» تتلخص في جعل «وليد» يبدو في مظهـر جيـد حتـى يصدق الناس أنه بالفعل تائه أو وقع منه المال فيشفقون عليه ويعطوه مالًا بدلًا من الذي وقع منه.

هناك مشهد آخر يقومان بتمثيلـه.. يقـوم «شـادي» بتمثيـل دور الطفـل المتشرد الذي يضرب «وليد» ويسرقه لكن من يتطوع لفض الاشتباك لا يكتشف أن «شادي» سرق «وليد» إلا بعد أن يذهب «شادي»، فيبدأ «وليد» بالبكاء والعويل فما يكون من المارة إلا إعطاء «وليد» المبلغ الذي سُرق منه.

ظلا على هذا الحال فترة طويلة استطاعا خلالها أن يجمعا مبلغًـا جيـدًا من المال وأن يأكلا ما يريدان.. وكونـهما يأكلان ما يريدان كـان يعتـبر إنجـازًا لم يسبق له مثيل منذ أن ألقي بهمـا في الـشارع. أحـس «وليـد» بعـد فـترة عملـهما الطويل تلك أن هناك فائضًا من المال معهما فاشـترى ملابـس جديـدة لـ«شـادي» الذي كان يرفض تلك الفكرة وقال له عندما رآها:

- وماذا سأفعل بها؟

فأجابه «وليد» على الفور:

- ترتديها.. هذا ما يُفعل بالملابس.

فعاد «شادي» يقول له موضحًا:

- أعرف أن الملابس صنعت لذلك.. لكنني أقصد ما فائدتها بالنسبة إلي.. لقد اشترينا لك أنت ملابس جديدة حتى تناسب دورك.

فرد عليه «وليد» وهو يبتسم:

– أنت لا يمكنك الذهاب إلى دار العرض بهذه الملابس الرثة.. يجب أن نستحم ونرتدي ملابسنا النظيفة.

فسأله «شادي» بدهشة واعتراض:

– ومن قال لك إننا سوف نذهب إلى دار العرض؟!

أجابه «وليد» بثقة:

– أنا قلت ذلك.. أنت لم تدخل دار عرض من قبل.. يوجد فيلم أجنبي كله ضرب.. لكن المشكلة أين سنستحم؟

بعد قليل من التفكير قال له «شادي» وهو ينظر حوله في خوف:

– كم المبلغ الذي ادخرناه حتى الآن؟

أخرج «وليد» المال فأخذه «شادي» وعده ثم أعاده إليه وهو يقول له:

– خبئه في جيبك، سوف أذهب إلى ذلك الرجل المتسول وأعود على الفور.

عبر «شادي» الطريق إلى «سليمان» الذي ما إن رآه حتى قال له:

– هل جئت من أجل العاهة؟

رد عليه «شادي» بالنفي وقال:

– بل جئت من أجل العشة.

فكر الرجل قليلًا قبل أن يقول له:

- من أين أتيت بالمال؟

لم يرُد «شادي»، فعاد الرجل يقول له وهو يحاول أن يُظهر أن الأمر لا يعنيه:

- المهم ألا تكون قد عملت مع من يخدعك ولا يعطيك حقك ويعرضك للخطر.. كم المدة التي تريدها؟

أجابه «شادي» هذه المرة باقتضاب:

- أسبوعًا.

فابتسم «سليمان» وهز رأسه وهو يقول:

- يبدو أنك قد حصلت على الكثير من المال.. على العموم اذهب إلى العِزبة, واسأل عن «سيد الأعرج».. قل له إنك من طرفي وسوف يقوم بعمل اللازم.. الدفع مقدمًا.

فرد عليه «شادي» بفرح وهو يهم بالعودة إلى «وليد»:

- حسنًا.. سوف أعطى المال لـ«سيد» بعد أخذ العشة.

فرد عليه «سليمان» بغلظة:

- لا يا ناصح.. الدفع هنا معي.

فسأله «شادي» بشك:

- وكيف سيعرف الأعرج أنني دفعت المبلغ؟

أجابه «سليمان» مطمئنًا:

- بعد أن تدفع سوف أخبرك.

كان «سليمان» يريد التأكد من أن «شادي» يحصل بالفعل على الكثير من المال من عمله الجديد الذي لا يريد أن يخبره عنه أي شيء.. عاد «شادي» إلى صديقه وأخبره بما دار بينه وبين الرجل.. فرح «وليد» عندما عرف أن هناك أملًا في أن يكون هناك مأوى لهما فأعطاه المال على الفور ودفعه وهو يقول له:

- اذهب إليه قبل أن يغير رأيه.

عاد «شادي» بالمال للرجل الذي أخذه منه وعده بسرعة قبل أن يخفيه في ثيابه وهو يقول:

- سوف تذهب إلى العزبة وتبحث عن «سيد الأعرج» وتقول له...

قاطعهما صوت غليظ وذلك الكف الذي وضع على كتف «سليمان» بقوة فكاد يوقعه عن كرسيه وصاحب الكف يقول:

- كيف حالك يا «سليمان»؟ من هذا الصبي؟ ابنك؟

التفت «سليمان» إلى صاحب الصوت وقال له:

- «عبد الفتاح»! لقد أفزعتني.. لا يا سيدي هذا بالطبع ليس ابني.. ابني الآن معلم كبير.

فهز الرجل رأسه في رضا وقال له:

- حسنًا.. ربنا يزيد ويبارك.. لقد جئت أخبرك بميعاد الحملة.. البيه يقول لك سوف يمر عند الظهر ولا يريد رؤية أي واحد منكم.

فرد عليه «سليمان»:

- تمام.. قل للباشا كل شيء سيكون تمامًا.

فظل الرجل واقفاً ثم قال له بعد فترة:

- ماذا يا «سليمان»؟

فهز «سليمان» كتفيه وهو يدَّعي عدم الفهم.. فاستطرد الرجل:

- هذه المعلومات.. هل ستأخذها هكذا بالمجان؟!

أخرج «سليمان» ورقة مالية كبيرة لم يتبينها «شادي» رغم محاولته فوضعها في يد الرجل وهو يقول له:

- لا تؤاخذني يا «عبده».

فأخذها الرجل وانصرف.. زفر «سليمان» في ضيق وسب الرجل بعد أن انصرف ثم التفت إلى «شادي» وقال له:

- ماذا كنا نقول؟

رد عليه «شادي» سائلًا في فضول:

- من ذاك الرجل؟

فأجابه «سليمان» بضجر:

– مخبر من القسم.. ثم هذا ليس من شأنك.. نعم لقد تذكرت.. سوف تذهب إلى العزبة وتبحث عن «سيد الأعرج» هو يعرف أنني آخذ إيجار العشة قبل إرسال الزبائن إليه.. سوف تقول له: كله تمام وخالص مع المعلم «سليمان».. سوف يفهم أنك تعرفني، وأنك قد اتفقت معي على كل شيء.. على العموم لا يمكن لأحد أن يخدعنا ما دام في العزبة.. كل شيء في العزبة تحت سيطرتي.

فسأله «شادي» وهو يهز رأسه بفهم:

– هل الحمام لا يزال موجودًا؟

فأجابه الرجل بضيق:

– نعم يا سيدي.. وبنينا حمامًا آخر بعد زيادة عدد السكان ووجود عزب أخرى منافسة لنا في الأسعار والجودة.. هل تأمر بشيء آخر يا سيد «شادي»؟ هل أوقف لك سيارة أجرة حتى تذهب بها إلى العزبة؟!

علم «شادي» أن الرجل على وشك ضَربه فشكره وقال له وهو يبتعد عنه بسرعة:

– أراك في العزبة يا معلم «سليمان».. سلام.

لم يرد عليه «سليمان» لأنه كان مهمومًا ومنشغلًا بالحملة التي ستمر عند الظهيرة، والتي سوف تكون سببًا في توقف العمل لبعض الوقت.. كذلك كان

حزينًا على المبلغ الذي أخذه المخبر منه.

***

كانت العزبة عبارة عن إحدى العشوائيات التي لجأ إليها من تهدمت منازلهم وصاروا معدمين بلا مأوى ولا يمكنهم الحصول على منزل.. كانت العزبة تنقسم إلى طبقتين.. الطبقة المالكة وأصحاب الأعمال مثل المعلم «سليمان».. هؤلاء يسكنون في بيوت صغيرة مهدمة أو آيلة للسقوط، وطبقة من يعملون عندهم أو المستأجرين مثل «شادي» وصديقه.. بالطبع كانت الملاذ الأمثل للهاربين والخارجين على القانون.. كانت الشرطة لا تدخل إلا في حمى أحد المعلمين الكبار أمثال «سليمان» ولا يمكنهم القبض على أحد إلا بعد الاستئذان من المعلم أو أن يسلمه المعلم بنفسه.

وصل الصديقان إلى العزبة.. لم يطل بحثهما عن «سيد الأعرج» فهو معروف في العزبة، حيث يمكن القول بأنه المساعد الأول للمعلم «سليمان».. عندما وجداه لاحظا أنه لم يكن أعرج.. توقع «شادي» أن يجده برجل واحدة يتقافز على عكاز، دميم الملامح.. لكنه كان على العكس من ذلك تظهر عليه الطيبة ويبتسم لكل من يمر بجانبه ويسلم على الكل في أثناء قيادته لهما في الطريق إلى العشة.

كانت العشة عبارة عن غرفة من الطوب الأحمر لها سقف من الخوص وباب لا يغلق بل يتم إسناده إلى الفتحة التي دخلوا منها.. لم يطمع الصديقان في

أكثر من ذلك.. بالطبع لم يكن هنـاك أي فـرش بالغرفـة.. همَّ «سيد» بالرحيـل فاستوقفه «شادي» سائلًا:

– أريد أن أسألك سؤالًا.

كانوا قد تحدثوا قليلًا في أثناء سيرهم فأصبح بينهم شيء من الألفة فـرد عليه «سيد» مبتسمًا:

– تفضل يا عم «شادي».

كانت طريقته الودودة هي التي تشجع «شادي» على الحديث معه؛ لذلك سأله وهو يبتسم:

– لماذا يطلقون عليك «سيد الأعرج»؟

ضحك «سيد» وربت على كتف «شادي» وهو يقول:

– تقصد أن رجلي سليمة؟ يطلقون علي هذا الاسم لأنني المسؤول عن عمل عاهة العَرَج.. يعني أنا من يقطع الأرجل.

أزاح «شادي» يد الرجل عن كتفه في خوف وابتلـع ريقـه بـصعوبة وهـو ينظر إليه بفزع.. فخرج ذلك الأخير وهو ما زال يضحك.. تمتم «شادي» بعـد أن خرج الرجل:

– غريبة أن يكون هذا مظهره!

حاول «شادي» نسيان الأعرج فسأل صاحبه:

- ما رأيك في العشة؟

أجابه «وليد» بخيبة أمل:

- أفضل من لا شيء.. الآن ماذا سنفعل؟

رد عليه «شادي» بحماس:

- سوف أذهب إلى الحمام لأستحم وأعود إليك لأغير ملابسي ونذهب معًا إلى دار العرض.

كانت القمامة هي السمة المميزة للمكان.. الشارع نفسه عبارة عن قمامة تسبح في مياه المجاري الطافحة.. سار «شادي» حتى وصل إلى الحمام الذي يدخله أصحاب العشش جميعًا.. كان الحمام مشغولاً فانتظر «شادي» بعض الوقت حتى خرج من بالداخل.. كانت سيدة ممتلئة الجسد ترتدي قميصًا شفافًا بلا أكمام وتسير بجسد مبتل مما جعل القميص يلتصق بجسدها السمين.. كانت تسير كأنها في ردهة شقتها الخاصة واضعة المنشفة على كتفها.. نظر إليها «شادي» في بلاهة وهي تمر من أمامه بينما لاحظت هي نظراته فأطلقت ضحكة رقيعة تردد صداها في المكان. بعد أن مرت السيدة نظر «شادي» إلى الحمام الفارغ.. الحمام الذي كان حلمًا بعيد المنال والآن يدخله ليستحم.. كان مصدر الماء الوحيد للعزبة عبارة عن وصلة مياه مسروقة, ورئاسة الحي تعرف وتدعي الجهل.. أحس «شادي» بألم شديد عندما لمس الماء جسده الذي لم يمسه منذ فترة طويلة.. ربما منذ أن كان بالمسجد، وعندما كان بالمسجد لم يستحم.. كان الماء

ينزل على جسده فيشعر كما شعر في المسجد بتلك الإبر توخزه برفق.. أحس بأنه يعود إنسانًا بالتدريج.. عندما عاد إلى العشة لم يعرفه «وليد».. فقد ظهرت ملامحه من جديد.. كان رغم كل شيء على قدر من الوسامة.. خصوصًا بتلك الابتسامة التي علت وجهه.. قال له «وليد» بسعادة وهو يهم بالخروج من العشة:

– مظهرك بعد الاستحمام شجعني عليه.. سوف أذهب الآن لأستحم ثم نخرج على الفور.

***

عندما دخل «شادي» دار العرض لم يصدق أنه يرى الشاشة الفضية.. إنه أمامها وجهًا لوجه.. لم يهتم بالفيلم بل كل ما كان يهمه إحساسه بأنه يجلس في كرسي دفع ثمنه مقدمًا.. مشاهدة المشاهد على تلك الشاشة الكبيرة تختلف تمامًا عن مشاهدة الأشياء في تلفاز المنزل.. لاحظ «شادي» الفتاتين اللتين كانتا في مثل عمره.. كانتا تجلسان في الصف الذي يليه عن يمينه فكان يمكنه رؤيتهما إذا التفت عن يمينه قليلًا.. كانتا تتهامسان وتشيران إلى حيث يجلس مع صديقه.

لم يصدق «شادي» نفسه.. هل هما معجبتان به وبصديقه؟! لكز «وليد» في كتفه وقال له هامسًا:

– هل ترى هاتين الفتاتين؟

نظر إليه «وليد» بدهشة وسأله:

- أين؟!

نظر «وليد» إلى حيث أشار «شادي» ليجد الفتاتين تتهامسان وتضحكان بصوت منخفض.. سأله «وليد»:

- هل كانتا تنظران إلينا؟

أجابه «شادي» وهو يحك رأسه:

- أظن ذلك.

نسيا الفيلم وظلا طوال مدة عرضه ينظران إلى الفتاتين.. لاحظت الفتاتان كذلك ما يفعله الصديقان.. فظلتا تختلسان النظر إليهما، وأحيانًا تتعمدان الضحك لهما بوضوح في إشارة واضحة لهما وتشجيع بالتقدم.

عندما انتهى العرض أمسك «شادي» بيد صاحبه وقال له بحماس:

- هيا بنا حتى لا نفقدهما.

رد عليه «وليد» بتردد:

- ماذا ستفعل يا متهور؟

قال له «شادي» وقد حزم أمره:

- اتبعني ولا تتردد.

انتظر «شادي» حتى خرجت الفتاتان إلى الرواق المؤدي إلى الخارج فسار

مع صديقه خلفهما ثم قال لإحداهما من خلفها وكأنه يتحدث إلى صديقه:

- لقد كان الفيلم جميلاً.. أليس كذلك يا «وليد»؟

فهم «وليد» مراد صديقه فرد عليه رغم شعوره بالخجل:

- لقد كان جميلاً.. في غاية الجمال.

ضحكت الفتاتان فسار «شادي» بجانب إحداهما وقال لها:

- هل أعجبك الفيلم؟

ردت على استحياء مصطنع:

- نعم.

كان هناك رجل عجوز قد لاحظ ما يفعله الصديقان فظل يضرب كفاً بكف غير مصدق ما يفعله أطفال هذه الأيام.. كان «وليد» يسير بجانب صاحبه في خجل فهو لم يسبق له أن تكلم إلى فتاة لا يعرفها.. قال «شادي» للفتاة:

- أنا «شادي» وهذا «وليد» صديقي.

كان ينتظر أن تعرفه الفتاة بنفسها وصديقتها كما فعل، لكنها اكتفت بالابتسام والصمت فسألها:

- ألن نتعرف؟ إذا كان لا يضايقك ذلك.

أجابته الفتاة وهي لا تزال تتصنع الخجل:

- أنا «مي» وهذه صديقتي «منى».

كانا اسمين مستعارين كعادة الفتيات المخضرمات في مجال التعرف إلى الفتيان.. كان «شادي» يعرف ذلك فقال لها بلهجة ذات مغزى:

- ومن منكما ستكون «مي» المرة القادمة.. فأنا أحب هذا الاسم.

ضحك الجميع عدا «وليد» الذي كان لا يفهم أي شيء.. مال عليه «شادي» وسأله بصوت منخفض:

- هل معك المال؟

هز رأسه بالإيجاب فقال له «شادي»:

- هيا بنا نعزمهما على الأكل في أي مطعم.

اعترض «وليد» قائلًا برعب:

- سوف ننفق كل ما معنا.

رد عليه «شادي» متوسلًا:

- أرجوك يا «وليد».. لا يهم المال.. أريد أن أشعر أنني مثل بقية الشباب في سننا.

فقال له «وليد» في عناد:

- لكننا لسنا شبابًا.

فقال له «شادي» ملحًا:

- أرجوك يا «وليد».. لن أطلب منك شيئًا آخر بعدها.

فأذعن «وليد» لصديقه في استسلام.. لقد كان هو صاحب فكرة الذهاب إلى دار العرض من البداية وعليه أن يدفع الثمن.. لم يكن «وليد» مرتاحًا لوجوده مع الفتاتين لكنه كان يشعر بالرضا لتلك الفرحة التي يراها في عيني صاحبه.

***

عندما عادا إلى العشة كان «شادي» يكاد يطير من الفرحة، لقد ذهب إلى دار العرض وتعرف إلى فتاة في نفس الليلة.. سأله «وليد» وهو يغير ملابسه:

– هل ستراها مرة أخرى؟

أجابه «شادي» بثقة:

– بالطبع لا.

فعاد «وليد» يسأله في حيرة:

– ما الفائدة إذًا في ما فعلناه الليلة وما أنفقناه عليهما؟!

جلس «شادي» على الأرض وقال له:

– ألم تلحظ أنهما كانتا دميمتين؟

أجابه «وليد»:

– بلى لاحظت بالطبع.

فاستطرد «شادي»:

– هذه النوعية من الفتيات يكن في حاجة إلى أي شخص يشعرهن بأنهن جميلات ومرغوبات.. أنا قمت بهذا الدور.. سوف تسأل نفسك عن الفائدة التي

حصلت عليها.. أنا مثلهما.. لم تنظر إلي أي فتاة في يوم من الأيام.. فالمنفعة بيننا متبادلة.

قال له «وليد» وهو يتنهد بألم:

– عندما أتحدث معك أشعر كأنك أكبر من عمرك هذا بكثير.

رد عليه «شادي» بحسرة:

– من كان له والد كوالدي وعاش في الشارع مثلي فيجب أن يكبر بسرعة.

ثم فرش الغطاء على الأرض وهو يقول لصاحبه:

– يجب أن ننام حتى نبدأ في الغد في تعويض ما أنفقناه الليلة على هاتين البومتين.

ضحك «وليد» ونام على الأرض بجوار صديقه. بعد أن استغرقا في النوم وبدأت الأحلام التي هي في الحقيقة عبارة عن خلط لأحداث اليوم تطاردهما.. أيقظ الألم «وليد».. ألم يضرب جانبه الأيسر.. ظن في البداية أنه سوف يذهب بسرعة كما جاء وذهب من قبل.. لكنه هذه المرة بقي كما هو ولم يتزحزح.. مع الوقت ازداد الألم.. بدأ يتأوه ثم تحولت تأوهاته إلى صراخ أيقظ «شادي» وجعله يقوم ويسأله في فزع:

– ما الذي حدث؟! ماذا هناك يا «وليد»؟!

أمسك «وليد» بجانبه وهو يتلوى على الأرض ويصرخ:

- جانبي يؤلمني بشدة.. أشعر أني سأموت.

انتفض «شادي» واقفًا وقال له:

- لا تخف سوف أحضر لك المساعدة.

انطلق «شادي» إلى الخارج ثم وقف يفكر.. أين سيذهب، إلى من سيلجأ خصوصًا أنه قد نفد كل ما كان معهما من مال تقريبًا.. تذكر «سيد الأعرج».. مكان بيته ليس بعيدًا.. عندما وصل ودق الباب فُتح ليجد امرأة ترتدي قميص نوم شفافًا - يبدو أن هذا هو الزي الرسمي للمكان - تقول له وهي تترنح كأنها سكرى:

- ماذا تريد يا كتكوت؟

ذكرته بوالده فرد عليها في ضيق:

- هل «سيد الأعرج» موجود؟

ردت عليه السيدة بسخرية:

- نقول له من يا كتكوت؟

أزاحها «شادي» بيده ودخل وهو ينادي على «سيد» الذي ميزه بصعوبة من بين سحابة دخان الحشيش الزرقاء التي ملأت المكان وجعلت الرؤية أمرًا غير اعتيادي.. سأله «سيد» بغضب:

- ماذا تريد يا «شادي»؟

رد عليه «شادي» بتوسل:

- صديقي مريض بشدة أريد مساعدتك.

رد عليه الرجل بضيق:

- لن يموت لو انتظر حتى الصباح.

أمسك «شادي» يده وقبلها ثم نزل ليقبل قدميه وهو يردد:

- أرجوك يا معلم «سيد».. أرجوك.

أعجبته كلمة معلم فقام وهو يقول له:

- حسنًا سوف آتي معك.

ثم قال للحضور وهو خارج:

- لا أحد يقترب من «سامية» حتى أعود.

لم يسمعه أحد ولم يكن أحد منهم مستيقظًا من الأساس, حتى «سامية» نفسها التي فتحت الباب فتحته وهي نائمة تقريبًا.. عندما خرج «سيد» وشعر بهواء الفجر يضرب وجهه أحس بأنه يعود إليه وعيه.. سمع صراخ «وليد» قبل أن يصل إلى العشة فعلم أن الصبي مريض بشدة.

دخل «سيد» العشة ليجد «وليد» يتلوى على الأرض كأن أفعى تعضه.. نزل «سيد» على ركبتيه على الأرض بجانب «وليد» فوضع يده على جانبه

بطريقة جعلت الصبي يصرخ من فرط الألم فنهض وقال لـ«شادي»:

– صديقك مصاب بالزائدة.. يجب أن ننقله إلى المستشفى.

رد «شادي» بسرعة:

– حسنًا فلننقله الآن.

سأله «سيد» بعد وقت قصير من التفكير:

– هل معكما مال؟

بحث «شادي» في ثيابهما فأخرج كل ما كان في جيوبها ليعطيه للرجل الذي أمسك بالمبلغ وقال له باستحقار:

– هل هذا كل ما معكما؟

فأومأ «شادي» برأسه ولم يرد فاستطرد «سيد»:

– هذا لن يكفي الكشف فما بالك لو احتاج إلى عملية جراحية؟

قال له «شادي» ليستجديه:

– ماذا سنفعل؟ سوف يموت لو تركناه هكذا.. هل يمكنك أن تقرضني المال.

نظر «سيد» إلى الولد الملقى يتألم على الأرض ثم نظر إلى «شادي» الذي كان يتوسل إليه، ثم قال وهو يتنهد:

– حظك جيد لأنك وقعت في يد رجل طيب مثلي.. سوف أعطيك المال

ليس من باب الإقراض.. لكنه سيكون مقابل عمل سوف نقوم به معًا.

رد عليه «شادي» على الفور:

- أنا مستعد لفعل أي شيء.

أخبره «سيد» عن العمل الذي يريده القيام به.. كان كل ما يريده «شادي» أن ينقذ صديقه فوافق على الفور.. فقد كان بالفعل مستعدًا لفعل أي شيء.. أي شيء ينقذ به حياة صاحبه.

***

تم نقل «وليد» إلى المستشفى الحكومي القريب من العزبة.. كان «سليمان» يعرف مدير المستشفى.. قام كل منهما بعمل الكثير من العمليات غير المشروعة من أجل الآخر.. بالطبع يجب أخذ بيانات المريض قبل دخول غرفة العمليات.. كذلك الحصول على موافقة ذويه.. لكن مع «سليمان» الأمر يختلف.

دخل «وليد» المستشفى فكشف عليه طبيب يرتدي بالطو متسخًا.. تكلم بعدم اكتراث وهو يأكل شطيرة:

- هل اتفقت مع المدير على كل شيء يا معلم «سليمان»؟

فأومأ «سليمان» برأسه وهو يقول:

- بالطبع يا دكتور.. كل شيء تمام.

فرد الطبيب وهو يمسح المخاط الذي تدلى من أنفه بسبب الشطة الحارقة التي كانت في شطيرته:

– حسنًا.. غرفة العمليات جاهزة.. أدخله يا معلم ريثما أغسل يدي.. أنت تعرف مكان الغرفة.. أليس كذلك؟

خرج الطبيب الذي لا يبدو كذلك.. كان «شادي» يقف بجانب صديقه يشجعه:

– لا تخفِ يا «وليد» فهذه العملية سهلة وبسيطة.. سوف تخرج من المستشفى في الغد.

فسأله «وليد» وهو يئن في تألم بالغ:

– من أين أتيت بالمال؟

فنظر «شادي» إلى المعلم «سليمان» وقال:

– لقد تكفل المعلم بكل شيء.

ربَّت «سليمان» على كتف «شادي» وقال له برفق:

– هيا ندخله غرفة العمليات.

قام «وليد» بصعوبة واستند على صديقه و«سيد» حتى وصل إلى غرفة العمليات فحمله «سيد» إلى السرير الذي ستتم العملية عليه.. بعد قليل دخل طبيب التخدير.. لم يتكلم مع أحد.. حقن «وليد» بالمخدر وخرج بسرعة.. تذكر «وليد» والده الذي كان بجواره دائمًا في مرضه.. لكن هذه المرة كان آخر ما رآه ابتسامة «شادي» المشفقة عليه.

كان الأمر كأنه أغمض عينيه ثم فتحهما.. كان أول ما رآه ابتسامة «شادي» كما كانت آخر ما رآه.. كان «وليد» يشعر بالألم مكان الجرح في جانبه.. وضع «شادي» يده اليمنى على جبين صديقه وقال له وهو يبتسم برفق:

– حمدًا لله على السلامة يا عم «وليد».

رد عليه «وليد» وقد بدأ يستعيد كامل وعيه:

– الله يسلمك.. لقد رأيته في نومي.

فسأله «شادي» وهو يعتقد أن صاحبه يخرف بسبب المخدر:

– من ذاك الذي رأيته؟

أجابه «وليد» وهو يبكي:

– والدي يا «شادي» كان يقف بجانبي.. يُرَبِّت علي برفق.. يحاول أن يخفف الألم عني.. وجهه لم يكن واضحًا, وعندما دققت النظر فيه رأيت وجهك أنت يا «شادي».: أشكرك على كل ما فعلت من أجلي يا صاحبي.

فَرَبَّتَ «شادي» برفق على صدره وهو يردد بابتسامة راضية:

– يا عم.. البركة في المعلم «سليمان».. لولاه لما قبلك أي مستشفى حتى لو كان معنا المال.

كان «سليمان» يقف عند باب الغرفة فنادى على «شادي» بصوت عالٍ:

– هيا بنا يا «شادي».. اترك «وليد» ليستريح.. نحن عندنا عمل نقوم

به.

قبَّل «شادي» صديقه وتوجه نحو الباب. عندما ابتعد عن سرير صديقه لاحظ «وليد» اختفاء كف يد «شادي» اليسرى.. هل من الممكن أن يكون قد سقط منه بمنتهى البساطة.. كان مكان كفه رباط عليه آثار دم.. صرخ «وليد» بفزع في صاحبه قبل أن يخرج:

- أين كفك يا «شادي»؟

رد عليه «شادي» وهو يبتسم بسخرية:

- أكلته القطة.

عاد «وليد» يسأله السؤال نفسه والكلمات بالكاد تخرج من بين نشيجه فرد عليه «شادي» هذه المرة بجدية:

- لكل شيء في هذه الحياة ثمن يا «وليد».. لقد ولى الزمان الذي فيه أناس يفعلون الأشياء دون انتظار مقابل.. على فكرة أنا كنت حَسَنَ الحظ. لم أتألم وخيروني بين كفي اليمنى واليسرى.. فاخترت اليسرى لأنني أيمن.. على كل حال سوف أعتبر أنني مولود هكذا.

كان «شادي» يريد الجلوس مع صاحبه، لكن المعلم «سليمان» كان يستعجله، فقبل صاحبه من جديد وخرج مسرعًا.

خرج «شادي» وأغلق الباب خلفه, ليترك «وليد» وحيدًا في الغرفة يبكي

في مرارة وينظر إلى الباب بكراهية ليس لها مثيل كأنه يرى المعلم «سليمان» من خلفه.

# أين أنا؟

عاد «وليد» إلى العشة بعد أن فقد زائدته, ومعه «شادي» بعد أن فقد كفه اليسرى.. كان الذي قطع يد «شادي» قد شوه ذراعه عن عمد حتى يبدو وكأنه فقدها في حادث، لذلك قطعها لتبدو الذراع مشوهة.. كان «وليد» كلما نظر إلى ذراع صديقه من دون الكف شعر بالذنب.. ظل ينظر إلى ما تبقى من ذراع صاحبه حتى غلبه النعاس.. نام «وليد» على الأرض فقد كان منهكًا من العملية الجراحية, ولا يزال أثر المخدر الذي أخذه يؤثر عليه.. تركه «شادي» على الأرض وذهب لشراء الطعام. منذ أن أُجريت العملية لـ«وليد» وهو يشعر بالنعاس، لذلك ظل نائمًا ولم يوقظه إلا صوت الكيس الذي كان «شادي» يُخرج الطعام منه.. أحس «وليد» بألم – وهو يحاول الجلوس – في جانبه الذي كان لا يزال مشقوقًا؛ فجرح العملية الجراحية لم يلتئم بالطبع.. ساعده «شادي» على الجلوس وسأله مداعبًا:

– خمِّن ماذا أحضرت لك اليوم؟

أجابه «وليد» وهو يستنشق الرائحة مازحًا:

– أظنها دجاجة مشوية.. معقولة؟! يبدو أننا سوف نعتاد أكل الدجاج.. هذا أمر خطير.

رد عليه «شادي» بثقة:

– طبعًا معقولة.. من اليوم لن نأكل إلا ما نريد.

سأله «وليد» بحزن وجدية:

– هل هذا ثمن كافٍ ليدك؟

. كان «شادي» يجاهد ليخرج الطعام من الكيس بيد واحدة.. فهو لم يَعْتَد استخدام يد واحدة بعد.. ترك الكيس ورد عليه بحزن:

– لقد كنت أنقذ حياتك.. حياتك ثمن كافٍ.

عاد «وليد» يسأله في دهشة واستنكار:

– لماذا ساعدتني؟! لماذا لم تتركني عندما رأيتني؟! لقد مر من أمامي العشرات لم يسأل عني غيرك.. لماذا؟!

زفر «شادي» في ضيق ورد عليه:

– لا أعرف.. لكني أحسست أني أعرفك منذ زمن.. ربما ذكَّرتني بنفسي.. لقد كرهت والدي بعد سنوات من الظلم، وكان يكفي أن أكرهه بعد يوم واحد من الحياة معه, وأحببتك منذ أن رأيتك أول مرة وأنت جالس على الرغم من أني لم ألتقك من قبل.. ربما تذكرت أخي الصغير.. ربما هو القدر أرسلك إلى وأرسلني إليك.

ثم استطرد ضاحكًا فجأة:

- والآن كفانا حزنًا.. أخرج الطعام من الكيس.. من الآن سوف نأكل كل يوم دجاجًا حتى تنبت هذه اليد من جديد.

قال «وليد» وهو يزدرد الطعام:

- من أين تأتي بالمال الآن؟

أجابه «شادي» وهو يضحك:

- أنا أقوم بدور ابن «سليمان».. هو مشلول وأنا فاقد يد.. يعطينا الناس المال وهم موشكون على البكاء.

عاد «وليد» يسأله:

- هل العمل معه مربح؟

أخرج «شادي» صفيرًا من فمه وهو يجيب:

- أكثر بكثير مما كنا نجمع.. لو كنت أعلم أن الربح سوف يصل إلى هذا الحد لتركت له يدي منذ زمن طويل.. ربما تركت له رقبتي لو طلبها مني.

عاد «وليد» يسأله بضيق:

- ماذا سأعمل أنا الآن؟

أجابه «شادي» بحزم:

- أنت الآن مريض.. عندما تستعيد عافيتك سوف نبحث لك عن عمل.. لقد تحدث معي المعلم «سليمان» في هذا الأمر, وكان بالطبع عنده بعض

الاقتراحات الخاصة بالعاهات, لكن لا تخف سوف نحاول أن نجد لك وظيفة بعيدة عن بتر الأعضاء.

كان يحاول أن يُطمئن صديقه على الرغم من أن المعلم «سليمان» كان مُصِرًّا.

***

كانت الوظيفة التي وجدوها لـ«وليد» هي أن يقوم بدور الصبي المضروب.. بالطبع اقترح «سليمان» أن تُقطع له رجل أو تُفقأ له عين.. لو سمعنا كلام ذاك الرجل فسيتحول نصف الأطفال إلى أشخاص من ذوي الاحتياجات الخاصة.. لكن «شادي» رفض أي تقطيع آخر, يكفي ما تم بتره.

كانت مهمة «وليد» بسيطة.. سوف يرتدي أفضل الثياب ويقف وحده ليأتي إليه أحد الصبية المتشردين ويضربه.. يتجمع الناس لإنقاذ «وليد» الذي تبدو عليه علامات الطيبة والرقي.. في أثناء الزحام سوف يقوم «سمير الديب» بسرقة ما في الجيوب.. ولأننا لم نلتقِ «سمير الديب» من قبل.. فلمن لا يعرفه.. هو مسجل خطر قضايا سرقة بالإكراه ونشل وعليه الكثير من الأحكام الغيابية, وكالعادة الشرطة تعرف طريقه وتسير بجانبه كأنه يرتدي «طاقية الإخفاء».

سوف يكون هو المسؤول عن «وليد» منذ هذه اللحظة، وسوف يقوم بتدريبه, فإما أن تعمل مع المعلم «سليمان» بعد التخلي عن أحد أعضائك, وإما يُرسلك إلى «سمير» ليتم تحويلك إلى بلطجي أو نصاب.. هم الآن يقومون بعمل

مزج بين النصب والسرقة عن طريق تلك القصة القديمة.. التي لقدمها لا يتخيل الناس أن اللصوص ما زالوا يستخدمونها.

كانوا كل يوم يقومون بعمل هذه التمثيلية في مكان مختلف.. حتى إذا أحسوا أن الناس انتبهت لتلك القصة.. بدأوا في تنفيذ خطة جديدة وقصة جديدة.. عمل يحتاج إلى ذهن حاضر وإبداع متجدد لا ينقطع.

ذات مرة و«وليد» يتم ضربه بشدة وقع على الأرض.. تجمع الناس من حوله ليساعدوه على النهوض.. استند «وليد» على يديه وحاول النهوض, وفي لحظة وهو ينهض رأى ذلك الرجل.

رجل ملامحه جادة في سيارة «جيب» سوداء.. ما لفت انتباهه إليه نظرة الرجل الثابتة في عينيه.. كأن الزمن قد توقف للحظات عندما التقت عيناهما.. ثم اختفى عندما انفض الناس من حوله.

لا يعرف ما الذي جعل تلك النظرة الثابتة تلتصق بذاكرته.. كأن ذلك الرجل يعرفه.. ربما كان أحد معارف والده ويعرفه بالفعل.. لكنه متأكد من أنه لم يرَه من قبل.

عاد «وليد» إلى العشة شارد الذهن.. يُفكر في أمر ذلك الرجل.. دخل «وليد» إلى العشة الفارغة حيث لم يكن صاحبه قد عاد من عمله بعد.. ظل على حاله حتى وصل «شادي» ولاحظ شروده, فسأله مستفسرًا عن السبب:

– فيمَ أنت شارد هكذا يا «وليد»؟

فحكى له «وليد» عن أمر ذلك الرجل.. رد عليه «شادي» في لا مبالاة:

– وماذا تعتقد أن يكون ذلك الرجل؟ جميع من في الشارع يشاهدنا.. ماذا في هذا؟

رد عليه «وليد»، وكأنه لا يستطيع التعبير عما في داخله:

– لكن ذلك الرجل كان في نظرته شيء غريب.

سأله «شادي» بعدم فهم:

– مثل ماذا؟

أجابه «وليد» وهو يتنهد لعجزه عن وصف ما يدور بخلده:

– لا أدري.. هل يمكن أن يكون من الشرطة؟

رد عليه «شادي» بتوتر:

– المعلم «سليمان» وفَّق أوضاعه مع بعض رجال الشرطة منذ زمن طويل ولا أحد يتعرض له.

ثم بعد فترة صمت عاد يقول له وهو يقدم له كيس الطعام الذي أحضره معه:

– ربما يكون مجرد رجل فضولي فهم اللعبة التي نقوم بها.. لو رأيته مرة أخرى أخبر «الديب».. هيا بنا نأكل الآن فأنا جوعان.

حاول «وليد» أن ينسى ذلك الرجل.. أن ينسى تلك النظرة التي أحس

أنها اخترقت روحه.. لكنه صار يراه في كل مكان يذهب إليه.. كل يوم تقريبًا.. ظنه أن الرجل من الشرطة غلب على تفكيره, لكنه عندما أخبر «سمير الديب» رد عليه بأن هناك تنسيقًا سابقًا بين المعلم «سليمان» وجهاز الشرطة, لذلك لا يمكن أن يكون من الشرطة.. ثم أي شرطة هذه التي تراقب الناس في سيارة «جيب».. لاحظ «وليد» ذات مرة ذلك الرجل يجلس في سيارته يراقبهما فقال لسمير بسرعة:

- يا معلم «سمير».

رد عليه «سمير» بتوتر لأنه لاحظ التوتر الواضح في كلماته:

- ماذا تريد يا «وليد»؟

أجابه «وليد» وهو يشير إلى السيارة من طرف خفي:

- الرجل صاحب السيارة الذي حكيت لك عنه يقف هناك.

كانت السيارة في تلك اللحظة تقف على مسافة قريبة منهما.. تحسس «سمير» مطواته التي في جيب بنطاله الخلفي وقال له وهو ذاهب في اتجاه السيارة:

- ابقَ مكانك، سوف أذهب لأرى ما حكايته.

لكن الرجل لاحظ اتجاه «سمير» نحوه فأغلق زجاج السيارة وهو يتحرك بها على الفور.. ظل «سمير» يراقب السيارة وهي تبتعد وقد بدأ القلق يساوره..

لو لم يكن يراقبهم لما لاحظ اقترابه منه.. عندما عاد «سمير» سأله «وليد» بخوف:

– هل يمكن أن يكون تبع الحكومة؟

هز «سمير» رأسه نافيًا وهو يجيبه:

– لا أظن.. ربما كان صحفيًا يريد عمل تحقيق.. لو أمسكت به فسوف...

بالطبع يمكن ببساطة أن نتخيل ماذا قال.. كان «سمير» سيئ المزاج هذا اليوم بسبب ما حدث مع صاحب السيارة، لذلك لم يتحدث مع «وليد» طوال الطريق.. كان القلق ظاهرًا عليه، وقد لاحظ «وليد» ذلك, وأرعبته فكرة أن هناك ما يمكن أن يُقلق «سمير».

كانت الشوارع تضيق كلما اقتربا من العزبة حتى وصلا إلى الشارع الضيق أو الزقاق المؤدي إلى العزبة, الذي كان مظلمًا كالعادة.. «سمير» يسير فيه مع «وليد» ببطء شارد الذهن يُفكر في الرجل.. لا يعرف «وليد» ما الذي جعله يلتفت خلفه ليجد السيارة تقف في نهاية الشارع.. كيف وصلت إلى تلك المنطقة دون أن يلحظها أحد؟! هل هي السيارة نفسها؟ ربما تشبهها لكنها ليست هي.. أمسك بيد «سمير» وقال له برعب:

– معلم «سمير».. هل ترى هذه السيارة هناك؟

نظر «سمير» إلى حيث أشار.. واتسعت عيناه في ذعر وهو يصرخ:

- إنها السيارة نفسها يجب أن...

لم يكمل «سمير».. كان لا يعرف ماذا يفعل.. لذلك استطرد:

- هيا بنا بسرعة نُخبر المعلم «سليمان».. الذي يجرؤ على الدخول بتلك السيارة حتى هذا الشارع رجل غير عادي.. لا أظنه مجرد صحفي.. لو كان كذلك فهو مجنون على الأرجح.

أمسك «سمير» بيد «وليد» وهمَّ بالجري في الشارع المظلم.. كان خوف «سمير» قد أصاب «وليد» بالرعب والذعر.. كان «سمير» يجرُّه خلفه بقوة, وفجأة أحس «وليد» أن «سمير» قد وقع على الأرض.. ظن في البداية أنه تعثر فانحنى على الأرض يساعده على النهوض.

رغم الظلام ميز «وليد» نافورة الدم المنفجرة من رقبته.. كان يريد أن يصرخ لكن صوته انحشر في حلقه.

كان الشارع مظلمًا لذلك لم يرَ من أو ما الذي فعل به ذلك.. لكنه كان يعرف أنه ظل متجمدًا واقفًا في مكانه لا يتحرك حتى تلقى تلك الضربة على رأسه.. الضربة التي بعدها أظلمت الدنيا تمامًا.

***

وقف «سليمان» أمام جثة «سمير» وقد غُطت بملاءة متسخة.. يبدو أنه كُتب عليه الاتساخ حيًّا وميتًا.. كان «سيد» و«شادي» يقفان بجانبه.. نظر «سليمان» إلى «سيد» وسأله في حيرة:

- هل تعتقد أن أحد رجال عزبة الحشيش هو من فعلها؟

هزَّ «سيد» كتفيه في حيرة وقال وهو يحك رأسه:

- لا أدري يا معلم «سليمان».. لكننا تصالحنا معهم منذ فترة طويلة.

عاد «سليمان» يقول له بغيظ:

- لكنك بالتأكيد تتذكر ما الذي فعله «سمير» بهم في آخر مشاجرة بين العزبتين.

فرد عليه «سيد» بنفس الطريقة مرة أخرى:

- لكننا تصالحنا وانتهى الأمر.. نحن لا نريد الشجار معهم مرة أخرى يكفي ما حدث في آخر مرة.

قال له «سليمان» مستهزئًا:

- يبدو أن حياة الترف قد أثرت فيك.

هز «سيد» رأسه نافيًا وهو يردد:

- ليس الأمر كذلك.. لكن يجب أن نتأكد قبل القيام بأي شيء.. أنت تعرف يا معلم النتائج التي تترتب على تلك المشاجرات.

نظر «سليمان» إلى «شادي» ثم قال له كأنه تذكّر شيئًا للتو:

- أين ذهب الولد الآخر.. ما اسمه؟

أجابه «شادي» وهو يوشك على البكاء:

- «وليد».. اسمه «وليد» يا معلم «سليمان».

فقال «سليمان» وهو يتلفت حوله في حيرة:

- نعم.. «وليد».. أين ذهب «وليد»؟ لو كان قُتل معه لكنا وجدنا جثته.

رد عليه «سيد» بشكٍ:

- ربما خاف عندما رأى مقتل «سمير» وهرب.

لم يرد عليه أحد لعدم اقتناعهم بكلامه.. لو كان لا يزال الأمر كما قال لجرى إلى العزبة ليخبرهم.. فاستطرد «سيد» يسأل المعلم «سليمان»:

- ماذا سنفعل بالجثة يا معلم؟

رد عليه «سليمان» وهو ينظر إلى الجسد المسجى على الأرض:

- بالطبع لن نبلغ الشرطة.. ادفنها في أي مكان خَرِب.. لن يبلغ أحد عن غيابه ولن يفتقده أحد.

ثم هزَّ رأسه في حسرة وهو يضيف:

- خسارتك يا «سمير» كان لا يزال أمامك الكثير.. «سمير» لم يكن له أهل.. رَبَّيْتُه على صنعتنا منذ صغره.. بالضبط مثل ذلك الصبي.. لذلك كنت مصرًا على جعل «شادي» يعمل معنا.

وأشار إلى «شادي» الذي كان يقف شارد الذهن يفكر في شيء واحد فقط.. في مكان صديقه الذي صار مجهولًا.

***

عندما عاد وعي «وليد» إليه حاول أن يجلس فلم يستطع، أحس أن يديه مربوطتان خلف ظهرة، وكذلك قدميه.. تم تقييده بطريقة تجعله نائمًا على جانبه ولا يستطيع النهوض.. حاول أن يتأوه فلم يستطع ففمه كان مكممًا.. أحس بالحكة في رأسه من أثر الدم المتجلط عليها من الضربة التي تَلَقَّاها وأفقدته الوعي.. أول سؤال جال بخاطره عن مكانه.. الأرض باردة.. لا يرى أي شيء بسبب العصابة على عينيه، لكنه لا يشعر بوجود أي ضوء.. جاهد حتى اعتدل جالسًا في وضع الافتراش.. أسند رأسه على الحائط فأحس بأن الجدران باردة، وغالبًا مغطاة بالقرميد.. جلس «وليد» في خوف.. لا يعرف ماذا يفعل أو أين هو.. إنه حتى مربوط بطريقة لا تسمح له بالحركة، فبالإضافة للحبل المربوطة به يداه توجد أصفاد يشعر بمعدنها البارد موصولة بسلسلة معدنية يشعر بثقلها ويسمع صوتها كلما حاول الحركة.. من ربطه بهذه الطريقة؟! من الذي يعامله كأنه وحش ضَارٍ؟!

لم يكنْ في وسعه سوى البكاء.. وبخاصة وهو يشعر بتلك القوارض المقرفه تسير عليه وتعضه في بعض الأحيان.. إن الفئران هنا كبيرة ومن ملمسها يبدو أن لها فراءً سميكًا.. إنها في مثل حجم الأرانب.. كان يحاول أن يتحرك قدر الإمكان ليبعد عنه تلك الفئران قدر المستطاع عندما سمع صرير الباب.. ابتعدت الفئران عنه فجأة وسمع خطوات تقترب وتتوقف أمامه تمامًا.. بعد قليل أحس بيد ثقيلة على كتفه وصوت رخيم يقول له بعربية غريبة كأن

صاحب الصوت مصاب بالشلل ويتكلم بصعوبة:

- كيف حالك يا «وليد»؟

بالطبع لم يرد الصبي بسبب قطعة القماش التي تُكَمِّمُ فمه، وحتى لو كان يستطيع الكلام فماذا يمكن أن يقول؟! استطرد صاحب الصوت بنفس الطريقة الهادئة:

- سوف أنزع الكمامة عنك حتى تأكل.. لا تصرخ لأنك لو صرخت فسأعيد الكمامة كما كانت ولن تأكل الليلة.. على كل حال لن يسمعك أحد هنا.. لكنني لا أحب الصراخ.

كان الرجل يتحدث بطريقة آلية وعادية كأنه يتفق معه على شراء ملابس جديدة له.. نزع الرجل قطعة القماش فارتد «وليد» إلى الخلف صارخًا في خوف وهو يسأل:

- أين أنا؟ من أنت؟

أحس بيد الرجل تمسك به بقوة لم يستطع معها التملص وسمعه يقول له ببرود وهو يعيد تكميم فمه:

- لقد اتفقنا.. لن تأكل حتى الغد.

أحس بالرجل يقوم بعد أن كممه وسمع خطواته تبتعد.. كان «وليد» يئن من خلف الكمامة.. يريد أن يتأسف للرجل.. يريد أن يقول له إنه تعلم

الدرس.. لكن الرجل كان قد رحل وسمع صرير الباب وصوت المزلاج يوصد من الخارج ليتركه وحيدًا من جديد لا يرى شيئًا.. لا يسمع سوى صوت القوارض من حوله والسلاسل المربوط فيها.. لا يشعر سوى ببرودة الجدران والفزع الذي يتملكه.

***

- ركز في شغلك يا «زفت».

كانت هذه صرخة «سليمان» الذي كان جالسًا في محل عمله يتسول تحت الكوبري, وبالطبع كانت الصرخة موجهة لـ«شادي» الذي صار شارد الذهن معظم الوقت.. يفكر في صديقه.. اعتذر «شادي» للمعلم وسأله بتردد:

- ألن نبحث عن «وليد»؟

أجابه «سليمان» ساخرًا:

- تحت أمرك يا «شادي» بيه.. نترك عملنا ونذهب للبحث عن الأستاذ «وليد».

رد عليه «شادي» متلعثمًا ليحفِّز المعلم:

- أنا أقصد يا معلم ماذا لو كانت عزبة الحشيش خطفته حتى تقول إنك لا تستطيع حماية من يعملون معك؟

كان «شادي» يريد فعل أي شيء ليجد صديقه، وكان يعرف أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي ستجعل «سليمان» يبحث عنه بجديه.. غضب «سليمان»

وصرخ فيه:

- كيف تجرؤ على قول هذا الكلام لي؟

هز «شادي» يديه في رعب وهو يردد:

- لست أنا من يقول ذلك الكلام.. الناس في العزبة تقول ذلك منذ أن قُتل «الديب» واختفى «وليد».

صمت «سليمان» قليلًا يفكر ثم قال لـ«شادي»:

- سوف أذهب في الغد إلى عزبة الحشيش بنفسي للبحث عنه، ولو كانوا هم الفاعلين فلن تكون مشاجرة بين عزبتين بل ستكون حربًا طاحنة.. في ستين مصيبة «وليد»، لكن لا أحد يقترب من كرامة المعلم «سليمان».

كان يتحدث كالملوك والأمراء، وأوشك على الوقوف عن كرسيه المتحرك لكنه تذكر الدور الذي يقوم بتمثيله للتسول، فاستطرد وهو يلكز «شادي» بعنف كأنه ينفث فيه غضبه:

- والآن عد إلى عملك حتى أقوم بجولة في المنطقة أتفقد حالة العمل.

ودفع نفسه على الكرسي مبتعدًا ليترك «شادي» مادًّا يده السليمة.. مظهرًا يده المبتورة.. يجلس في هم وشرود يفكر.. لو لم يكن في عزبة الحشيش فأين سيكون؟!

***

في الليلة التالية كان «وليد» قد أوشك على الهلاك من العطش قبل

الجوع.. عندما سمع صوت المزلاج - الذي أخافه الليلة الماضية - أحس بالأمل.. لن يصرخ هذه المرة.. لو أعطاه الطعام فسوف يأكل في صمت.. لقد قضى حاجته في ملابسه وهو جالس هكذا عدة مرات.. أفرغت معدته تمامًا وصارت رائحة هذا المكان شنيعة.. شعر بالرجل يجلس أمامه ويقول له بهدوء:

- كيف حالك اليوم يا «وليد»؟

اهتز «وليد» بقوة في سلاسله واقترب منه ليظهر له أنه ممتن لوجوده, فقال له محذّرًا كالليلة الماضية:

- لو صرخت هذه المرة فسأتركك يومين.

هز «وليد» رأسه بما يعني أنه قد تعلم الدرس جيدًا.. أخرج الرجل قطعة القماش من فمه فسعل بشدة وقال له بصوت واهن:

- أريد أن أشرب.. أرجوك.

شعر بالرجل يقف على قدميه وسمع صوته يقول بحزم:

- اصمت قليلاً.. سوف تشرب بعد قليل.

ساعده الرجل حتى يُعدل من جلسته, ثم سمع الرجل يتحرك في الغرفة بنشاط.. كان يريد أن يسأل الرجل عن الطعام.. لكنه عدل عن الفكرة وآثر الصمت.. وبخاصة بعد أن سمع ذلك الصوت.. صوت أدوات معدنية توضع على منضدة معدنية أيضًا.

أدوات معدنية؟! منضدة معدنية؟! هل سيقوم الرجـل بتقطيعـه؟ زادت تلك الفكرة من رعبه وأحس أن الدم يجف في عروقه وفقد كـل رغبـة في الأكـل.. لقد شاهد تلك الفكرة من قبل في أحد الأفلام.. هل سيقوم ببيع أعضائه؟

أحس فجأة بتيار من الهواء البارد وصوت خـوار أخافـه.. كلمـات غـير مفهومة تمتم بها الرجل.. صوت أشياء تهتـز فـوق المنـضدة المعدنيـة.. الخـوار يرتفع ويزداد.. نسي «وليد» إحساسه بالعطش وسط كل تلـك الأصوات الغريبـة والمخيفة من حوله.. فجأة هدأ كل شيء وعاد الـسكون.. أحـس بالكـأس البـاردة تقترب من شفتيه والصوت الرخيم للرجل يقول له برفق:

– اشرب.

رغم عطشه الشديد أحس بطعـم الـشراب الـلاذع، لكـن بـرودة الـشراب الشديدة عوضتـه.. أنهى «وليد» ما بالكأس، وما إن وصل الشراب إلى معدته حتى أحس بألم رهيب فيهـا.. بـدأ يتلـوى ويـصرخ في ألم.. لم يـسمع صوت الرجـل يحاول مساعدته أو تهدئته حتى أفرغ معدته وصار يجلس في بركة من فـضلاته وقيئه.

سمع الصوت الرخيم يقول:

– سوف تستريح الآن.. خذ هذا.

شعر بملعقة باردة على شفتيه وبعد أن أخذ ما فيها علم أنه دواء.. بعد قليل سأله الرجل:

- هل هدأت معدتك الآن؟

هز «وليد» رأسه ولم يتكلم فقال له الرجل:

- حسنًا فلتأكل الآن.

وبدأ الرجل في إطعامه.. كان «وليد» يأكل بسرعة ونهم حتى إذا اقترب من الشبع بدأ يبطئ في الأكل.. عندما أحس الرجل منه الشبع قال له:

- اشرب هذا الآن.

كان كوبًا من اللبن البارد.. «وليد» لا يحب اللبن.. كانت والدته تحتال عليه ويتدلل هو عليها كل يوم حتى يرضى أن يشربه.. لكنه يشعر بالعطش الشديد ولا يستطيع رفض أي شيء وهو في هذا الوضع.. ربما هذه طريقة جيدة لجعل الأطفال يشربون اللبن قبل النوم.. أن تجعل ذلك الرجل يسقيهم.

- لن أضع القماشة على فمك لكنك تعرف ما عليك فعله وإلا...

لم يكن الأمر يحتاج إلى توضيح وعلى كل حال لو كان هناك أحد بالجوار يمكنه سماع صراخه لسمع الخوار الذي كان هنا منذ قليل. سمع «وليد» خطوات الرجل تبتعد فنام على جانبه والأرض لا تزال مبتلة من أثر القيء.. كانت الفائدة الوحيدة التي استفادها «وليد» من عدم وجود الكمامة على فمه هي البكاء من دون عناء.. وبصوت مسموع.

***

- والله يا معلم «سليمان» وما لك علي قَسَم.. ليس لي علاقة بما حدث

لـ«سمير».. لقد سمعت الأمر مثلي مثل أي شخص آخر وحزنت عليه بشدة.. لقد كان شابًا لا يُعَوَّض.. ربنا يعوض عليك.

قالها المعلم «سوكه» المسؤول عن عزبة الحشيش لـ«سليمان» الذي ذهب إليه يسأله عما إذا كانت له علاقة بالحادث.. لم يكن أي منهما يريد الدخول في معارك جديدة بعد المعركة الأخيرة التي دارت بين العزبتين.. كان سبب تلك المعركة امرأة.

لا.. لم تكن القصة كقصة المرأة التي نادت على المعتصم «وا معتصماه».. لو كانت كذلك لكانت ستقول «وا سوكاه» تنادي على المعلم «سوكه».. لكن الأمر لم يكن كذلك.

عزبة «سليمان» متخصصة في التسول والسرقة، بينما عزبة «سوكه» متخصصة في المخدرات والدعارة.. يتم توريد المخدرات والنساء من عزبة «سوكه» إلى عزبة «سليمان» من باب التبادل التجاري، فعزبة «سليمان» من أكبر المستوردين من عزبة الحشيش.. ذات ليلة بعد أن قامت إحدى البغايا بعملها على أكمل وجه في عزبة «سليمان» لم تأخذ الأجر الذي اتفقت عليه مع «سيد»، الذي يعتبر الرجل الثاني في العزبة.. كَلَّمته بطريقة لم تعجبه، وكانت المخدرات قد لعبت برأسه:

- الفلوس ناقصة يا معلم «سيد».. ده أنا بعد اللي عملته المفروض آخد «أوفر تايم».

ضحك «سيد» في غلظة ورد عليها بسخرية:

- لماذا؟ هل تعتقدين نفسك جئت تعملين مديرًا تنفيذيًا لشركة «سليمان» للأعمال القبيحة؟

بالطبع لم يُعْطِها «سيد» الإضافي الذي تتحدث عنه, وأمام إصرارها وتأثير المخدرات عليه أعطاها بالمطواة في وجهها, فتشوَّهت وهي في الأساس لم تكن جميلة, وضاع مستقبلها بعد أن شوَّهَها «سيد».. بعد أن عاتبه بعض رجال عزبة الحشيش سب العزبة وكل من فيها.

هنا نفد صبر «سوكه» وأحس أنه قد صبر بما فيه الكفاية.. هو لا يحب العراك، لكنه لم يجد له بديلًا.. كانت المعركة من أجل مبدأ لا من أجل المال.. إنها معركة الدفاع عن العِرض والأرض.. يجب أن نعيد حق «سونيا» المضروبة بالمطواة في وجهها.

دام القتال قرابة الأسبوع حتى جاءهم تهديد من مدير الأمن إما التوقف وإما يتدخل لسحق العزبتين.. الأمن يتحرك بسرعة بالفعل فقد تركهم أسبوعًا واحدًا فقط! ربما كان سبب تحرك الأمن ذلك التحقيق الذي أجراه أحد الصحفيين في الجريدة القومية التي أحالته هو للتحقيق بعد ذلك بتهمة نشر أخبار كاذبة.

مر شريط الذكريات هذا أمام عيني «سليمان» الذي قال لـ«سوكه»:

- أنا أعرف أنك بالطبع لن تقوم بمثل هذا العمل الخسيس.. لكن هذا

معناه أن هناك غريبًا وسطنا.

هزَّ «سوكه» رأسه في جهل وهو يقول:

- لا أدري.. نصبر وكل شيء سيظهر بعد ذلك.

تكلما بعد ذلك في أعمالهما لبعض الوقت ثم استأذن «سليمان» والرجال الذين جاءوا معه، وكان منهم «سيد»، وعادوا إلى عزبتهم المجاورة.. سأل «سيد» معلمه:

- هل تعتقد أنه صادق يا معلم؟

أشاح «سليمان» بوجهه بعدم اكتراث وقال:

- لا يهم، المهم أنه أقسم أمام الجميع أنه لم يفعلها، وهذا يحافظ على هيبتنا أمام الجميع.

***

يعلم «وليد» أن اليوم قد مرَّ عندما يسمع صوت المزلاج وخطوات الرجل تقترب منه.. سوف يسأله عن حاله كالمعتاد بتلك الطريقة الآلية:

- كيف حالك يا «وليد»؟

اعتاد «وليد» صَوتَه الرخيم.. أصبح صَوتُه يزيد شعوره بالجوع والعطش لأنه يعلم أنه جاء بالماء والطعام.. لكن عليه أولًا أن يشرب ذلك السائل الغريب الذي يجعله يتقيأ.

الهواء البارد والخوار ثم السائل والتقيؤ.. مرت عليه عدة ليالٍ على هذا

الحال.. في هذه الليلة بعد أن انتهى الرجل من إطعامه قال له:

- سوف أفك وثاق قدميك حتى تستطيع الوقوف قليلاً.

أحس «وليد» بآلة حادة تقطع الحبل الغليظ الملفوف حول قدميه ثم تحرك الرجل مبتعدًا.. وصوت المزلاج من جديد.. لقد فك الرجل وثاق قدميه ورحل.

فرد «وليد» رجليه أمامه وجلس على مقعدته.. لم يجلس تلك الجلسة منذ أن وصل إلى هذا المكان.. أحس بالدم يعود إلى قدميه.. حاول الوقوف بعد قليل لكنه لم يستطع.. بعد كل تلك المدة من الجلوس بتلك الطريقة أصبح لا يقوى على النهوض.

داست قدمه العارية على أحد الفئران وهو يحاول الوقوف في المرة الثانية.. حاول أن يتحسس الجدار بيديه المقيدتين خلف ظهره.. مشي قليلًا بجانب الجدار حتى أوقفته السلسلة.. سار في الاتجاه الآخر حتى انتهت السلسلة.. لا يوجد أي شيء بالقرب منه.. الجدران الباردة التي يستند عليها طوال اليوم والأرض الباردة العارية التي ينام عليها منذ أيام هي كل ما يشعر به، بالإضافة إلى الفئران التي صار يألفها من طول المكوث معها.. حتى إنه لم يعد يتضايق من جلوسها على وجهه في أثناء نومه.

***

سمع «وليد» صوت المزلاج في الوقت نفسه من اليوم الذي يظنه الليل..

اقترب منه الرجل وأمره بالوقوف ثم قال بصرامة:

- لقد أوشك الأمر على الانتهاء.

لم يفهم «وليد» ما يرمي إليه كلام الرجل.. هل يعني أنه سيتركه أم يعني أنه سيقتله؟ شده الرجل فمشي معه «وليد» إلى أن أوقفه بعيدًا عن المكان الذي يجلس فيه عادة.. لذلك فك الرجل وثاق قدميه بالأمس حتى يستطيع تحريكهما بسهولة.. كانت السلسلة المربوطة إلى يديه مشدودة عن آخرها.. سمع صوت الرجل يقول في حزم وتهديد:

- لا تتحرك من مكانك.

ثم سمع صوت كحت للأرض من حوله.. كأن الرجل يرسم شيئًا ما على الأرض.. سمع بعد ذلك صوت أشياء تُرَصُّ من حوله ثم صوت قَدَّاحَة أحس بعدها بالحرارة وصوت الرجل يقول ببروده المعتاد:

- لو تحركت يا «وليد» سوف أقتلك.

كانت طريقة الرجل تخيفه.. شعر ببنطاله يبتل.. لقد اعتاد على التبول في بنطاله منذ أن جيء به إلى هنا.

كلمات الرجل غير المفهومة التي يظل يترنَّم بها كل ليلة والتي لا يستطيع «وليد» تمييزها.. الهواء البارد هذه المرة كان قويًا.. سمع على أثره «وليد» صوت نار تنطفئ.. وساد بعد ذلك السكون.

لحظات من الصمت قبل أن يعود صوت الرجل من جديد.. خطواته تقترب.. وفجأة شعر «وليد» بذلك السائل اللزج على رأسه ينساب بعدها على جسده كله.. كان سيتحرك من مكانه لكنه تذكر تهديد الرجل له.. كان يريد أن يبكي لكنه أيضًا خشي البكاء.. وقف يرتعش في صمت.. في خوف.. زاد خوفه عندما سمع ذلك الخوار الذي يشبه خوار الثور.. أنفاس كريهة تقترب من وجهه ولعاب لزج يشعر به على أنفه.. ووجد نفسه على الأرض.

لم تستطع رجلاه أن تحملاه أكثر من ذلك.. ارتمى على الأرض.. توقع أن يضربه الرجل أو يقتله ويريحه من هذا العذاب.. تذكر «وليد» أنه عندما جيء به إلى هذا المكان كان يريد فك العصابة عن عينيه ليرى المكان من حوله، لكنه الآن يخشى حدوث ذلك.

اقترب منه الرجل وقال له بهدوئه الكفيل ببث مزيد من الرعب إلى نفسه:

- غدًا.. الليلة الأخيرة.

وسمع خطواته تبتعد.. بعد أن ذهب الرجل وأغلق مزلاج الباب تذكر «وليد» شيئًا هامًّا.. تذكر أنه لم يأكل أو يشرب في هذه الليلة.. لكنه لم يفكر كثيرًا، بل ظل يفكر في كلمات الرجل عن الليلة الأخيرة التي لا يعرف هو ما الذي سيحدث بها.

***

في الليلة التي قال الرجل عنها إنها الأخيرة جلس «وليد» في ترقُّب ينتظر قدومه، وبالفعل جاء الرجل في موعده الذي يظن «وليد» أنه مَوْعِدٌ لَيْلِيٌّ.. أوقف «وليد» حيث كان في الليلة الماضية وحدثت الأشياء نفسها التي حدثت من قبل.. لكن هذه المرة كان الخوار أعلى بكثير.. أحس «وليد» كأن شيئًا ثقيلًا يصعد على كتفيه.. شيئًا لا يستطيع حمله.. نزل على ركبتيه أولًا ثم استلقى على الأرض بعد ذلك.. ازداد شعوره بالهواء البارد حتى ظن أنه تحول إلى رياح عاتية، وفجأة شعر كأنه يطير في هواء الغرفة ثم وقع على الأرض.. هدأ بعد ذلك كل شيء.. لم يعد يسمع الخوار أو يشعر بالرياح.. أحس بيد الرجل تهزه بعنف وهو يقول له بلهجة متسائلة:

- ليونيد؟

رد «وليد» بعدم فهم:

- ماذا؟

رد عليه الرجل بخيبة أمل:

- «وليد»؟! إذًا لقد فشل الأمر.

سأله «وليد»:

- أي أمر هذا الذي فشل؟

لم يسمع ردًا من الرجل.. ظل «وليد» جالسًا في مكانه حتى شعر بالأصفاد

التي في يديه تتحرر والحبل المربوط حول كفيه يُقطع.. سمع صوت الرجل يقول له بحزن:

- سوف أفك وثاقك حتى تأكل، ولو رفعت العصابة عن عينيك فسوف أقتلك.

رد عليه «وليد» بسرعة:

- لن أفعل.. أين الطعام؟ أنا أشعر بالجوع.

وضع الرجل صحيفة الطعام أمامه وقال له:

- مد يدك.. الطعام أمامك.

كان جوع «وليد» شديدًا، لذلك مد يده في الطعام الذي لم يكن يحتاج لفك عصابة عينيه حتى يأكله, فقد كان عبارة عن شطائر.. ارتطمت يده في أثناء الأكل بزجاجة ماء فكادت توقعها فأمسك بها وأخذ منها جرعة كبيرة من الماء دفعة واحدة.

أحس «وليد» أن الرجل يراقبه.. هل يسمع صوت بكاء مكتوم؟ سمع صوت الرجل يقول بصوت حاول أن يُظهره هادئًا:

- هل انتهيت؟

كان صوت الرجل يوحي بأنه يبكي ويحاول مداراة الأمر.. رد عليه «وليد» بتردد وهو يسرع الأكل:

- لقد أوشكت.

كان يأكل بسرعة لأنه يعرف أن هذا الرجل يمكن أن يذهب في أي وقت بالطعام.. قال له الرجل بصوت هادئ تبدو عليه الحسرة:

- كُلْ على مَهَلٍ.. لا تخف، لن أذهب هذه المرة قبل أن تشبع.

كان هناك الكثير من الأسئلة تدور بخلد «وليد»، لكنه كان يخشى سؤال الرجل عن أي شيء. بعد فترة صمت سأله الرجل وقد بدا عليه أنه قد توقف عن البكاء:

- ما حكايتك يا «وليد»؟

كان السؤال مفاجئًا.. هل هذا الرجل يقوم بعمل كل هذا من أجل أن يعرف حكايته؟! ربما يكون أخصائيًّا اجتماعيًّا.. لكن هذه طريقة غريبة لجمع معلومات عن أطفال الشوارع.. لا يبدو هذا منطقيًّا.. رد عليه «وليد» بتردد:

- ماذا تعني يا سيدي؟

فقال له الرجل بهدوء:

- أنا لست سيدك.. وأعني ما الذي جعلك تلجأ إلى الشارع؟

بدأ «وليد» في سرد حكايته منذ أن ترك والده البيت وتزوجت أمه رجلًا آخر كان السبب في تركه البيت، ثم مقابلة «شادي» ودخوله ذلك العالم الذي لم يكن يعرف عنه أي شيء قبل ذلك, ثم هروبه هو و«شادي»، ثم تضحية «شادي»

من أجله.. كان الرجل يستمع له بإنصات شديد.. يقاطعه أحيانًا ليسأله عن بعض التفاصيل فيجيبه «وليد» بإسهاب.. ثم أنهى كلامه بقوله:

– ثم كانت تلك الليلة التي حدث فيها ذلك الحدث.. هل مات «سمير»؟

سأله الرجل:

– وهل كان ذلك الشيء يستحق الحياة؟

لم يرد عليه «وليد» فاستطرد الرجل:

– هل ما زلت تحب والدك؟

أجابه «وليد» بتردد:

– لا أدري.

فعاد الرجل يسأله:

– هل تكرهني يا «وليد»؟

سكت «وليد» ولم يرد، فاستطرد الرجل:

– ربما لو عرفت سبب ما أفعل لعذرتني.. بالطبع أنت تحب «شادي» صديقك.

رد «وليد» على الفور:

– هل يمكن ألا أحبه بعد كل ما فعله معي؟!

رد عليه الرجل:

- بالطبع لا.. أنا لست بالسوء الذي تعتقده.. أنا رجل ضعيف تعلق بأمل واهن.. الليلة مات كل أمل عندي.

فسأله «وليد» بحذرٍ وترقب:

- وماذا تريد مني الآن؟

سكت الرجل ولم يرد عليه.. أراد «وليد» أن يكرر السؤال، لكنه خاف من غضب الرجل.. بعد قليل قال له الرجل وهو يضع كوبًا في يده:

- أريدك أن تشرب هذا.

أخذ «وليد» منه الكوب وشرب ما فيه بحذر.. كان عصيرًا شهيًّا.. شربه «وليد» وهو يسمع الرجل يقول له:

- لقد وعدتك أن تكون هذه هي الليلة الأخيرة على كل حال.

كان هذا آخر ما سمعه «وليد» قبل أن يسقط على الأرض.. فاقدًا الوعي.

# حياة جديدة

ترك المعلم «سليمان» «شادي» بمفرده في مكانه كالعادة, وذهب ليقوم بجولة في المنطقة على المتسولين.. كان «شادي» قد أصبح مخضرمًا في تلك المهنة حتى إن المعلم صار يتركه كثيرًا دون خوف.. لكنه هذه الأيام كان لا يزال حزينًا لفقد صاحبه؛ لذلك لم ينتبه للمخبر الذي اقترب منه بحذر.. لم يشعر به «شادي» إلا ويده الثقيلة على كتفه وهو يقول بغلظة:

- أين «سليمان»؟

انتفض «شادي» قبل أن يلتفت إليه ويجيبه بخوف:

- ذهب ليقضي مصلحة وسيعود على الفور.

فجذبه الرجل من يده وهو يردد بانتصار:

- حسنًا سوف تأتي معي ويأتي هو ليتسلمك من القسم.

كان المخبر يريد مساومة «سليمان» على مبلغ كبير من المال؛ فهو في حاجة للمال، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يعرفها للحصول عليه بسرعة، والحملات الأمنية قليلة هذه الأيام، و«سليمان» لا يدفع المال بسهولة.

حاول «شادي» أن يتملص منه لكن قبضته الحديدية كانت محكمة على ذراعه التي ليس بها كف.. بدأ «شادي» في الصراخ؛ فهو لا يعرف أن الأمر

برمته من أجل المال.. توقف بعض المارة، ومع تجمُّع البعض يتجمع المزيد.. قال أحدهم للمخبر بلومٍ:

– ماذا تريد من الصبي؟

رد عليه بغلظة:

- شرطة.. هذا الولد لص.

ابتلع المشاهدون ألسنتهم بعد أن قال لهم المخبر ذلك، إلا امرأة عجوزًا كانت خلف المخبر.. سمع صوتها فجأة تقول له:

– حرام عليك.. اترك الولد.

شتت صوت السيدة انتباهه للحظات عندما نظر إليها كانت كافية حتى يتحرر «شادي».

انطلق «شادي» مبتعدًا عبر الشارع.. لكنه عندما كان يعبر الطريق سمع الجميع صوت المكابح، وعندما نظروا إلى مصدر الصوت.. رأوا جسد «شادي» يطير في الهواء ويستقر على الأرض وبقعة من الدم تكبر من تحته.. لقد صدمته السيارة التي فوجئ قائدها به أمامه ونزل من السيارة مذعورًا يقسم أن الخطأ خطأ الصبي.

جرى الجميع على الجسد الذي استقر على الأرض بلا حراك، لكنهم تذكروا المخبر.. بحثوا عنه فوجدوه قد ابتعد واختفى في شارع جانبي بلا أي

أثر.

***

عندما استيقظ «وليد» كان ضوء الصبح يدخل من نافذة الغرفة التي كان ينام بها.. ضوء الصبح؟! هو إذًا لم يعد معصوب العينين.. هو إذًا لم يعد في ذلك المكان المظلم الذي ظل به كل تلك الأيام الماضية.. عندما فتح عينيه أحس كأن أحدهم يوخزه فيها بدبابيس.. كل عضلة في جسده.. كل عظمة في جسده.. تؤلمه.. ينام على فراش وثير.. عندما رفع الغطاء كان يرتدي ملابس نظيفة.. جسده نظيف.. علامات الأصفاد والحبل الغليظ لا تزال على يديه وقدميه.. كانت هناك مرآة كبيرة في جانب الغرفة.. نظر إلى نفسه ليجد وجهه نظيفًا وشعره الناعم عليه دهان لامع.. بالطبع ذهب إلى النافذة ليحاول معرفة أين هو.. أزاح الستائر الخفيفة ليجد الزجاج من خلفه قضبان حديدية سميكة - لكنه يستطيع الرؤية من خلال القضبان بالطبع - ليجد أمامه صحراء واسعة.. وتجمعًا سكنيًا يظهر على مرمى البصر من بعيد جدًا.. كان الرجل على حق.. مهما صرخ فلن يسمعه أحد.. ذهب إلى باب الغرفة ليفتحه، لكن الباب كان موصدًا بالمفتاح من الخارج.. عاد إلى الفراش وجلس عليه يتأمل الغرفة.. كانت جميلة ومرتَّبة بعناية.. بها جهاز حاسب آلي على مكتب صغير.. خزانة ملابس بجانب الفراش قام «وليد» وفتحها من باب الفضول ليجد فيها بعض الملابس المناسبة له كأنها جيء بها من أجله.. لكن كل هذا لم يسعده، بل زاد من فضوله وقلقه.. سمع صوت المفتاح يوضع في ثقب الباب.. شعر بدقات قلبه

تتزايد.. لم يَدْرِ ماذا يفعل.. دار حول نفسه يبحث عن مكان يصلح للاختباء لكنه لم يجد.. ظل واقفاً وعيناه معلقتان على الباب الذي فُتح ليظهر ذلك الرجل العملاق.. تسمَّر «وليد» أمامه ونظر إليه في خوف شديد.. كان طويل القامة.. قوي البنيان كأنه يلعب لعبة قتالية.. كانت ملامحه أجنبية.. شديد البياض.. شعره شديد النعومة.. عيناه في مثل لون عيني «وليد».. دخل الغرفة بهدوء وهو يبتسم وعندما تكلم عرف «وليد» أنه صاحب الصوت الذي كان يسمعه في القبو.. سأله بهدوئه المعتاد:

- كيف حالك اليوم يا «وليد»؟

رد عليه «وليد» بصوت مرتعش:

- بخير.. أين أنا؟

لم يرد الرجل، بل وضع صحيفة الطعام التي كانت معه على المكتب وهو يقول له بنفس الهدوء الذي أصبح «وليد» يألفه:

- هيا بنا لنفطر معًا.

نظر «وليد» إلى الباب المفتوح وفكر في الهرب، لكن الرجل قال له دون أن ينظر إليه:

- لا تفكر في هذا يا «وليد».. لا أحد يمكنه الدخول أو الخروج دون إذني.

لم يعرف «وليد» كيف عرف الرجل ما يدور في ذهنه، لكنه تأكد من أن محاولته الهرب فشلت قبل أن تبدأ، وأنه لو حاول ذلك فربما يزيد الأمور تعقيدًا.. جلس «وليد» على الكرسي بجانب الرجل فأخذ الرجل قطعة خبز من نوع «التوست» ووضع عليها بعض المربى ثم أعطاها له حيث بدأ في أكلها.. كان الطعام شهيًّا.. علبة المربى مكتوب عليها باللغة الإنجليزية.. بالنسبة لـ«وليد» كل اللغات غير العربية متشابهة بالطبع، لو استثنينا اللغة الصينية وأخواتها.

الجبن طعمه مختلف.. هذا الخبز الطري الرقيق لم يأكل مثله من قبل..

سأله الرجل وهما يأكلان:

– هل أنت فَرِحٌ بوجودك هنا؟

فكر «وليد» وقال لنفسه.. بالتأكيد هذا الرجل مجنون.. لكنه رد عليه بسؤال آخر:

– أين كنت في الأيام الماضية؟

نظر إليه الرجل بحزم وقال له بصرامة:

– لقد بدأت حياتنا الآن.. ومن اليوم أنت «ليونيد».

نظر إليه «وليد» بعدم فهم وسأله:

– ماذا تعني «ليونيد» هذه؟

أجابه الرجل بصرامة من جديد:

- «ليونيد» هو اسمك منذ الآن.

كانت لهجة الرجل الصارمة توحي بأنه غير قابل للنقاش.. لكن «وليد» سأله مرة أخرى بتوسل:

- ألا يوجد اسم آخر أسهل من ذلك؟

ضرب الرجل المكتب بقبضته فأحس «وليد» أنه سوف يتحطم تحتها وهو يصرخ فيه بغضب:

- أنت «ليونيد» وأنا والدك منذ الآن.

فهزَّ «وليد» رأسه بذعر وهو يقول له:

- حسنًا.. حسنًا.. «ليونيد».. «ليونيد».. تحت أمرك يا...

زمجر الرجل وقال له بلهجة مهددة:

- يا ماذا؟

فاستطرد «وليد» بتردد:

- يا أبي.

ابتسم الرجل في رضا وقال له بهدوء من جديد:

- أنا أعرف أن كل شيء صعب في بدايته.. لكنك حين تعيش هنا سوف تعرف الفارق بين الحياة هنا وحياة الشارع التي كنت تحياها.. لقد تركك والدك للشارع.. تنازل عنك بمنتهى البساطة.. لن تحتاج إلى شيء آخر بعد الآن.

كان «وليد» قلقًا من تصرفات الرجل.. فجأة ضحك الرجل وهو يسأله:

– هل تعرف كيف تُشغِّل الحاسب الآلي؟

أجابه «وليد» بريبة:

– أشغل بعض الأشياء البسيطة.

فقال الرجل وهو يشغِّل الجهاز:

– سوف أعلمك اليوم الكثير من الألعاب المتعة.

نظر إليه «وليد» والرجل يشرح له الكثير من الألعاب الموجودة على الجهاز.. كان يتكلم بحماسة وسعادة.. كان «وليد» يقول لنفسه طوال الوقت:

– والله العظيم هذا الرجل مجنون.. لكنه يبدو طيبًا على كل حال.

ولم يكن متأكدًا هل هو على خطأ أم على صواب؟

***

أفاق «شادي» لكنه لم يستطع أن يفتح عينيه.. سمع صوت المعلم «سليمان» يتحدث مع «سيد».. كان يقول له في فرح:

– الحمد لله جاءت من عند ربنا.. لقد حوله هذا الحادث إلى عاجز رسميًا.

لكن «سيد» رد عليه:

– لكن الطبيب قال إنه يمكنه أن يقوم بعمل عملية له يعيد بها رجله إلى وضعها الأصلي.

فقال «سليمان» معترضًا:

- نحن ندفع له حتى يصنع العاهة وعندما تأتينا بالمجـان لا نقبلـها؟! هذا افتراء على النعمة.

صرخ «شادي» فاتحاً عينيه:

- لا يا معلم.. حرام عليك.

ألجمـت المفاجـأة لـسان «سـليمان» الـذي لم يكـن قـد لاحـظ أن «شـادي» يسمعه, لكنه بعد لحظة قال متلعثمًا:

- يا «شادي» يا حبيبي أنا أريد مصلحتك.. أنا في هذه المهنة من قبـل أن تولد.. لو اسـترحت يـومين وجبَّـسناك ثـم نزلـت العمـل علـى كرسـي متحـرك بمظهرك هذا فسوف تحصل على أضعاف ما تحصل عليه الآن.

نزلت دموع «شادي» وخرج صوته متحشرجًا متوسلًا وهو يقول:

- يا معلم أنا لا أريد الأضعاف، يكفيني ما آخذ.

عاد المعلم يقول له مطمئنًا:

- لا تخف لقد انتهى أصعب ما في الأمر.. سوف تعيش علـى المـسكنات حتى يلتئم العظم ويعود كما كان.. عزبة الحشيش ليس بها أكثر من المُسكِّنات.. ومُسكِّنات أصلية ليست مثل مُسكِّنات المستشفيات.

لم يرد عليه «شادي» بل استمر في البكـاء في صمت.. بعـد قليـل دخـل

الطبيب الذي قام بعمل عملية الزائدة لـ«وليد».. كانت هناك شطيرة في يده كعادته.. قال لـ«سليمان» وفتات الطعام يتطاير من فمه:

- ماذا ستفعل يا معلم؟ نقطع الرجل أم نجبِّسها على هذا الحال أم سنقوم بعمل العملية.

نظر «سليمان» إلى «شادي» وقال له وهو يهز رأسه بلهجة ذات مغزى:

- ما رأيك يا «شادي» جِبْس أم بَتْر؟

لم تكن العملية التي ستعيد رجله كما كانت من الاحتمالات المتاحة بالنسبة للمعلم.. لذلك قال «شادي» على الفور:

- جبس يا معلم.. جبس ربنا يكرمك.

فابتسم «سليمان» وقال في رضا:

- حتى تعلم أنني طيب القلب.. جَبِّس يا دكتور وربنا يكرم.

فوضع الطبيب باقي الشطيرة - الذي كان نصفها - في فمه دفعة واحدة، ومسح يده في البالطو الذي يرتديه، وقال بصوت غير مفهوم بسبب الطعام:

- لكنك سوف تعرج عليها.. هذا لو التأمت أصلًا.. ربما لن ينجح الأمر وتحدث غرغرينة ونقطع الرجل.. أنت وحظك.

ثم ضحك فجأة بصوت عالٍ وارتج كرشه وهو يقول:

- على العموم سوف يكون شكلك تحفة.. كف اليد اليسرى والرجل

اليمنى.. كأنها مقصودة.. أليس هذا حد الحرابة؟ يمكننا أن نقول إن المتشددين هم من فعلوا به ذلك لأنه عبر الطريق والإشارة حمراء فاعتبروه يقطع الطريق.

وظل يضحك لدقائق على دعابته السخيفة، بينما كان «شادي» يبكي على رجله.. رجله التي على وشك الضياع.

***

ظل «وليد» في هذه الغرفة المطلة على الفراغ من نافذتها ذات القضبان عدة أيام.. يأتيه الرجل بالطعام ويجلس معه يتحدثان في أي شيء ويلعبان ألعاب الحاسب الآلي.. كان هناك حمام بالغرفة، لذلك لم يكن في حاجة للخروج منها.. على العموم لم يُعْطِه الرجل فرصة للخروج.. كان الرجل عندما يخرج من الغرفة يغلق الباب بالمفتاح من الخارج.. مع الوقت لم يعد «وليد» يناديه بغير أبي والرجل يناديه «ليونيد» ذلك الاسم الغريب الذي لم يسمع «وليد» عنه من قبل.

كان «وليد» يسأله كثيرًا عن الأيام التي قضاها مكبلًا فلا يرد عليه حتى قال له ذات مرة بحزم وغضب:

– سوف تعرف كل شيء في الوقت المناسب.. لا تسألني عن أي شيء مرة أخرى.

كانت لهجته قاطعة لا تحتمل الجدال؛ لذلك لم يسأله «وليد» مرة أخرى كما أمره.

مع الوقت أحب «وليد» العيش معه.. بالتأكيد العيش هنا في هذه الغرفة أفضل من الحياة في الشارع أو العشة التي كان بها.. لكنه محبوس في هذه الغرفة منذ أيام.. كان يريد أن يطلب من الرجل أن يسمح له بالخروج من الغرفة، لكنه خاف أن يغضب.. تردد كثيرًا قبل أن يعقد عزمه على طلب ما يريد من الرجل.

ذلك اليوم الذي لم يَنَمْ «وليد» ليلته؛ لأنه كان يفكر في الطريقة التي سيطلب بها ما يريد من الرجل.. دخل الرجل كعادته في الصباح ومعه الإفطار.. جلس «وليد» بجانبه يأكل معه شارد الذهن.. لاحظ الرجل سكوت «وليد» بعد أن كان بدأ يتحدث معه بتلقائية فسأله بحنان:

– ما لك اليوم يا «ليونيد»؟

تردد «وليد» قبل أن يجيب:

– كنت أريد أن أطلب منك شيئًا ما.

توجَّسَ الرجل من كلامه فرد عليه بشكٍّ:

– تفضل يا حبيبي.

قال «وليد» بسرعة كأنه لو تأخر فلن يجسر على الحديث مرة أخرى:

– أريد الخروج من الغرفة.

نظر إليه الرجل نظرة فاحصة ولم يرد فاستطرد «وليد»:

– والله لن أحاول الهرب.. ما الذي سيدفعني إلى ذلك وأنا أعيش هنا

أفضل حياة.

ارتعشت شفتا الرجل وقال له:

- هل هذا فقط سبب وجودك هنا؟ ألا تحبني؟

أحس «وليد» بالخطر.. سوف يغضب هذا الرجل في أي وقت.. استطرد بسرعة:

- وكيف لا أحبك وأنت سبب هذه الحياة الكريمة؟! وهل يوجد أحد لا يحب والده، خصوصًا لو كان بكرمك؟

ابتسم الرجل في رضا وأضاف:

- بالطبع لا يوجد من يهرب من والد طيب مثلي وإلا يستحق...

لم يكمل الرجل جملته.. لكن «وليد» كان يعرف جيدًا ماذا سيستحق لو حاول.

***

خرج «وليد» من الغرفة خلف الرجل ليجد أن غرفته في نهاية رواق صغير فيه مصباح غير مضاء؛ لأن الوقت كان صباحًا.. الضوء الخافت في الرواق مصدره غرفة «وليد» المفتوحة.. مشي «وليد» خلف الرجل الذي قال له كأنه مرشد سياحي:

- نحن في الطابق الأول فوق الأرضي.. المنزل مكون من طابقين.. هذا الطابق به ثلاث غرف كبيرة.. أكبرها غرفتي.. ادخل لتراها.

دخل «وليد» غرفة الرجل ليجدها في حجم أجنحة الفنادق.. إنها ضعف حجم غرفته تقريبًا.. غرفة مرتبة ونظيفة.. نفس تصميم الغرفة التي ينام بها، لكن مساحتها الواسعة جعلت الرجل يضع في أحد أركانها كرسيين مريحين وشاشة تلفاز كبيرة معلقة على الجدار، بالإضافة إلى ثلاجة صغيرة.. سأله الرجل في فخر:

- ما رأيك بالغرفة؟

كان «وليد» ينظر إليها فاغرًا فاهه في دهشة وهو يجيبه:

- جميلة وواسعة جدًا.

فرح الرجل وجذبه من يده وهو يقول في سعادة:

- كل غرفة هنا بها حمامها الخاص.. غرفتك وغرفتي وهذه الغرفة الكبيرة أيضًا، لكنها فارغة ومغلقة.. يوجد كذلك مطبخ صغير هنا يمكنك أن تأكل فيه ما تحب إذا ما جعت ليلًا.. هيا بنا الآن ننزل إلى الطابق السفلي.

اتجها إلى الدرج في طرف الرواق.. على جدار الدرج كان هناك الكثير من اللوحات الفنية التي لم يفهم «وليد» مغزاها.. كائنات أسطورية تشبه القِرَدَة أو الشياطين المُجَنَّحَة.. لم يسترح إليها على كل حال.

نزلا إلى الطابق الأرضي ليجد «وليد» صالة استقبال واسعة بها مائدة طعام كبيرة وكراسي وثيرة.. تحف فنية وأريكة.. كل شيء منظم ونظيف.. لاحظ «وليد» أن كل النوافذ عليها قضبان حديدية.. باب البيت هو المخرج

الوحيد.. بالطبع خلف الباب الخشبي كان هناك باب حديدي، وبذلك كان البيت عبارة عن شيء أشبه بالحصن.. كأنه قفص حديدي وهما بداخله.. لكن السجَّان هنا يعيش معه ويمتلك المفتاح.. كان بالأسفل مطبخ كبير وكذلك حمام وغرفتان أصغر من الغرف الموجودة بالأعلى.. عندما نظر «وليد» أسفل السلم وجد بابًا خشبيًّا مغلقًا بمزلاج وقفل.. هل هذا هو الباب المؤدي إلى القبو؟ هل كان محبوسًا في القبو كل تلك المدة؟ عندما سأل الرجل عن ذلك الباب نظر إليه في غضب وقال له بغلظة:

– «ليونيد» لا تجعلني أندم أني أخرجتك من الغرفة.

ابتلع «وليد» لسانه وتأسف له فهدأ الرجل وقال له بهدوء من جديد:

– «ليونيد» يا حبيبي هناك أشياء سوف تعرفها في وقتها.. إلى الآن كل البيت أصبح ملعبًا لك.. لكن لا تقترب من باب القبو.

فهز «وليد» رأسه موافقًا فاستطرد الرجل مبتسمًا:

– سوف أنظف لك غرفة بالطابق الأرضي وأجعلها غرفة ألعاب لك.. سوف أشتري لك جهاز تلفاز ومحطة ألعاب، وأنا بنفسي سوف أعلمك بعض الألعاب القتالية، وبالنسبة للعلوم الذهنية واللغات فسوف أعلمك طريقة تتعلم بها ما تريد في ساعات.

ترى ما تلك الطريقة التي سيتعلم بها ما يريد في ساعات؟!

# صديق

بات «وليد» يقضي معظم اليوم في الغرفة التي أعدها الرجل من أجل لعبه فيها.. كانت الغرفة حلم كل صبي في مثل عمره.. هو الآن لا يذهب إلى المدرسة، ومن الواضح أنه لن يذهب.. يقوم ذلك الرجل بتدريبه على القتال يوميًّا في هذه الغرفة ثم يجعله يستحم في غرفته بالطابق العلوي ويغيِّر ملابسه ليتركه بعدها يلعب ألعاب الفيديو التي أصبح يعشقها.

بعد أن انتهى الرجل من تدريبه في ذلك اليوم قال له وهو يتحضر للخروج:

- سوف أخرج لأشتري بعض احتياجاتنا من الطعام.. أحسِن التصرف حتى أعود.. سوف أغلق عليك الباب من الخارج حتى لا يدخل الكلب.

كان الرجل قد اشترى كلب حراسة منذ أن بدأ «وليد» ينزل إلى الطابق الأول.. بالطبع كان الرجل يفعل كل هذا حتى لا يستطيع «وليد» الهروب من المنزل.. ولم يكن «وليد» يريد ذلك بعد أن أعجبه العيش في هذا المنزل.

خرج الرجل وأغلق الباب خلفه ليترك «وليد» يستريح قليلًا بعد التمرينات العنيفة التي كان يقوم بها.. لقد بدأ شكل جسده يتغير.. التمرينات التي يقوم بها بدأت في تحويل جسده إلى الشكل الرياضي المعتاد للاعبي

الرياضات القتالية. صعد «وليد» إلى غرفته فاستحم وغير ملابسه ثم وضع الملابس المتسخة في مكانها المخصص حتى يأخذها الرجل ويغسلها.. لقد بدأ يشعر أنه يحب ذلك الرجل.. لكنه ما زال لا يعرف لماذا أتى بَه إلى هنا أو ما الذي كان يفعله معه في تلك الأيام التي قضاها في القبو.. لقد حرَّم الرجل عليه التحدث في ذلك الأمر, وهو الآن ربما لا يريد أن يعرف أو يخشى أن يعرف.

نزل مسرعًا بعد أن انتهى من الاستحمام؛ لأنه كان يلعب واحدة من تلك الألعاب التي تتكون من عدة مراحل متتالية, وهو مشتاق لإكمالها.. إنه متوقف عند مرحلة صعبة سوف يحاول اجتيازها اليوم.

كان منهمكاً في اللعب عندما سمع ذلك الصوت عند نافذة الغرفة.. جميع نوافذ المنزل في الطابق الأرضي يوجد أمامها أشجار ونباتات تمنع الرؤية من الداخل والخارج.. كان «وليد» قد اعتاد على تلك الأصوات بسبب تلك الأشجار التي ترتطم أغصانها بالنافذة.. لكن الصوت هذه المرة تكرر بصورة غير طبيعية, وكان كأنه همسًا.. هذه أول مرة يتركه الرجل بمفرده.. إنه يشعر بالخوف لأول مرة منذ أن بدأ يألف ذلك الرجل.. نظر إلى النافذة وهو جالس في مكانه بعد أن أوقف اللعبة، لكنه لم يرَ أي شيء.. عاد للعب بقلب قَلِقٍ وذهن مُشَوَّش.. إنه يسمع ذلك الصوت مرة أخرى، لكنه بات الآن واضحًا.. هناك من يطرق على النافذة برفق.. لكنه سوف يَدَّعي أنه لا يسمع شيئًا.

بعد قليل تحول الصوت إلى ما يشبه النداء، لكن من سينادي عليه في

هذا البيت وهو جالس فيه بمفرده؟! أوقف اللعبة هذه المرة واقترب من النافذة ببطء وخوف.. سمع فجأة من يسأله بصوت مرتعد يظهر فيه الخوف والقلق:

- السيد ليس هنا.. أليس كذلك؟

ارتد «وليد» إلى الخلف وكاد يقع على الأرض وهو يصرخ:

- من أنت؟

رد عليه الصوت المرتعش الذي كان يبدو أنه لرجل كبير:

- أنا لا أرى السيارة في مكانها.. إنه ليس هنا.. أليس كذلك؟

تملكه الخوف من كلام الرجل.. ربما لو عرف هذا الرجل أنه بمفرده فسينقض عليه ويقتله ليسرق المنزل.. لكن كيف سيدخل؟ هذا المنزل أشبه بحصن لا يمكن دخوله أو سجن لا يمكن الخروج منه.. سمع «وليد» صوت يد الرجل تزيح الأغصان عن النافذة ليظهر أمامه وجه الرجل الذي زادت رؤيته له من خوفه.. كان ذلك الرجل يمتلك وجهًا ليس مجعدًا بل به أخاديد.. كان أشبه بالمجذومين.. له عينان بارزتان جاحظتان إلى أقصى حد.. كأنهما ستخرجان من وجهه بعد قليل.. كذلك كان لون بشرته شديد السواد، وله شعر أبيض خفيف على جانبي رأسه، والذي يظهر من ملابسه يشير إلى أنها متسخة وقديمة.. شعر «وليد» بمزيج من الخوف والاشمئزاز.. هذا الرجل لن يقتله، بل سيأكله حيًّا على أقل تقدير.

ترك «وليد» الغرفة وأغلق بابها خلفه والرجل يصرخ بأعلى صوته:

- اهرب قبل أن يفوت الأوان.

جرى «وليد» إلى غرفته وجلس خلف بابها في خوف ينتظر عودة الرجل الذي كان يخشاه في ما مضى.. لكن ما أحب رؤيته الآن إلى قلبه, ومع طول المدة وعدم سماعه أي صوت بالخارج بدأ النعاس يتسلل إليه على الرغم من القلق الشديد الذي كان يتملكه.

***

استيقظ «وليد» على صوت باب البيت يفتح، وصوت الرجل الذي صار يناديه بأبي ينادي عليه.. نام «وليد» على الأرض خلف باب الغرفة بعد أن سيطر عليه الخوف من الرجل الذي رآه خارج النافذة.

جرى «وليد» إلى الأسفل وقفز إلى ذراعي الرجل وهو يردد بفزع:

- هناك رجل غريب بالحديقة.. رجل غريب الشكل.. أسود الوجه.. أول مرة أراه.

تغيرت ملامح الرجل فجأة وبدا الغضب واضحًا فيها وفتح باب المنزل وهو ينادي بصوت عالٍ:

- «ربيع».. يا «ربيع».. أين أنت؟

جاء الرجل الذي تكلم مع «وليد» من خلف قضبان النافذة مهرولًا وهو يقول بخوف:

- نعم يا سيدي.

سأله الرجل بحزم:

- لماذا أخفت ابني؟ ألم أقل لك إنني لا أريده أن يراك؟

رد «ربيع» بصوت مرتعش:

- بلى يا سيدي.. لكنني كنت قد مررت من أمام النافذة بالمصادفة.. كنت أنظف الحديقة.

عاد الرجل يسأله في شكٍّ:

- ماذا قلت له؟

كان «ربيع» يعلم أنه سيسأله هذا السؤال ويخشاه.. رد بلهجة يملؤها الكذب:

- لقد سلمت عليه فقط، لكنه جرى وتركني.. كنت أخشى أن يراني وأنا أقلم الأشجار التي أمام النافذة فيصيبه الفزع لأنه لا يعرفني.

ثم نظر «ربيع» إلى «وليد» الذي كان يقف خلف الرجل, وقال له بلهجة مستعطفة:

- أليس كذلك يا سيدي؟

أشفق «وليد» على «ربيع» الذي كان باديًا عليه الرعب فرد كاذبًا هو الآخر:

- بلى.. لقد جريت بمجرد أن رأيته.

زفر «ربيع» في ارتياح وقال له الرجل بغضب وعدم رضا:

- ما دام قد رآك فخذ هذه الحقائب إلى المطبخ ثم اخرج ونظف السيارة.

أومأ «ربيع» برأسه في فرح وجرى ومعه الحقائب إلى الداخل، ثم خرج لينظف السيارة.. لاحظ «وليد» نظرة الامتنان والإشفاق التي نظرها إليه «ربيع» قبل خروجه.

بعدما خرج «ربيع» جلس «وليد» بجوار الرجل الذي كان متضايقاً لما حدث فقال له برفق:

- أريد أن أطلب منك طلبًا يا أبي.

نظر إليه الرجل وقال بهدوء وقد أفرحته طريقة كلام «وليد» معه:

- ماذا تريد يا حبيبي؟

أجابه «وليد» وهو ينظر إلى الأرض:

- لقد كلمتك عن «شادي».

فرد عليه الرجل متسائلاً وقد توقع مطلب «وليد»:

- نعم كلمتني عنه وقلت لك إننا يجب أن نبدأ من جديد.. يجب ألا نتحدث عن الماضي.

فهز «وليد» رأسه في اقتناع وهو يقول:

- نعم قلت لي ذلك.. لكن «شادي» ضحَّى من أجلي بجزء من جسده..

إنه أفضل صديق لي.

فقال له الرجل بلهجة معاتبة:

- هو أفضل صديق لك.. من أنا إذًا؟

أجابه «وليد» بصدق:

- أنت أصبحت بالفعل بمثابة أبي.. لقد أنقذتني من مصير أسود كان ينتظرني ولا أريده لـ«شادي».

نزل كلام «وليد» على قلب الرجل بردًا وسلامًا فهز رأسه في رضا وسأله:

- ماذا تريدني أن أفعل له؟

فأجابه «وليد» على الفور:

- أريدك أن تحضره للعيش معنا.

نظر الرجل طويلًا إليه في صمت قبل أن يقول بصوت منخفض كأنه يتحدث إلى نفسه:

- لكن هذه مخاطرة كبيرة.

فقال له «وليد» مشجِّعًا:

- أنا أعرف الأماكن التي يتسول فيها، سنذهب لنأخذه ونمشي على الفور، لن يرانا أحد.. لا تخف، لن يتعرفوا عليك.

ضحك الرجل باستهزاء وقال:

- أخاف! هذه الكلمة لا أعرفها.. أنا أقصد إنها مخاطرة على علاقتنا.. نحن نعيش الآن في سعادة ما الداعي لإحضار صديقك معنا؟ دعه يُصرِّف أموره.

نظر إليه «وليد» بانكسار ليستجديه وهو يقول:

- أرجوك يا أبي هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنني رد جميله بها.

كان الرجل فَرِحًا لأنه أحس أن «وليد» ابنه بالفعل ويلح عليه في أمر ما، فقال له في النهاية:

- حسنًا.. سوف أحضره للعيش معنا.

قفز «وليد» في فرح وسأله:

- متى سنذهب لنحضره؟

رد عليه الرجل محذِّرًا:

- لقد قلت أُحْضره لا نُحْضره.. سوف أذهب بمفردي.. هذا الأمر خطر عليك.

فرد «وليد» عليه معترضًا:

- لكنك لا تعرف أماكن وجوده وربما لن يقبل أن يأتي معك.

فابتسم الرجل في ثقة وهو يقول:

- وهل جئت أنت بإرادتك؟ أنا أعرف أنك الآن فَرِحٌ بالعيش معي..

لكنك لم تأتِ بإرادتك من البدايـة.. وبالنـسبة لأمـاكن وجـوده فأنـا يمكـنني أن أعرف أكثر مما تعرف أنت.

تذكر «وليد» ما حدث لـ«سمير» فعاد الخوف يدق باب قلبه.. هو الآن لا يريد أن يفكر بأن هذا الرجل فعل ما فعل بـ«سمير» أمام عينيه.. وماذا كان يفعل به في الأيام التي مربوطًا فيها؟ آثر «وليد» الصمت، وكما قال له الرجل.. الأفضل النظر إلى الأمام.. كل ما يريده رد الجميل لصاحبه.. فهل يستطيع؟!

***

عندما كان «شادي» يتألم كان المعلم «سليمان» يعطيه قرصًا يجعله يتحمل ألم الكسور التي تملأ جسده ليواصل عمله.

في البداية كان القُرص يُسَكِّنُ ألمه طوال اليوم، ثم بـدأ يحتـاج لأكثـر من واحد في اليوم.. ثم بعد ذلك لم يعد يستطيع الاستغناء عن الأقـراص المخـدِّرة.. باختصار صار مدمنًا.

كان المعلم «سليمان» سعيدًا لأن «شادي» وصل إلى هذه الدرجة حتى بـات يعمل طوال اليوم من أجل القرص، الذي يشعر كأن قطارًا يسير ببطء فوق جسده لو تأخر في تناوله.

زاد هزال جـسده وصـار بالكـاد يمـشي علـى رجلـه العرجـاء بعـد فك الجبس.. كان «شادي» لا يشعر بالسوء على حاله.. لم يعد يشعر بأي شيء على الإطلاق غير الألم ولم يعد يريد سوى قرص المخدر.

كان جالسًا لوقت متأخر في الشارع في تلك الليلة.. أعطاه المعلم «سليمان» قُرصًا مكافأة على عمله الجاد فابتلعه على الفور وهو في الشارع فقال له «سليمان» بلوم:

- كيف ستعود الآن إلى العزبة؟! كان عليك أن تبتلعه بعد عودتنا.

لم يرد عليه «شادي» الذي كان في عالم آخر فاستطرد:

- حسنًا سوف أعود أنا لأنني تعبت من العمل طوال النهار وأنت حين تستطيع العودة ارجع على مهل.

لم يسمعه «شادي» من الأساس و«سليمان» كان يعرف ذلك، فتركه ورحل مطمئنًا لأنه يعرف أنه سيعود من أجل القرص، ولأن «شادي» ليس مطمعًا لأحد وهو على هذا الحال.

استلقى «شادي» على الأرض.. المخدر يسري ببطء في دمه يُشعره بنشوة وسعادة وقتية لم يعد يشعر بها في عالم الواقع.. لم يشعر بالسيارة السوداء التي وقفت أمامه تمامًا.. لم يشعر بالرجل الضخم الذي نزل منها وحمله إليها.. لم يشعر أنه يبتعد عن ذلك العالم.. عالم المعلم «سليمان».. المعلم «سليمان» الذي سيندب حظه بعد اختفاء «شادي» وهو لا يعرف أنه كان محظوظًا أنه لم يقابل ذلك الرجل في تلك الليلة.

***

فتح «شادي» عينيه بصعوبة.. جسده كالبيت الآيل للسقوط.. لم يكن

بالشارع كما توقع.. إنه ليس بالعشة.. فجأة عاد إليه وعيه دفعة واحدة.. إنه في غرفة بيت! تملكته الدهشة من وجوده في تلك الغرفة.. وتبادر إلى ذهنه أنه ربما يكون مخطوفاً.. لكن من الذي سيختطفه؟ ولماذا؟ هو ليس له من يسأل عنه أو يدفع الفدية للخاطفين.. خَطْفُه سيكون خسارة لخاطفه.

ازدادت دهشته ولم يصدق عينيه عندما رأى «وليد».. تجمد في مكانه للحظات ثم حاول النهوض وهو يقول بفرح:

- «وليد».. أين كنت؟

ابتسم «وليد» وجرى عليه ليحتضنه وهو يرد عليه:

- أنا لا أعرف.. أنا حتى لا أعرف أين نحن.

فسأله بدهشة:

- كيف لا تعرف أين نحن؟!

بدأ «وليد» في سرد ما حدث له مع ذلك الرجل صاحب المنزل و«شادي» يستمع بدهشة وشك وخوف.. قال له بعد أن انتهى من السرد:

- يا لها من حكاية غريبة! ذلك الرجل إذًا هو من أحضرني إلى هنا؟

فأومأ «وليد» برأسه كناية عن الإيجاب، فَهَمَّ «شادي» بقول شيء آخر لكن باب الغرفة فُتح فجأة ليظهر صاحب المنزل وهو يقول لـ«وليد» بعنف:

- قل لصاحبك يستحم ويغيِّر ثيابه.. أريدكما بالأسفل بعد ربع ساعة.

كان «وليد» يعرفه عندما يكون غاضبًا، لذلك أومأ برأسه وهو يقوم من جانب «شادي».. نظر الرجل إلى «شادي» نظرة نارية جعلت الدماء تجف في عروقه قبل أن يخرج.. قال «شادي» بخوف لـ«وليد»:

– هذا الرجل مخيف.. كيف سنعيش معه؟

أجابه «وليد» وهو يساعده على النهوض:

– إنه صارم لكنه رجل طيب.. سوف تحبه عندما تعرفه.

قام «شادي» في عدم اقتناع.. لو عاش معه ألف سنة لن يحبه.. مجرد رؤيته للحظات جعلته يشعر بالرعب.. ناهيك بكلام «وليد» عن أنه في الأغلب قاتل «سمير».

سار «شادي» إلى الحمام حيث كان «وليد» قد وضع له ثيابًا جديدة.. لاحظ «وليد» عرجة صاحبه التي لا تحتاج إلى قوة ملاحظة فقال له بقلق:

– ما لك يا «شادي»؟ لماذا تعرج هكذا؟

ابتسم «شادي» في حسرة وهو يقول:

– سوف أحكي لك عندما أخرج من الحمام.

***

نزل «شادي» على السلم ببطء فقد كان منهكًا لأن أثر القرص المخدر بدأ يختفي وسيأتي الصداع بقوة بعد قليل.. يستند على حاجز الدرج بيده اليمنى ويرى الرجل ينتظره في غضب عند المائدة و«وليد» يجلس عن يمين الرجل صامتًا.

أسرع «شادي» في نزوله عندما لاحظ غضب الرجل وذهب للجلوس بجانب «وليد» لكنه سمع صوت الرجل الحازم يقول له:

- تعالَ.. اجلس بجانبي في الناحية الأخرى.

ابتلع «شادي» ريقه بصوت مسموع وجلس على الكرسي عن يسار الرجل.. قال لهما الرجل بضيق بعد أن لاحظ أنهما لم يبدآ الأكل بعد:

- لماذا لا تأكلان؟

فبدآ بالأكل على الفور.. كانت نفس «شادي» تعزف عن الأكل رغم أنه لم يأكل منذ مدة طويلة إلا القليل.. والأكل يبدو عليه أنه شهي لكن الصداع الذي يضرب رأسه كان كل ما يشغله.. كان يعرف أنه سيزداد بعد قليل وسيكون أشرس ما يكون بحلول الليل.. قال الرجل بطريقة آلية وكأنه يتحدث إلى الفراغ الذي أمامه:

- هذا البيت له نظام لا أريد لأحد أن يخالفه حتى نعيش جميعًا في هدوء دون الاضطرار لمعاقبة أحد.. كان ينقصه أن يقول: أحد اسمه «شادي».. وقف الطعام القليل الذي كان «شادي» يحاول بلعه في حلقه فسعل بقوة قبل أن يشرب كوبًا من الماء.. قام عن المائدة وهو يقول:

- لقد شبعت.

ذهب ليجلس على كرسي في أحد الأركان.. كان لا يشعر بالراحة إلا عندما يجلس في ركن أو تحت سطح منخفض.. فقد تعوَّد على الجلوس مختبئًا

عن أعين الناس.. أنهى «وليد» طعامه بسرعة وقام ليغسل يده وصوت الرجل يلاحقه:

- أنت لم تأكل جيدًا يا «ليونيد».

فرد عليه وهو ذاهب إلى الحمام ليغسل يديه:

- لقد شبعت يا أبي.

عاد «وليد» وجلس بجانب صديقه الذي كان جالسًا ورأسه بين كفه وذراعه المبتورة الكف وقد ظهرت عليه علامات الإعياء.. سأله بقلق:

- ما لك يا «شادي»؟ تبدو متعبًا.

أجابه «شادي» بوهن:

- أنا آخذ دواءً يسكن الألم.

فعاد «وليد» يسأله:

- ما هذا الدواء؟ سوف نرسل من يشتريه لك.

فهز «شادي» رأسه بعنف وقال:

- هذا الدواء موجود عند المعلم «سليمان» فقط.

فسأله «وليد» بدهشة:

- وما هذا الدواء الموجود مع «سليمان» فقط؟!

- إنه يقصد المخدرات.

كان ذلك صوت الرجل يتكلم في شماتة وينظر في تشفٍ إلى «شادي»..

سأله «وليد» بخوف:

- ماذا تعني بالمخدرات؟

فأجابه الرجل وابتسامة ساخرة تعلو وجهه:

- الأقراص التي كان يعطيها «سليمان» لصديقك كانت أقراصًا مخدرة جعلت منه مدمنًا.

نظر «وليد» إلى صاحبه في إشفاق وسأل الرجل:

- ألا توجد طريقة لعلاجه؟

قبل أن يرد الرجل عليه أصابت «شادي» حالة من الهياج جعلته يقوم ليكسر بعض التحف الموجودة على المناضد للزينة.. أسرع الرجل بالانقضاض عليه وتكتيفه بيديه.. ثم قال لـ«وليد» وهو يحاول السيطرة على الصبي الذي أصبح كحيوان مفترس:

- خذ مفتاح باب البيت من جيبي ونَادِ على «ربيع» بصوت عالٍ في الخارج.

أسرع «وليد» إلى الخارج، وما إن نادى على «ربيع» حتى أتى يمشي مترنحًا كأنه تحت تأثير المخدر هو الآخر.. كانت ملامحه لا تزال قادرة على إثارة رعب «وليد» الذي قال له:

- والدي يريدك بالداخل.

ابتسم الرجل وهزَّ رأسه في سخرية وهو يردد:

- والدك.. لقد نصحتك، لكن الأوان قد فات وسيدفع صديقك الثمن.

تجمدت الدماء في عروقه من كلام الرجل.. دخل «ربيع» وتركه لحظات على باب البيت.. تلك اللحظات جعلته يشتاق للخروج والجري في الخارج، وبخاصة بعد أن أحس بالهواء الطلق يضرب وجهه.. استغاثة صديقه هي فقط التي أعادته إلى الداخل.. عندما دخل وجد باب القبو مفتوحًا والرجل و«ربيع» يحاولان إدخال «شادي» إلى القبو، بينما أمسك هو بالباب وهو يصرخ:

- «وليد».. لا تجعله يرميني في القبو.

وضع «وليد» يده على جانب الرجل ونادى عليه ليحاول أن يثنيه عن دفع «شادي» إلى القبو.. لكن الرجل دفع «شادي» بكل قوته إلى داخل القبو المظلم فسمع «وليد» صوت دحرجته على السلالم المؤدية إلى أسفل.. وبينما كان «ربيع» يجري خلف جسد الصبي الذي كان يتدحرج على السلالم التفت الرجل إلى «وليد» وقال له وعيناه قد احمرتا من فرط الغضب:

- هاتِ المفتاح.

فأعطاه «وليد» مفتاح المنزل فأغلق الرجل باب المنزل جيدًا ثم أعاد السلسلة التي كان بها الكثير من المفاتيح إلى جيبه قبل أن ينزل مسرعًا إلى القبو.. بعد ذلك سمع «وليد» صوت صراخ صديقه قبل أن يهدأ كل شيء.

بعد لحظات من الترقب عاد الرجـل إلى «وليـد» وأغلـق بـاب القبـو.. لم يصعد «ربيع» معه ولم يفكر «وليد» في السؤال عنه، بينما سأل عن صاحبه:

- ماذا ستفعل بـ«شادي»؟

نظر إليه الرجل في ازدراء وسأله:

- أنت خائف عليه؟

لم يرد «وليد» فاستطرد الرجل:

- أنت صاحب فكرة إحضاره إلى هنا.

أحس «وليد» بالقلق على صاحبه فعاد يسأله:

- ماذا ستفعل به؟

أجابه الرجل وهو يزفر في ضيق:

- سوف أعالجه.. أو أتخلص منـه.. لا يمكنـه العـيش معنـا علـى هـذا الحال ولا يمكنني تركه بعد أن عرف مكاننا.

لم يدرِ «وليد» ما الذي يمكن أن يفعله أو يقوله.. فقط جلس يبكي بصوت مكتوم.

***

لم يَذُق «وليد» طعم النوم في الأيام التي تلت نزول «شـادي» القبـو.. كـان يشعر أنه هو السبب في ما يحدث له.. صراخ كل ليلة والرجل يمنعه من دخـول القبو ورؤية صديقه.. حتى كانت تلك الليلة.. الليلة التي بدأ «وليد» يعرف فيها

طبيعة ما يفعله ذلك الرجل.. كان جالسًا عند باب القبو كعادته يتسمع ما يحدث عندما صعد إليه «ربيع» من القبو وفتح الباب وهو يقول له بصوت باهت يائس:

– السيد يريدك بالأسفل.

فتح «ربيع» الباب ووقف أمامه.. أشار إليه بالنزول.. لم يكن «وليد» يعتقد أنه سوف يتردد إلى هذا الحد عندما يُطلب منه النزول.. وقف ينظر بترقب إلى الباب المفتوح أمامه.. عبر الباب بتردد يقدم رِجلًا ويؤخر الأخرى ليشعر بذلك الهواء البارد.. أغلق «ربيع» الباب بقوة وهو يردد في حسرة:

– ضاعت عليك الفرصة.

هذا الرجل يوتره باستمرار.. أحس «وليد» بانقباض في صدره.. كلمات «ربيع» زادت من خوفه وتوجسه.. نزل السلالم في خوف.. يتحسس خطواته بحذر بسبب الظلام المخيِّم على المكان.. عندما وصل إلى الأسفل كان هناك مصباح أبيض يحتضر معلق في السقف يسقط منه ضوء خافت مقيت زاد من كآبة المكان.. «شادي» مربوط بإحكام في منتصف الغرفة.. الرجل يرسم دوائر حوله بالجير.. دوائر داخل دوائر أخرى أكبر منها.. ودوائر أخرى متداخلة.. ثم بدأ في غرس شمع صغير في الجير.. لم يفهم «وليد» أي شيء من الذي يدور حوله.. حاول أن يقترب من صديقه لكن الرجل صرخ فيه بعنف:

– ابتعد عن الدوائر.. لا تقترب.

تجمد «وليد» في مكانه ولم يحرك حتى جفنيه.. بعد أن انتهى الرجل

من إشعال كل الشموع التي وضعها في الجير.. تقافز بين الدوائر حتى خرج منها دون خدش إحداها.. بعد ذلك أمسك «وليد» من كتفه وقال له وهو يلهث بقوة:

– سوف ترى الآن مصدر قوة يمكنك بها أن تفعل ما تريد.. أن تعرف ما تريد.. أن تسيطر على من تريد.. قف في جانب الغرفة هناك ولا تخف ولا تحرك ساكنًا.

ثم قال لـ«ربيع» بحزم:

– أمسكه جيدًا ولا تجعله يتدخل مهما حدث.

وقف «ربيع» مع «وليد» في جانب الغرفة وبدأ الرجل في التمتمة بكلمات غير مفهومة.. ذكّرت «وليد» بتلك الكلمات التي كان يسمعها عندما كان مربوطًا هنا.. بعد قليل بدأ الرجل يتحرك بين الدوائر في ترتيب معين حتى وصل إلى «شادي».. هنا بدأت ظلال تتحرك بالغرفة.. كأنها قطع من القماش الأسود تسير على حوائط القبو.. لم تتحمل أعصاب «وليد» أكثر من ذلك وأفرغ مثانته في مكانه وأمسك بـ«ربيع» – الذي كان يخشاه من قبل – بقوة.. لم يتوقع أنه سوف يتعلق بـ«ربيع» في يوم من الأيام حتى يشعر بالأمان.. هنا سمع الخوار ولاحظ أن الظلال تدور حول «شادي».. إنها تقترب منه.. تختفي في داخله.. يصرخ «شادي» كأن هناك من يأكل كبده وهو حي.. تزداد حدة كلام الرجل.. فجأة ينظر إلى «وليد».. ليرى «وليد» ما جعله يصرخ رعبًا.. ربما تأخرت صرخته أكثر من اللازم.. لكن عندما نظر إليه الرجل بعين لا يظهر فيها قزحية.. مجرد الصُّلبة

البيضاء.. لم يستطع منع نفسه من الصراخ وكأن كل ما حدث من قبل لم يكن يستدعي ذلك!

***

ضرب «سليمان» كفًا بكف ثم قال لـ«سيد» وهو يسحب نفسًا من النارجيلة:

– لا أدري ما هذا النحس الذي أصابنا؟! في البداية تم قتل «سمير» واختفى «وليد».

ثم أضاف بغيظ وحسرة:

– والآن اختفى «شادي».. بعد أن أصبح في أفضل حال.. اختفى هكذا بعد أن أصبح متسولًا من الدرجة الأولى.

رد عليه «سيد» مواسيًا:

– لا تحمل الهم يا معلم.. يوجد الكثيرون غيره.

فقال له «سليمان» وهو يهز رأسه بعدم اقتناع:

– ليسوا مثل «شادي».. لقد كنت أعدُّه ليكون المتسول الأمثل.. لقد أخذنا منه ذراعه ثم كان حظنا جيدًا بعد أن أصبح أعرج ومدمنًا.. «شادي» كان صغيرًا وعنده من المؤهلات ما كان سيجعل له مستقبلًا عظيمًا.

لم يرد عليه «سيد» الذي كان قد ذهب في سُبات عميق بعد كم الحشيش الذي استنشقه.. لكن المعلم أكمل حديثه إلى نفسه:

- أنا المخطئ لأني تركته بمفرده في الشارع على ذلك الحال.. ربنا يعوض علينا ويرزقنا بولد أفضل منه.. لكن ما يحيرني أين ذهب وهو على ذلك الحال؟!

***

مد الرجل يده إلى «وليد» وقال له بصوت غريب كأنه ليس صوته والدموع تنزل من عينيه:

- لم يعد في يدي ما أفعله.

كانت دموع الرجل تنزل دون بكاء.. كانت تنزل تلقائيًا وكأن الغبار الذي هيجته الظلال في دورانها بالمكان قد أصاب عينيه.. حاول «وليد» الوصول للرجل الذي مد يده إليه، لكن «ربيع» أمسك به وهو يصرخ فيه:

- لا تنخدع بمظهره.. لا تذهب إليه.

فجأة ضحك الرجل ضحكة عالية ورأى «وليد» جسد صديقه يهتز بعنف ثم خرجت الظلال من جسده الذي طار في الهواء ثم ارتطم بقوة بالأرض.. وبعد ذلك هدأ كل شيء.

أحس «وليد» أن قبضة «ربيع» قد لانت على كتفه فاعتبر ذلك تصريحاً له بالمرور.. جرى إلى صديقه فوجده غارقًا في دمائه.. الدم يخرج من فمه.. من أذنيه وأنفه.. الكثير من الجروح في جسده، وملابسه ممزقه كأنه كان يصارع حيوانًا مفترسًا.. لم يكن الأمر في حاجة إلى خبير حتى يعرف أن الصبي قد

مات.. جلس «وليد» عند رأس صديقه وبدأ في النواح عليه، لكنه بعد ذلك انطلق إلى الرجل الذي كان يجلس على الأرض في إنهاك شديد وبدأ في ضربه.. لكن الرجل أحاط به بيديه في قوة وصرخ فيه:

- اهدأ يا «ليونيد».

فقال له وهو يبكي بحرقة:

- لماذا قتلته؟

أجابه الرجل بصوت منهك وهو لا يزال ممسكًا به:

- اهدأ وسوف تفهم كل شيء الآن.. لقد كنت سأعلمك كل شيء لكن ليس الآن.. وجود صديقك هو الذي عجل بالأمر.

توقف «وليد» عن محاولاته ركْل الرجل الذي كان يحمله في الهواء فركلاته لا تصل إليه على كل حال.. فتركه الرجل ليجلس على الأرض في حزن شديد.. لم يكن «وليد» يتوقع بعد ما حدث له مع والده أن يحدث له ما يجعله يشعر بحزن أكثر بكثير من الحزن الذي أصابه عندما طرده والده.. جلس الرجل بجانبه وبدأ في شرح ما حدث..

ربما يشرح الرجل لكن هل سيفهم «وليد» أخيرًا الأشياء التي كانت تحدث له في الأيام التي قضاها في ذلك القبو؟

# الاستجواب الأول

وقف «شباكا» أمام جسد الفتاة الصغيرة البض العاري يتأملـه.. تنهـد في حسرة وهو يقول لـ«أنينا» مساعده الذي لا يطيقه ويبادله هو نفس الشعور:

- كانت فتاة جميلة.. أظنك قمت بالاعتداء عليها قبل قتلها.

لم يرد «أنينا» فاستطرد «شباكا» وهو يضحك بحيوانية:

- على كل حال سوف أعرف منهـا كـل شيء.. سـوف تخبرنـي بكـل شيء.. أنا لا أحتاجها حية حتى تجيب عن أسئلتي.

كان هذا هو الجزء المهم بالنسبة لـ«أنينا».. كان يريد أن يتعلم ذلك الفن الذي سيكون بابًا لمعرفة كل ما يريد.. استطرد «شباكا» وهو يشحذ سكينًا كبيرًا:

- سوف نبدأ بتحضير الجثة كأننا سوف نقوم بتحنيطها.

ثم اقترْب من الجسد الراقد على منضدة حجرية وهو يضيف:

- بالطبع نحن لم نتوصل إلى أسهل وأفضل طريقة بعد؛ لـذلك أعتقـد أن هذه الفتاة لن تكون الأخيرة.

أمسك بالسكين وشق جسد الفتاة بالطول من تحت الرقبة حتى سرتها.. حاول أن يباعد بين عظام قفصها الصدري وهو يقول لمساعده:

- حاول أن تجمع أكبر قدر من الدماء.. سوف نحتاجها.

ظل «أنينا» يجمع الدماء في إناء بينما استطرد «شباكا» وهو يدخل يده إلى صدر الفتاة كأنه يبحث عن شيء ما:

- كل شيء موجود هنا.. كل ما شعرت به موجود هنا.

ثم قال لـ«أنينا»:

- ناولني السكين بسرعة.

فترك «أنينا» ما كان يفعله وناوله السكين.. فأدخل «شباكا» السكين من تحت الضلوع وبدأ في التقطيع حتى خرجت يده ممسكة بما يريد.. بالقلب...

قال لـ«أنينا» وهو ينظر إلى قلب الفتاة برضا:

- القلب.. فيه كل شيء.

ثم أطلق ضحكة أخافت «أنينا» شخصيًا.

***

كان «وليد» جالسًا في ذهول مما رأى.. كان ينظر إلى جثة صاحبه في عدم فهم.. لم يصدق أن هذا هو الموت الذي كان يسمع عنه من بعيد فصار يخالطه كل حين.. أولًا مع «سمير» الذي لم يخسر الكثير من مخزون السعادة بفقده, والآن «شادي» الذي اسودت الدنيا في عينيه عندما رحل عنها.. الأدهى من ذلك شعوره بأنه هو السبب.. ربما لو لم يأتِ به إلى هنا لما حدث له كل ما مر به.

كان قد هدأ قليلًا عندما قال له الرجل بصوت منهك:

- لقد كنت أحاول أن أنقذه.. حاولت أن أعالجه.. ما رأيته الآن فن من

الفنون القديمة التي اندثرت وبات الحديث عنها من باب الحديث عن الأساطير والخرافات.

سكت الرجل ثواني يسترد فيها أنفاسه ثم استطرد:

– هذا الفن هو العلاج باستدعاء الشياطين.. أجعلها تدخل الجسد المريض ثم أخرجها منه ومعها المرض.

نظر إليه «وليد» في عدم فهم وقد رأى الرجل التساؤل في عينيه فقال له موضحًا شيئًا من الأساس غير قابل للتوضيح:

– بالتأكيد سمعت عن الجن الذي يدخل أجساد الناس.

فهز «وليد» رأسه بما يعني أنه سمع.. فاستطرد الرجل:

– أنا أحاول أن أسخِّر الجن.. أدخلهم في أجساد المرضى وأجعلهم يخرجون بالمرض.

فتدخل «ربيع»، الذي نسيه الجميع لطول فترة صمته، قائلًا بلهجة ذات مغزى:

– لكنك لم تنجح في ذلك الأمر من قبل يا سيدي.. أنت لم تنجح سوى في شيء واحد تعلمه جيدًا.

رمقه الرجل بنظرة نارية وقال له بتهديد:

– وأنت أيضًا تعرف الشيء الذي أنجح فيه جيدًا.. هل تريد أن أجرب

الأمر معك؟

فنظر «ربيع» إلى الأرض في خوف ولم يجب.. سأل «وليد» الرجل بندم:

- ما دمت لم تنجح من قبل لماذا جربت في «شادي»؟!

أجابه الرجل بلهجة حاول أن تكون بها بعض الشفقة:

- لقد ظننت أني أستطيع شفاء صديقك.

أحس «وليد» أن هذا الرجل أراد أن يتخلص من «شادي» فقال له بكراهية:

- أنت لم تحبه من الأساس.

فرد عليه الرجل ببرود:

- وما دخل الحب والكره في هذا الأمر؟ هل تعتقد أنني تعمدت قتله؟!

لم يرد «وليد» الذي لم يعد متأكدًا من أي شيء، فقام الرجل وأمسك بيده وهو يقول له:

- اذهب للنوم الآن، سوف أجعلك في الغد ترى بنفسك مَن السبب في ما حدث لصديقك.

فسأله «وليد» بشك:

- كيف هذا؟

فأوقفه الرجل على قدميه وقال له:

- سوف تعرف في الغد.. الآن يجب أن نرتاح قليلاً.

***

بالطبع لم ينم «وليد» ليلته.. ظل جالسًا على الفراش في خوف وقد أضاء غرفته.. لكن إضاءة الغرفة لم تمنعه من ملاحظة الضوء الذي يمر من أسفل الباب ويُظهر وجود أحد الأشخاص خلفه.

قام «وليد» ببطء ومشي بخفة لينظر من ثقب المفتاح فرأى ذلك الظل يمر من أمام الباب.. تردد قليلاً قبل أن يفتح الباب ببطء.. كل الأبواب تحدث صريرًا عندما يريد فاتحها التخفي.. نظر في الرواق وعلى ضوئه الخافت رأى الظل عند السلم يتجه إلى الأسفل.. كان هناك شعور قوي يدفعه كي يتبع ذلك الظل.. خرج من الغرفة وتأكد أن الرجل ينام في غرفته ثم اتجه إلى الدرج حيث نزل الظل إلى الأسفل.

كان من عادتهم ترك مصباح واحد فقط مضاءً بالأسفل.. لكن الضوء الخافت لم يمنعه من رؤية الظل ينزل إلى القبو.. حيث جثة «شادي».

هل من الحكمة النزول؟! كلهم لا يتعلمون من أخطاء من سبقهم.. كل من نزل قبوًا خلف ظل لم يعد.. لكنهم رغم ذلك ما زالوا يطاردون الظلال.

كان باب القبو مفتوحًا على غير العادة.. نزل «وليد» السلالم حيث توقع أن يجد جثة صديقه حيث تركها بالأمس، لكنها لم تكن موجودة.. ربما أخفاها الرجل أو «ربيع» في مكان ما.. هكذا كان يقول «وليد» لنفسه.. لم يكن يشعر

بذلك الشيء الذي يتحرك من خلفه.. سمع ذلك الصوت المألوف لمن يختنق يقول له:

- أنت السبب في ما حدث لي.

التفت إلى مصدر الصوت ليرى تلك الذراع مبتورة الكف تقترب من وجهه.. لم يدر ماذا يفعل، لكنه ظن أن هذا هو الوقت المناسب للصراخ والفرار.

***

استيقظ «وليد» وهو يحاول الفرار من جثة صديقه التي تطارده فعلم أنه كان كابوسًا.. لكنه حين جلس في فراشه تمنى لو كانت حياته كلها كابوسًا يستيقظ منه في مكان آخر مع أب لا يتركه دون سبب وأب آخر يحاول السيطرة على الشياطين.. أحس برغبة في البكاء حين سمع مقبض باب غرفته يتحرك ليدخل ذلك الرجل الذي يصر على أن يكون أباه.. مشي نحوه في بطء وتردد حتى جلس بجواره على الفراش.. سأله بصوت محايد كأنه يقوم بواجبه ليس أكثر:

- كيف حالك اليوم يا «ليونيد»؟

نظر إليه «وليد» بما يعني «وكيف تظن حالي؟».. لكنه لم يرد فاستطرد الرجل بنفس الطريقة:

- هيا ننزل للأسفل حتى نفطر.

فرد عليه «وليد» باشمئزاز:

- ليست لي رغبة في الطعام.

وضع الرجل يده على كتفه وقال له:

– أنا لم أكن أقصد ما حدث لصديقك.. لقد كنت أحاول علاجه.

فنظر إليه «وليد» بعتاب وهو يرد:

– لقد كنت تجرب فيه.

فقال له الرجل محاولاً تبرير فعلته:

– هل تعتقد أن صديقك كان سيعيش في راحة؟ أنت لم ترَ ما تفعله المخدرات بصاحبها.. لقد ارتاح صاحبك على كل حال.. لقد كان يحيا حياة الحيوانات.. كان سيموت على كل حال.. لقد حاولت أن أعيده إنسانًا.. لست أنا من قتله.. هل تريد أن تعرف من الذي قتله؟

لم يرد عليه «وليد» لأنه لم يفهم ما يرمي إليه كلام الرجل.. فاستطرد الرجل بصوت كالفحيح:

– مَن حوَّله إلى ذلك المدمن هو مَن قتله.. مَن تركه في الشارع هو مَن قتله.. أنت نفسك كان من الممكن أن تتحول إلى مدمن مثله.. ماذا سيمنعني من قتلك إذا أردت؟ لا شيء.. لا تَلُمْني على محاولة مساعدته إذ فشلت، بل يجب أن تلوم من تركه في الشارع.

كان كلامه يحمل الكثير من المنطق من وجهة نظر «وليد» لذلك سأله في حيرة:

- هل يوجد أحد آخر غير والده سببًا في ما وصل إليه «شادي»؟

ابتسم الرجل في رضا لأنه عرف أن «وليد» ابتلع الطعم الذي ألقاه إليه فأجابه:

- يمكنك أن تعرف.. لكن هذا سيتطلب منك تضحية.

توجس «وليد» من التضحية التي يطالبه الرجل بها فسأله بشك:

- وما تلك التضحية؟

أجابه الرجل وهو يهز كتفيه:

- ليست تضحية بالمعنى المفهوم.. لكنها طقوس يجب عليك أن تقوم بها حتى آخر يوم في حياتك.. بل يجب عليك عندما تكبر أن تجد من تربيه عليها.. ربما كانت طقوسًا غريبة.. ربما كانت مقرفة ومقززة ومخيفة.. لكن تذكر صديقك الذي ضحى بذراعه عن طيب خاطر لإنقاذك.. ألا تريد الانتقام له؟

أجابه «وليد» بسرعة:

- كيف لا؟! بل أريد الانتقام من كل من ظلمنا.

فأضاف الرجل بشهوانية غريبة:

- والأكثر من ذلك معرفة إجابات كل الأسئلة الحائرة.

فهز «وليد» رأسه بحماس موافقًا.. فقال له الرجل:

- حسنًا سوف ننتظر المساء حتى تبدأ أول استجواب ستقوم به.. سوف

نسأل فيه «شادي» عن كل ما حدث له.. سوف ترى ما رأى.. تسمع ما سمع.. تكتسب علمه.. تأخذ مهاراته.. لكنك أيضًا سوف تتألم كما تألم.. تحزن حزنه وتخاف مما خاف.. هل يمكنك أن تتحمل كل ذلك بالإضافة للعهد الذي سوف تأخذه على نفسك؟

أجابه «وليد» بثقة:

- سوف أتحمل أي شيء يجعلني أنتقم لـ«شادي» وأعرف كل ما أريد.

فهز الرجل رأسه في رضا وردد:

- حسنًا.. فلننتظر المساء، وتذكَّر أن المعرفة التي تريدها لها ثمن باهظ.. ثمن لا يقدر على تقديمه أي شخص.. ثمن يمكنك فقط أن تدفعه مرة واحدة فقط، وتذكَّر أن هذه الصفقة لا رجعة فيها.

فأومأ «وليد» برأسه موافقًا على المضي في ذلك الطريق الذي لا عودة منه.

***

عندما أظلمت الدنيا كان «وليد» ينتظر في غرفته.. لم يأكل طوال اليوم غير النذر اليسير.. لم يخرج من غرفته.. كان ينتظر الليل الذي تأخر عليه كثيرًا في ذلك اليوم.

سمع طرقات على الباب.. لم يكن من عادة الرجل أن يطرق الباب قبل الدخول، لذلك نبهت الطرقات حواسه, ليجد «ربيع» من خلف الباب يخبره أن الرجل يريده.. قام «وليد» من الفراش الذي لزمه طوال اليوم وسار خلف

«ربيع».. كانت هذه هي المرة الأولى التي يتأمل فيها «ربيع».. كان يخاف النظر إليه لكن بعد ليلة الأمس لم يعد هناك ما يخيفه.. كانت ثياب «ربيع» مهترئة وقديمة.. ظهره مُنْحَنٍ إلى الأمام قليلًا.. ملامحه كما رآها من قبل.. في مشيته عرجة خفيفة.

عند باب القبو وقف «ربيع» وقال له وهو يهز رأسه في حسرة ويشير إلى الداخل:

- تفضل بالدخول.

دخل «وليد» لكنه هذه المرة نظر خلفه حتى يرى ما يفعله «ربيع» فوجده يغلق باب القبو ثم يقوم برش سائل لزج عند الباب.

عندما وصل حيث جثة «شادي» وجدها في مكانها الذي كانت فيه بالأمس لكن عليها ملاءة خفيفة تظهر عليها بقع من الدم.. سرت القشعريرة في جسد «وليد» وأحس برغبة في الفرار، لكن الرجل الذي كان يعيد رسم الدوائر التي كانت موجودة بالأمس قال له محذرًا:

- لم يعد هناك مجال للتراجع.

ثم قام وأمسك بيده وجذبه إلى إحدى الدوائر وهو يقول له:

- قف مكانك ولا تتحرك وهات يدك.

فجأة أخرج سكينًا له مقبض ذهبي يبدو كأنه سكين أثري جرح به يد

«وليد» الذي كتم صرخته وأمسك يده في ألم وهو يردد متسائلًا في ألم شديد:

- ماذا تفعل؟

فأشار إليه الرجل بالسكوت وقال لـ«ربيع»:

- هات الكأس يا «ربيع».

ناوله «ربيع» كأسًا ذهبية عليها زخارف تشبه تلك التي على مقبض السكين.. أمسك الرجل بالكأس ووضع فيها قطرات من دم «وليد» ثم قال له:

- ردد ورائي ما أقول.

ثم بدأ في قول كلمات غير مفهومة لكنها تُشعر بالانقباض، رددها «وليد» خلفه بصعوبة لأنه لا يفهمها.. بعد ذلك رش الرجل ما في الكأس من دم على دائرة بينه وبين الدائرة التي يقف فيها «وليد».

بدأت الظلال تنتشر كما انتشرت بالأمس، وفجأة بدأ الرجل يتحدث بصوت لم يسمعه «وليد» من قبل.. ليس من الرجل فقط بل لم يسمعه من قبل على الإطلاق.. قال له:

- لقد صرت الآن واحدًا منا ويجب عليك أن تحافظ على العهد.

بالطبع لم يتكلم «وليد» فاستطرد الصوت:

- سوف نظل في خدمتك ما دمت تحافظ على العهد.. لكنك لو نقضته فلن تنعم بالحياة بعدها.. سوف نجعلك تتمنى الموت ولن تحصل عليه.

كان «وليد» يريد أن يسأله عن طبيعة ذلك العهد لكنه لم يجرؤ.. كان يريد أن يتراجع لكنه لم يجرؤ.. أكمل الصوت كلامه:

- الآن سوف يعلمك السيد فن استجواب الموتى حتى ترث من بعده ذلك الفن.. سوف تتعلم من خلاله في ليلة ما يتعلمه الآخرون في سنوات.

ثم فجأة عاد صوت الرجل المألوف يكمل:

- سوف يكون أول من تستجوبه «شادي» حتى تعرف الذي حدث له بالضبط.. من الأفضل أن تبدأ باستجواب شخص قريب منك حتى تتقن ذلك الفن بسرعة.

لم يكن «وليد» يفهم ما يدور حوله بالضبط لكنه انتظر لأنه سوف يرى كل شيء على الطبيعة.. كشف الرجل الغطاء عن الجثة الملقاة على الأرض وهو يقول له:

- مهما حدث لا تتحرك من مكانك وإلا سيحدث لك ما حدث لصديقك.. أنت ترى تلك الظلال؟ لن تؤذيك ما دمت في هذه الدائرة بالذات.

تشبثت قدما «وليد» بالأرض بينما بدأ الرجل بصنع جرح في رأس جثة «شادي» بالسكين الذي جرح به «وليد».. كانت الجثة قد شحبت تمامًا ولم يعد بها أثر للحياة.. لم يستطع «وليد» منع نفسه من البكاء وهو ينظر إلى جثة صاحبه.. وضع الرجل القليل من الدم في الكأس ثم قام بعمل جروح في مناطق مختلفة من الجسد الملقى على الأرض وأعاد نفس العملية حتى امتلأ ما يقرب من

نصف الكأس.. أعطى الرجل الكأس لـ«ربيع» وهو يأمره:

- صب عليه الشراب بسرعة.

فأكمل «ربيع» النصف الفارغ بشراب من زجاجة في يده حتى امتلأت الكأس عن آخرها.. أعطى «ربيع» الكأس للرجل الذي أخذها منه وقدمها لـ«وليد» وهو يقول:

- اشرب هذا.

لم يجسر «وليد» على أخذ ذلك الشراب الذي هو مزيج من دم صاحبه وشيء لا يعرفه.. لكن الرجل صرخ فيه:

- اشرب وإلا قتلتك الظلال.

بدأت الظلال تتحرك في الغرفة بطريقة هوجاء والرجل يصرخ فيه:

- اشرب يا «ليونيد».

أمسك «وليد» بالشراب وشربه دفعة واحدة.. تذكر الشراب الذي كان يشربه عندما كان مربوطاً في القبو.. نفس المذاق تقريبًا.

بدأ «وليد» يشعر كأن الأرض تتحرك من تحت قدميه.. يشعر بالدوار.. جدران القبو تختفي.. السقف يطير.. كل شيء يذوب من حوله ليجد نفسه في شقة «شادي».. يعرف أنها هي على الرغم من أن تلك هي أول مرة يراها.. والدة «شادي» تجلس في وهن ترضع المولود الصغير بين يديها.. إنه يرى بعيني

«شادي» الآن.. فجأة يدخل والد «شادي» ثملاً.. يقلب مائدة الطعام على الأرض بلا سبب واضح.. يكيل الضربات للسيدة وبعض تلك الضربات تصل للرضيع فتحاول الأم حمايته بجسدها.. يتدخل «وليد» الذي أصبح «شادي» فيقف بجسده الصغير بين والده وأمه.. يحمله الرجل عاليًا ويُلقي به على الأرض.. يشعر بالألم في كل عظمة من عظام جسده لكنه يتحامل على نفسه.. يقوم ليقف في وجه أبيه من جديد فالرجل لم يتوقف عن هواية ضرب الأم بعد.. يطير «شادي» من جديد في الهواء لينزل على الأرض الصلبة.. في المرة الثالثة فتح الرجل باب الشقة ليخرج «شادي» لكن «شادي» يتشبث بالباب.. تذكر «وليد» منظر «شادي» وهو يدخل القبو.. نفس الشعور بالخوف.. نفس التوسل.. لكن والده دفعه خارج الشقة ووالدة «شادي» تصرخ فيه أن يتركه.. بعد أن وجد «شادي» نفسه خارج الشقة والكدمات تملأ جسده سمع صوت تكسر بعض الأشياء في الشقة وصراخ والدته من الضرب.. بعد مدة ليست بالقصيرة هدأ كل شيء.. فتحت أمه الباب وهي تبكي وتجر قدميها.. دخل الشقة وبدأ في تنظيفها لوالدته.

فجأة اختفت الغرفة ليحل محلها باب البيت.. «شادي» يقف في الصباح ينتظر «إيمان» جارته التي في مثل عمره.. عرف «وليد» الآن لماذا كان «شادي» جريئًا مع الفتيات في دار العرض.. كان من عادة «شادي» المذاكرة مع «إيمان» زميلته في المدرسة.. لكن الآن والدها يمنعها من المذاكرة معه لأفعال والده التي

أصبحت حديث الشارع كله.. ينتظرها «شادي» أمام باب البيت كل صباح ليذهب معها إلى المدرسة المشتركة.. تسأله طوال الطريق عن حاله وحال والدته وسبب ما يفعله والده.. فيسألها «شادي» بخجل:

– هل سمعتم ما كان يفعله والدي بالأمس؟

فترد عليه بتلقائية:

– الشارع كله سمع.

فعاد «شادي» يسألها بلوم:

– لماذا لم يتدخل أحد؟

فترد عليه بلا مبالاة:

– أنت تعرف.. كل واحد يقول ليس من شأني.

تختفي «إيمان» لتعود الشقة ويعود والد «شادي» يضربه من جديد.. لكن هذه المرة والده أضعف من المعتاد لأنه ثَمِلٌ أكثر من المعتاد.. يستطيع «شادي» أن يقاومه.. يتعثر الرجل ويقع على الأرض فيقوم غاضبًا إلى المطبخ ويعود بسكين.. تصرخ الأم فيجري «شادي» إلى خارج الشقة.. لكن والده يجري وراءه في جنون.. ينزل «شادي» الدرج متوقعًا ألا يلحق به لكنه يفعل العكس.. يجري «شادي» في الشارع والرجل يجري خلفه.. لكن الرجل كان منهكًا لذلك توقف، لكن الخوف الذي تملك «شادي» جعله يواصل الجري حتى وجد نفسه تحت أحد الجسور..

كانت هذه هي أول مرة له ينام في سكينة.. تعوَّد بعدها على النوم في الشارع ولم يعد الأمر يمثل له مشكلة.

فجأة يختفي الشارع ويجد «وليد» نفسه في غرفة من غرف المستشفى الذي قام بعمل عملية الزائدة به.. كان «شادي» ينظر إلى كفه المبتورة في أسى والمعلم «سليمان» يقول له:

- لا تحزن يا أبله سوف تأكل الشهد من وراء هذه العاهة.

عرف «وليد» أيضًا كيف كانت مشاعر صديقه وقلقه عليه عندما اختفى.. عرف خوفه ورعبه من المخبر الذي تسبب في الحادث الذي تحولت فيه رجله إلى عاهة جديدة.. عرف من الذي عرض عليه المخدرات لتسكِّن آلامه ويحوله إلى مدمن.

لقد عاش «وليد» في ساعات قليلة كل الخبرات التي تركت أثرًا في «شادي».. كأنه يشاهد فيلمًا سينمائيًا عن أهم اللحظات في حياة «شادي».. أحب والدة «شادي».. أحس بميل نحو «إيمان».. بغضه لوالده.. حب «شادي» الشديد له الذي لم يستطع أن يعرف سببه.. رغم أول استجواب.

# انتقام

فتح «وليد» عينيه ليجد نفسه في القبو والرجل ينظر إليه في سعادة.. لقد جعله يضع قدميه على أول الطريق الذي سيجعل منه مستجوب موتى محترفاً.. أمسك «وليد» برأسه وقال له وهو يتألم بشدة من فرط ما مر به من أحداث في فترة زمنية قصيرة:

- أشعر بصداع شديد.

رد عليه الرجل وهو يومئ برأسه:

- هذا شعور طبيعي.. لقد رأيت في ساعات ما حدث في سنوات.

فقال له «وليد» بإصرار وهو لا يزال ممسكاً برأسه:

- لكني أريد أن أعرف المزيد.. أريد أن أعرف بعض التفاصيل.

رد الرجل بطريقة مشوقة:

- لكن هذا الأمر يتطلب شيئًا آخر غير شرب دم من يتم استجوابه.

نظر إليه «وليد» بقلق ولم يسأله عن ذلك الشيء فسأله الرجل بطريقة محفزة:

- ألا تريد أن تعرف ما ذلك الشيء الذي سيمكّنك من معرفة المزيد؟

فأجابه بتردد:

- بلى أريد أن أعرف.

فقال له الرجل بهدوء غريب لا يتناسب وما سيقوله:

- يجب أن تأكل جزءًا من أحد الأعضاء الداخلية له, وبالطبع من الأفضل أن يكون القلب.

فظل «وليد» متجمدًا في مكانه وقد أنسته كلمات الرجل الصداع الذي كان يفتك برأسه.. بينما استطرد الرجل بهدوئه المريب:

- ما رأيك؟ هل أنت على استعداد كي تعرف المزيد؟

فهز «وليد» رأسه بتردد دون أن ينطق بأي كلمة.

***

إذا أراد أن ينتقم لصديقه فعليه فعل ذلك بنفسه.

بذلك أخبره الرجل.. أخبره أنه لن يقوم بالانتقام من «سليمان» عنه؛ لذلك قضى «وليد» السنوات التي تلت استجوابه الأول في التدريب على إتقان ذلك اللون من السحر الأسود.. لم يكن يعرف من أين يأتي الرجل بتلك الجثث, وعندما كان يسأله ويلح عليه حتى يجيبه.. كان يخبره أنه اشتراها.. كأن هناك مكانًا بالقرب من المنزل لبيع الجثث.. لم يكن «وليد» مستريحاً لما يحدث، لكنه العهد الذي يجب أن يوفيه.. لم ينس الرجل كذلك أن يقوم بتدريبه على فنون القتال.

مرت السنوات عليه لا يجد تسلية إلا في تفتيش الموتى ومعرفة تفاصيل

حيواتهم.. أصبح الآن شابًا يافعًا.. لكن من يراه يظن أنه أكبر من سنه بكثير.. بدأ الشيب يزحف إلى رأسه والتجاعيد ترتسم على وجهه.. ربما لكثرة ما رأى.. لكن جسده أصبح قويًا صلبًا.. علمه الرجل أيضًا استخدام مختلف الأسلحة.. لقد أصبح جاهزًا حتى يكون آلة قتل واستجواب.. ليس عليه أن ينتزع المعلومات من الأحياء بل يمكنه معرفة كل ما يريد.. حتى من الموتى.

كان العمران قد بدأ يزحف نحو المنزل الذي كان يقبع بمفرده في ما قبل.. كان «وليد» في ما مضى إذا نظر من نافذة المنزل لا يرى إلا بعض البيوت الصغيرة من بعيد على مرمى البصر، أما الآن فالأمر اختلف.. اشترى أحد الأغنياء الأرض المجاورة للبيت الذي يعيش فيه «وليد» ليبنيها قريبًا.. سوف يصبح لهم جيران أخيرًا.. كان السيد الذي يعيش «وليد» معه يشعر بالخطر من وجود الناس بالقرب منه، لذلك بدا قلقًا ومتوترًا, وزاد من توتره رؤية «وليد» ذات يوم يتكلم مع ابنة حارس الأرض التي بجوار المنزل.

عيون العاشقين تفضحهم كما يقولون، وهذا هو الحب الأول لـ«وليد»، والحب الأول يأتي معه الكثير من المشاكل غالبًا.. كان الرجل قد لاحظ وقوف «وليد» معها كثيرًا فسأله ذات يوم:

– لماذا تقف مع تلك الفتاة كثيرًا؟

فأجابه «وليد» بالبرود الذي تعلمه منه:

– أي فتاة؟

فأجابه الرجل بحدة:

- ابنة حارس الأرض المجاورة.

فرد عليه «وليد» بحسرة:

- إنهم الآدميون الوحيدون الموجودون بالقرب منا.. لم أجد غيرهم حتى أتحدث معهم.

رد عليه الرجل معترضًا:

- لكنك تقف معها أكثر من اللازم، وهذا قد يثير الشكوك.

فضحك «وليد» بسخرية وهو يرد عليه:

- يثير شكوكًا من أي نوع؟! أولًا هي تعتقد أنني أكبر منها بكثير، لقد كانت تقول لي «يا عمو».. ثم بعد ذلك حولتها إلى الأستاذ، وبالنسبة لعملنا القذر لا أظن أنه من الممكن أن يأتي في بالهم أن ذلك الرجل الطيب الوقور هو في الحقيقة مستجوب موتى.

نظر إليه الرجل متفحصًا وسكت قليلًا قبل أن يقول:

- لو كنت تريد أي امرأة يمكنني أن أحضر لك فتاة ليل تفعل بها ما تشاء ثم نقتلها ونستعملها في الاستجواب.

نظر إليه «وليد» باشمئزاز وقال:

- لقد حولتني إلى حيوان.. لكنني لست حيوانًا إلى هذا الحد.

ابتلع الرجل الإهانة ونظر إليه نظرة نارية وفضل الصمت.. من الصعب التعامل مع المراهقين فما بالك لو كان ذلك المراهق هو «وليد».

مرت الأيام على «وليد» وهو على هذا الحال، وأكثر ما أقلق الرجل أن «وليد» لم يعد مهتمًا بالاستجواب أو مقبلًا عليه منذ أن عرف تلك الفتاة.

كان «وليد» يعرف جيدًا أنه لا يمكنه أن يتزوجها أو يتزوج غيرها.. وهو ربما يكون في الحقيقة لا يحبها لكنه يرى تلك البراءة التي انتُزعت منه انتزاعًا، لكن الرجل لم يرضَ بذلك.. إنه يراه مشروعه الخاص.. مشروعه الذي أصبح في خطر شديد.. في عملهم هذا، الشفقة خطر والرحمة خطيئة لا تغتفر.

استيقظ «وليد» في ذلك اليوم على صراخ وعويل.. قفز من الفراش ونزل إلى الطابق السفلي وهمَّ بالخروج إلى حديقة البيت ليتفقد سبب الصراخ عندما سمع صوت الرجل الصارم:

- إلى أين يا «ليونيد»؟

لم يكن قد لاحظ وجود الرجل بالأسفل لذلك أجفل عندما سمع صوته.. رد عليه وهو يفتح الباب:

- أريد أن أعرف سبب ذلك الصراخ.

كان الرجل يريد أن يقول له ليس من شأننا، لكن «وليد» كان قد خرج بالفعل.. على الباب الخارجي للحديقة وجد «ربيع» يعود من الخارج وهو يهز رأسه في أسى.. ناداه «وليد» وقد خرج الرجل ووقف إلى جواره.. اقترب «ربيع»

منه فسأله عن سبب ذلك الصراخ فأجابه وهو ينظر إلى السيد بعتاب:

- لقد ماتت ابنة الحارس الذي يحرس الأرض التي إلى جوارنا.. صدمتها سيارة وهي تعبر الطريق السريع الذي في نهاية هذا الشارع.

أحس «وليد» بالأسى والحزن من أجلها ومن أجل أهلها، فردد وهو يجاهد حتى يمنع عينيه من طرد بعض الدموع التي تحاول أن تخرج رغمًا عنه:

- يا لهم من مساكين.. هل عرضت عليهم المساعدة؟

فنظر «ربيع» إلى سيده وقال:

- إذا أذِن السيد فسأفعل.

فرد الرجل على الفور في غضب:

- ليس لأي منكما دخل بما حدث.. لا نريد جلب المشاكل لأنفسنا.. ادخل يا «ليونيد» عندنا عمل كثير اليوم.

أشار الرجل لربيع أن ينصرف ودخل هو و«وليد» الذي بدا عليه الحزن.. سأله الرجل:

- هل أنت حزين من أجل الفتاة تلك؟

أجابه «وليد» بحزن:

- حزين أكثر من أجل أهلها.. إنهم لا ينقصهم موت الفتاة حتى يشعروا بالحزن.

فقال له الرجل ليجعله يتكلم:

- يبدو أنك تعرف الكثير عنهم.

فاستطرد «وليد»:

- لقد تحدثت أكثر من مرة مع الفتاة ووالدها.. لقد كان له أرض في قريته.. لم يكن ميسور الحال لكنه كان يحيا على كل حال.. هؤلاء يرضون بأي شيء.. والدتها مصابة بفشل كلوي وتقوم بعملية «غسيل» مرتين في الأسبوع.. من حظهم العاثر أن قطعة الأرض التي يملكها والدها وقعت في طريق كوبري.. هل تعرف ما الفائدة من هذا الكوبري؟ كوبري يصل فيلا الوزير بشاليه له على الساحل.. عمل وطني عظيم.. أخذوا منه الأرض وأعطوه ثمنًا لا يكفيه لشراء عُشرها.. وجد نفسه بلا عمل ومعه زوجته المريضة.. كانت تلك الفتاة هي ابنته الكبرى تساعده في كل شيء.. لا أدري كيف سيصبر هذا الرجل.

أحس الرجل أنه أخطأ في الحكم على العلاقة التي تربطه بالفتاة.. أحس أن كل تلك التفسيرات كانت أوهامًا في عقله, فسأله بحذر:

- هل كنت تحب الفتاة يا «ليونيد»؟

سؤال الرجل جعل الشك يدب في قلب «وليد» لكنه رد كأنه لم يلاحظ المغزى من السؤال:

- أحب من؟! لقد كانت تعتقد هي ووالدها أني أكبر منها بكثير.. كانت تعاملني كأن سني قريبة من سن والدها.. لقد كنت أرسل إليهم ما يفيض

منا من طعام، وأعطي والدها المال ليغسل السيارة بـدلًا مـن «ربيـع» الـذي لم يعـد يقوى على السير.

فسكت الرجل ولم يتكلم.. قال له «وليد» ليغير الموضوع:

– لقد قلت إن عندنا الكثير من العمل اليوم.

كان «وليد» يشك في أن الرجل وراء ما حدث للفتاة لكنه لم يُرِد أن يُشعره بذلك.. هز الرجل رأسه وكأنه قد تذكر ذلك للتو وقال له بجدية:

– نعم.. يبدو أنك نسيت «شادي» تمامًا.

تحفزت حواس «وليد» وسأله بلهفة:

– هل حانت اللحظة؟

فأجابه الرجل:

– إذا كنت جاهزًا.

فرد عليه «وليد» وهو يبتسم:

– ما دمت قلت ذلك فأنا جاهز.

قام الرجل وقال له:

– هيا لنجلس إلى مائدة الطعام، لقد صنعت المخطط عليها.

كان الرجل ينوي أن يُغريه بالانتقام لـ«شادي» حتى يُنسيه أمـر الفتـاة التي كان يعتقد أن بينهما علاقة ما.. على المائدة كـان هنـاك لوحـة رسـم عليهـا

رسم يمثل العزبة التي يقطن بها «سليمان».. قال الرجل لـ«وليد»:

– هذا الرسم يمثل العزبة.. لقد كبر «سليمان» لدرجة أنه لم يعد يترك بيته الموجود هنا في منتصف العزبة.. البيوت القليلة من حوله تخص مساعديه، ومعظم أهل العزبة يسكنون العشش.. مصدر الكهرباء بالعزبة كابل كهرباء يسرقون به الكهرباء من أعمدة الطريق.. سوف تقوم أنت بقطع ذلك الكابل بينما أدخل أنا في الظلام وأقوم بزرع بعض المتفجرات التي ستشعل الحرائق في العزبة.. سوف أقابلك عند بيت «سليمان».. نحمله ونعود به حيًا لتفعل به ما تشاء.. كلانا يعرف الطريق جيدًا, وسنكون على اتصال عبر جهاز اتصال لا سلكي.. يمكننا استعمال الهاتف المحمول لكني أخشى أن يستمع أحد للمكالمة.. هل لك أي ملاحظات على الخطة؟

لم يرد «وليد» لأنه كان شارد الذهن في ما يمكن أن يفعله بـ«سليمان».. هذا لو نجح في أن يجيء به حيًا.

***

– هل أنت جاهز؟

كان صوت الرجل يصل «وليد» عبر جهاز اللاسلكي.. فأجابه «وليد» بهدوء وثقة:

– نعم.. هل أقطع الآن؟

فجاءه الصوت هذه المرة بسرعة متوترًا:

- اقطع بسرعة.. ماذا تنتظر؟!

بدأ «وليد» في قطع الكثير من الأسلاك التي كانت مدفونة في الأرض بمقص خاص بقطع المعادن وهو يمسكه بعازل حتى لا تصعقه الكهرباء.. بدأت العزبة تظلم منطقة تلو الأخرى عندما سمع «وليد» تلك الخطوات الحذرة من خلفه.. كان «وليد» يرتدي السواد من رأسه حتى قدميه.. التفت «وليد» إلى القادم من خلفه ليرى فوهة المسدس في وجهه.. كان الرجل يستعد للضغط على الزناد.. لم يكن سيتكلم قبلها كما هو معتاد.

أمسك «وليد» بالمسدس من الرجل ولوى ذراعه فكسرها ثم هوى على الرجل بالمسدس فأفقده الوعي أو قتله لم يهتم كثيرًا للأمر.. على كل حال لو ظل ذلك الرجل حيًّا فلن يفهم الذي حدث بالضبط.. أنهى «وليد» عمله وصارت العزبة غارقة في ظلام دامس.. ثم انطلق في الظلام لا يراه أحد.. الليلة أول الشهر العربي فلن يكون هناك ضوء من القمر.. يحفظ «وليد» الخريطة عن ظهر قلب.. بعد لحظات جاءه صوت الرجل الخافت من جديد:

- أين أنت يا «ليونيد»؟

رد «وليد» على الرجل:

- ثوان وأصل عندك.

لمح «وليد» رغم الظلام الرجل الذي ينتظره في الركن الذي اتفقا أن يتقابلا عنده.. سأله الرجل عندما وقف إلى جواره:

- لماذا تأخرت في قطع الكهرباء؟

أجابه «وليد» دون أن يلهث على الرغم من أنه جرى مسافة طويلة:

- لقد قابلت أحد الرجال وتخلصت منه.

فهز الرجل رأسه مستحسنًا تصرفه وقال له:

- حسنًا فعلت.. سوف نشعل الحرائق الآن.

أخرج جهاز التفجير.. وبدأت الاحتفالات.. أصوات التفجيرات في كل مكان.. الرجال والنساء يهرعون من البيوت والعشش.. حتى البيت الذي يقطنه «سليمان».. الآن هما يعتقدان أن «سليمان» بمفرده في المنزل.. يصعد الرجل و«وليد» بسرعة.. باب الشقة مفتوح.. يسمع «وليد» الصوت.. صوت «سليمان» الذي يميزه من بين ألف صوت:

- ما الذي حدث؟ من بالخارج؟

يسمعان صوتًا آخر يرد عليه بقلق:

- أنا «هنية» يا معلم.

يهمس الرجل في أذن «وليد»:

- إنه ليس بمفرده.. احمله أنت وأنا سأتصرف مع السيدة.

تتبع «وليد» صوت «سليمان» حتى وصل إلى الغرفة.. أحس «سليمان» بوجوده فسأل ظنًا منه أنه «هنية»:

- ما الذي يحدث في الخارج يا «هنية»؟

أجابه «وليد» بغضب وهو يضربه على رأسه:

- أنا لست «هنية» أيها المغفل.. أنا الموت.

كان الرجل في الخارج قد ذبح السيدة من باب الاحتياط.. نزلا الدرج بسرعة.. كان الجميع مشغولين بإطفاء الحرائق التي انتشرت بالعزبة فلم يلحظهما أحد.. عندما وصلا إلى السيارة كبَّلا «سليمان» جيدًا وانطلقا به إلى المنزل.

***

كان «سليمان» يجلس مكبلًا على كرسي بينما يقف أمامه «وليد» وبجانبه الرجل.. لم يكن «سليمان» قد استعاد وعيه بعد.. همس الرجل بحماس في أذن «وليد»:

- ستفي بما وعدتني به.. أليس كذلك؟

نظر إليه «وليد» ولم يجبه فعاد يسأله فأشار «وليد» لـ«سليمان» وقال للرجل:

- لقد بدأ يفيق.

كان «سليمان» يتمتم بكلمات غير مفهومة.. صفعه «وليد» بقوة أعادت إليه كامل وعيه.. سأله «سليمان» برعب:

- أين أنا؟ من أنت أيها الجبان؟

أجابه «وليد» وهـو يقـترب بوجهـه مـن وجـه الرجـل حتـى تخالطت أنفاسهما:

– ألا تتذكرني؟

بالطبع لم يتذكره «سليمان» فعاد يسأله بخوف:

– من أنت؟

رد عليه «وليد»:

– أنا «وليد» صديق «شادي».. هل تتذكر «شادي»؟

عاد الرجل يسأله مذعورًا:

– «شادي» من؟ أنا لا أعرفك.

أمسك «وليد» بساطور وهو يرد عليه:

– «شادي» الذي أخذت كفه ثمنًا لإنقاذ حياة صديقه.

هم «سليمان» بقول شيء ما لكن الساطور كان قد نـزل بقـوة علـى كفـه.. صرخة الألم رجت القبو فملأ الرجل فم «سليمان» بقطعـة مـن القمـاش حتـى لا يخرج صوت الصراخ إلى خارج المنزل، خصوصًا أنه قد أصبح لهم جـيران.. أخـذ «سليمان» يتلوى على الكرسي حتى كاد يقع بـه علـى الأرض.. كـان «وليـد» قـد جهز إناء به زيت مغلي سكبه على الذراع الـتي طـارت كفهـا منـذ قليـل حتـى يوقف النزيف.. هو لا يريد موتًا سريعًا له.. بل يريد قتله ببطء.

دخل «سليمان» في غيبوبة جرّاء الألم.. اقترب الرجل من «وليد» وعاد يسأله في لهفة:

- ستفي بوعدك لي.. أليس كذلك؟

نظر «وليد» إليه بازدراء وقال له:

- سوف نرى.. سوف أذهب لأستريح الآن.

وتركه وصعد إلى غرفته متشوقاً إلى ما سيفعله بـ«سليمان» في الغد.

***

في الليلة التالية.. في القبو وقف «وليد» وبجانبه الرجل أمام جثة «سليمان».. نظر «وليد» إليها في أسى وقال بغيظ:

- لقد مات «سليمان».. أفلت من العذاب الذي كنت سأعذبه إياه.

قال له الرجل من جديد:

- سوف تفي بوعدك لي.

صرخ فيه «وليد» غاضبًا:

- كل ما يهمك وعدي لك.. لقد مات «سليمان».

رد عليه الرجل بغضب مماثل:

- لقد قمت بواجبي وأحضرته لك.. لقد كان بيننا اتفاق.. أحضر لك «سليمان» وتأخذ مكاني.. لقد اتفقت معهم.. وافقوا أن تحل مكاني.. لا تستطيع التراجع الآن.

رد عليه «وليد» بعناد:

- لن أحل مكان أحد.

نظر إليه الرجل بدهشة وقال له:

- بعد كل ما فعلته من أجلك؟!

فقال له «وليد» غاضبًا:

- كل ما فعلته كان من أجل نفسك.. لقد قتلت «شادي» حتى تحولني إلى وحش يرضاه أسيادك.. ما ذنب هذه الفتاة المسكينة التي صدمتها بالسيارة؟ هل تعتقد أنني لم أعرف أنك الفاعل؟ لقد حولتني إلى قاتل.. هذا ما صنعت مني.. آلة قتل لا تعرف الرحمة.

رد عليه الرجل صارخًا:

- العيب على والدك الذي تركك في الشارع, وتلك الفتاة كانت خطرًا علينا.

فقال له «وليد» بهدوء وهو يبتسم:

- إذًا فأنت قاتلها كما توقعت.. هل ترى يمكنني أن أعرف ما أريد دون استجواب.. وبالنسبة لوالدي, من قال إنني سوف أترك من ظلمني وطردني.. لقد علَّمْتَني كيف أعرف ما أريد.. كيف أنتقم ممن أريد.. استجوابي لا يمكن الكذب عليه.. سؤالي لا يمكن ألا يُرد عليه.. هل تعرف من سأقوم باستجوابه في المرة

القادمة؟

نظر إليه الرجل بخوف لم يشعر بـه منـذ سنوات ولم يـرد، فاستطرد «وليد»:

- أنت يا مُعلمي أقصر طريق لأتعلم أسرع وأكثر.

صرخ فيه الرجل بغضب:

- «ليونيد»!

اتخذ «وليد» وضعية قتالية وهو يرد عليه:

- اسمي هو «وليد» يا سيدي.. لقد صبرت كل تلك السنوات حتى أنـتقم من قاتلي «شادي»؛ «سليمان» مات ولم يبقَ سوى القاتل الآخر.. أنت يا معلمي.

ابتسم الرجل ثم تحولت ابتسامته إلى ضحكة مدويَّة وهو يقول:

- أنا فخـور بـك يـا «وليـد».. أنـت تـشعرني أنـني نجحـت إلى أقـصى درجة.. لقد نجحت أكثر مما كنت أتصور.

ثم أمسك سكينًا كبيرًا فتحفز «وليد» فقال له الرجل وهو ما زال يبتسم:

- لا تخف.. أنا لن أقاتلك.. أنا أعرف كيف صنعتك.. أنت أقـوى مـني وأصغر وأرشق وأخف.. سأخسر على كل حال.. لقد وعدتهم بسيد جديد صـغير حتى يتركوني أعيش في سلام ما تبقى لي.. لكن يبدو أن الأمر قد انتهى.

فجأة غرس الرجل الـسكين في بطنـه ثـم نـام علـى وجهـه علـى الأرض

ليخرج السكين الطويل من ظهره.. لم يستطع «وليد» منع نفسه من الإمساك بالرجل بين يديه.. قال له الرجل من بين أنفاسه الأخيرة:

- نصيحة يا بني.. لا تجعل أي شيء يتملكك مهما كان رونقه.

ولفظ أنفاسه الأخيرة بين يدي «وليد».. فترة من الصمت مرت على «وليد» وهو يجلس بمفرده وجثة الرجل بين يده.. لا يدري لماذا بكى.. هل يبكي من أجله أم لأنه تذكر صاحبه «شادي» الذي مات في المكان نفسه.. هل أحب الرجل رغم كل شيء؟!

# حكاية «ديمتري»

بدأ «وليد» في رسم دوائر بالطباشير حول جثة الرجل التي أصبح حولها بقعة كبيرة من الدم.. كان «ربيع» يقف إلى جانبه ويردد في خوف:

– ماذا ستفعل يا سيدي؟

لم يكن «ربيع» قد عرف بأمر انتحار الرجل إلا الآن.. أجابه «وليد» دون أن ينظر إليه:

– يجب أن أعرف حكاية هذا الرجل.

فقال له «ربيع» وهو يرتجف:

– وماذا ستستفيد يا سيدي؟ لقد مات وانتهى الأمر.

رد عليه «وليد» بإصرار:

– لكنه لم ينتهِ بالنسبة إلي.. يجب أن أعرف إجابات كل الأسئلة الحائرة.. يجب أن أعرف.

فسأله «ربيع» والدموع تترقرق في عينيه:

– وهل تعرف الثمن الذي يمكن أن تدفعه مقابل تلك المعرفة؟

أجابه «وليد» بإصرار:

– لم أعد أهتم لأي شيء.. يجب أن أعرف.

عاد «ربيع» يقول له:

- إجابات الأسئلة ربما لا تكون مريحة كما تعتقد.

أشار إليه «وليد» بالصمت وبدأ في عمل الطقوس بينما يقف «ربيع» يشاهده في خوف.. طقوس استجواب السيد الذي أسره لسنوات.

عليه الآن رسم الدوائر وتقطيع الجثة وتجميع الدماء, وأهم عضو هو القلب.. القلب الذي شعر بكل شيء.

بدأت الظلال تتحرك بالغرفة وسمع «وليد» صوتًا عميقًا لا يعرف هل يأتي من داخله أم خارجه يقول له:

- لقد مات معلمك.

رد «وليد» بثقة:

- أنا المعلم منذ الآن.

فهاجت الظلال مع رياح عاتية بالقبو قبل أن يبدأ كل شيء بالاختفاء.. بدأت جدران القبو تختفي من حول «وليد» وأول ما شعر به البرد.. وأول ما رآه اللون الأبيض المميز للثلج.

الثلج من حوله في كل مكان.

***

علم «وليد» أن الرجل يدعى «ديمتري».. ضابط بالمخابرات الروسية.. لقد بدأ «وليد» فجأة يفهم الروسية التي لم يسمعها من قبل.. كان «ديمتري» يسير

في أروقة مبنى المخابرات بحزم وصرامة.. الجميع يهابه.. الكل يعرف أن «ديمتري» سوف يكون له مستقبل باهر.. كان «ديمتري» يجيد اللغة الإنجليزية ويمكنه أن يتحدث بلكنة أمريكية.. هذا لم يكن شيئًا فذًا.. لكن الذي كان يميزه في جانب اللغات إتقانه اللغة العربية وتحدثه بالعامية المصرية.. لذلك كان هو المسؤول عن الملف الإسرائيلي في منطقة الشرق الأوسط. هذا الملف لا يمكن أن يعطوه سوى لرجل فذ مثل «ديمتري».

لكن كل هؤلاء الرجال القساة في أعمالهم تكون عندهم نقطة ضعف.. كانت نقطة ضعفه تسكن في سلام في الريف الروسي.. كانت له قريبة اسمها «إيرينا».. «إيرينا» تعني «السلام»، وقد كانت كذلك بالفعل.. لم يكن غريبًا أن تكون بيضاء مثل الثلج الذي تعيش فيه.. لكن الغريب رقتها المبالغ فيها.. إنها الصورة المثالية للريفية التي تسير في الحقول ومعها عنزتها أو بقرتها.. تسير بطريقة راقصة والأشجار من حولها تشاركها الرقص.

الذي يعرف «ديمتري» ستدهشه رؤيته وهو يخرج من بين الزروع لـ«إيرينا» ليفزعها وينعم برؤية ملامحها الرقيقة فزعة.. تقول له في ملامة:

- لماذا تفعل بي هذا يا «ديمتري».. سوف أشكوك لوالدتك.

فيرد عليها ضاحكًا:

- لكن والدتي تعرف ما أفعل.

فتعود لتقول له بلوم:

– عيب عليك أن تكون ضابطًا بالجيش وتفعل هذه الأفعال الصبيانية.

بالطبع لم تكن تعلم أنه ضابط في المخابرات.. يقول لها «ديمتري» ليخجلها:

– لكني لا أستطيع منع نفسي من رؤية وجهك الجميل وهو فَزِع.

احمر وجهها خجلًا.. رغم كل شيء ما زال هناك نفس القيم في كل ريف حول العالم.. قالت له:

– تكفيك فتيات موسكو.

فيقترب منها «ديمتري» وهو يقول:

– كل فتيات موسكو تحت حذائك يا حبيبتي.

فتجري «إيرينا» منه عائدة إلى بيتها.

***

يرى «وليد» المحطات الهامة فقط في حياة من يتم استجوابه لذلك اختفى الحقل فجأة من حوله ليجد نفسه في الكنيسة والقس يعلن «ديمتري» و«إيرينا» زوجًا وزوجة.. شعر «وليد» كيف كانت سعادة الرجل بذلك الزواج.. أخذ «ديمتري» زوجته إلى بيته على أطراف موسكو في حي هادئ وراق.. يفصله عن موسكو طريق قصير، لكنه ليس مأهولًا.

مرت الأيام بهما في سعادة.. لم يكن يؤرقه سوى تأخر الإنجاب.. كان يريد صبيًا يجعله ضابطًا مثله. عندما ذهب إلى الطبيب أخبره أن زوجته قادرة

على الإنجاب لكن العيب منه.. هناك حل.. عملية تخصيب صناعي.. فشلت العملية مرتين.. كاد اليأس يتملكه، لكن في المرة الثالثة نجحت.

- مبروك يا أستاذ «ديمتري».. لقد حدث الحمل.

لم يصدق «ديمتري» أذنيه وقال للطبيب:

- هل أنت متأكد؟! ماذا نفعل؟ يجب ألا تتحرك «إيرينا».. سوف أعود إلى المنزل حتى أبشرها.

عاد «ديمتري» إلى زوجته.. قفزت بين يديه من الفرحة فأمسك بها وهو يقول لها محذرًا:

- لا تتحركي.. منذ الآن سوف أحضر لك من يخدمك حتى تضعي طفلنا.

سألته زوجته وهي تُقبِّله:

- تريد صبيًا أم فتاة؟

فرد «ديمتري» على الفور:

- صبيًا.. سيكون اسمه «ليونيد» أي مثل الأسد.. لأنه سيكون كذلك.

وظل في انتظار الأسد على أحر من الجمر.

***

في المستشفى جلس «ديمتري» في قلق ينتظر خروج زوجته من غرفة العمليات.. خرجت الممرضة في البداية ومعها الطفل.. ذكر؛ كما أخبره الطبيب

منذ شهور.. سوف يسميه «ليونيد» كما أراد.. دخل «ديمتري» على زوجته التي بدأت تستفيق.. جلس إلى جوارها ومسح على رأسها وقال لها بحنان:

– كيف حالك يا «إيرينا»؟

ردت بصوت واهن:

– بخير.. كيف حال «ليونيد»؟

أجابها زوجها فَرِحًا:

– في أفضل حال.. سوف أبدأ تدريبه في الغد.

فضحكت زوجته وقالت له مداعبة:

– لماذا أنت متعجل هكذا؟

أجابها «ديمتري» بدعابة مماثلة:

– ليس أمامنا وقت.. يجب أن أجعل منه أفضل ضابط.

بدأت المشاهد تمر بسرعة من أمام عيني «وليد».. «ليونيد» يكبر بسرعة.. «ليونيد» ولد ذكي يتعلم بسرعة.. يلعب في النادي لعبة دفاع عن النفس.. يتقدم في دراسته.. يُقتل هو وأمه فجأة.

***

كما قلنا الطريق المؤدي إلى منزل «ديمتري» غير مأهول.. كان «ديمتري» في عمله و«ليونيد» ابنه مريض بعد أن أكل شيئًا ما فاسدًا.. اضطرت «إيرينا» للذهاب إلى الطبيب بمفردها.. تعود في سيارة أجرة كلمت زوجها وهي بها

وأخبرتـه بأرقـام لوحـات الـسيارة ثـم أعطـت هاتفهـا للـسائق الـذي تكلـم مـع «ديمتري».. لم تسمع «إيرينا» ما دار بين زوجها والسائق، لكنها فهمت مغـزى الكلام.. كان «ديمتري» يُعرِّف السائق بنفسه ويهدده بطريقـة غـير مباشـرة إذا فكر في اختطافهما.. كان «ديمتري» يخاف علـى ابنـه وزوجتـه إلى أقصى حـد، وكان قد عرض على زوجته أن يرسـل إليهـا سيارة بـسائق مـن العمـل، لكنهـا أخبرته أن الطفل يتألم وليس هناك وقت.

في الطريق كانت هناك سيارة مـن الواضح عليهـا أن سائقها مجنـون أو مخمـور.. سـائق الـسيارة الأجـرة يحـاول تفـادي الحـادث.. الأرض الزلقـة لم تساعده.. السائق المخمور لا يساعده.. تصطدم السيارتان.. ينـزل سـائق الـسيارة الأجرة في غضب يصرخ في وجـه الـسائق الثَّمِـل الـذي لم يكـن بمفـرده.. كـان في السيارة الأخرى أربعة من الشباب.. بالطبع لم يتحملـوا كـلام الرجـل فانهـالوا عليه ضربًا حتى الموت.. اختبأت الأم في الأريكة الخلفية.. ظلت تدعو ألا يراهـا أحد لكن دعاءها لم يُسْتَجَب.

***

وقف «ديمتري» في صمت وصلابة أمـام جثـة زوجتـه وطفلـه.. قـال لـه المحقق:

– أنـا أعـرف أن الموقـف مـؤلم، لكنـك تعـرف الإجـراءات.. يجـب أن تتعرف على الجثة بنفسك.

نظر إليه «ديمتري» وقال له بصوت لا يحمل أي تعبير:

- ما الذي حدث بالضبط؟

نظر إليه المحقق بقلق وقال بصوت متردد:

- ربما لن تريد أن تعرف...

فردد «ديمتري» بصوت أكثر صرامة:

- ما الذي حدث بالضبط؟

اضطر المحقق أن يجيبه:

- يبدو أن السيارة التي كانت تركبها زوجتك صدمتها سيارة أخرى.. من في هذه السيارة قتلوا السائق ثم خطفوا زوجتك والطفل وقتلوهما بعد...

سكت الرجل فسأله «ديمتري» بصرامة:

- بعد ماذا؟

أجابه المحقق:

- بعد أن اغتصبوها.

لم يبكِ «ديمتري» كما توقع المحقق، بل قال له بصوت لا يحمل أي مؤشر إلى رد فعل معين:

- هل أمسكتم بهم؟

أجابه المحقق:

- ليس بعد، لكننا سنصل إليهم على كل حال.

خرج «ديمتري» من المشرحة وهو يقول:

- سوف أجعلهم يتمنون لو كنتم أمسكتم بهم.

قالها بطريقة أخافت المحقق نفسه.

***

التحقيقات بطيئة.. المعلومات قليلة.. لن يصبر حتى يمسكوا بهم ثم يأتي كل واحد منهم بشهادة أنه مصاب بالعَتَه, فيُلقى به في مشفى فاخر لبعض الوقت ثم يتم الإفراج عنه بعد أن يتلقى العلاج الوهمي.. ولو كان من أبناء الطبقة الراقية فيمكن أن يكون الآن خارج البلاد.. هذا ما فعلته الشيوعية جعلت الجميع فقراء وخلقت طبقة حاكمة مستبدة معها كل شيء وتتمتع بكل شيء.. كيف سيعرف الفاعل؟ جاءته فكرة غريبة لكنه طردها من ذهنه.. فعادت الفكرة تهاجمه بإلحاح.

هناك رجل يقال إنه ساحر.. بالطبع يوجد الكثير من النصابين في هذا المجال، وهم أفضل من الذين يكونون سحرة بالفعل.. لكن هذا الساحر يقوم بعمل بعض الأشياء الغامضة ومتورط في قضايا قتل.. وصل الأمر إلى حد أن المخابرات تراقبه.. يظنون أن هناك يدًا أمريكية في الأمر.. الروس عندهم حساسية من كلمة أمريكا.. حتى هذا الساحر البريء الذي يقوم باستجواب الموتى يعتقدون أن له علاقة بأمريكا.

تنكر «ديمتري» لأنه يعرف أن الساحر مُرَاقَب.. ذهب إلى الحي الفقير الذي يجلس فيه ذلك الرجل يقرأ فيه الطالع.. كان مكتبه عبارة عن عربة متنقلة.. جلس «ديمتري» أمامه فسأله الرجل:

- «أوراق تاروت» أم قرآءة كف؟

كان الرجل أسود الوجه والشعر والعينين.. ليس زنجيًا، بل كأنه متفحم.. رد عليه «ديمتري»:

- أريد أن أعرف معلومة من طفل ميت.

نظر إليه الرجل بتوتر وقال له:

- لا أعرف ما الذي تتحدث عنه.

نظر «ديمتري» في عينيه وقال له:

- لا أنت ولا أنا نملك الوقت.. أنا ضابط في المخابرات.. أنت مُرَاقَب يمكن أن يقبضوا عليك في أي وقت.. هناك من قتل زوجتي وابني وأريد أن أعرفه.

فسأله الساحر بسرعة:

- وما المقابل؟

أجابه «ديمتري» على الفور:

- سوف أساعدك على الهرب.

فقال له الساحر وهو يهز يده:

- بل أريد شيئًا آخر.. أن تأخذ العهد عني.

***

أول من قام «ديمتري» باستجوابه ابنه «ليونيد».. أخرج جثته من المقبرة بعد دفنه وبدأ في القبو مع الساحر بعمل طقوس الاستجواب.. وشاهد ما شاهده الطفل.. عرف المكان الذي تم احتجازه هو وأمه به.. شاهد زوجته وهم يتناوبون الاعتداء عليها حتى ماتت.. شاهد السكين وهي تقترب من رقبة «ليونيد».

عندما أفاق «ديمتري» كان في حالة مزرية.. قال له الساحر:

- لقد وعدتني أن تأخذ العهد.

فرد عليه «ديمتري» بهدوئه المعتاد:

- أعطني الكتاب.

فأعطاه الرجل كتابًا قديمًا ملفوفًا في قطعة قماش بالية.. أمسك «ديمتري» بالكتاب وقال للرجل:

- سوف آخذ العهد وأريحك.

أخذ «ديمتري» الكتاب من الرجل وفتحه.. كان مكتوبًا بلغة أشبه بالهيروغليفية.. لم يفهم «ديمتري» شيئًا، فنظر إلى الساحر وقال له:

- كيف سأقرأ هذا الكتاب؟

أجابه الساحر:

- هناك بعض الطقوس يجب أن نقوم بها, ويجب أن تتعلمها جيدًا.. ساعتها سوف تكون أنت سيد هذا الكتاب الجديد.. خادم الكتاب سوف يظل في خدمتك ما دمت تحافظ على عهدك معهم وعلى الطقوس التي سوف تتعلمها.

نظر «ديمتري» إلى الكتاب بانبهار ثم سأل الساحر:

- لماذا تريد أن تتنازل عن كل هذه القوة؟

رد عليه الساحر:

- سوف تعرف في يوم ما.. الآن يجب أن تتعلم بسرعة فليس أمامك وقت كما أخبرتني.

لم يستغرق الأمر سوى بضعة أيام حتى تعلم «ديمتري» الطقوس.. بعدها بدأ ذلك الصوت يتردد في ذهنه يطلب منه أن يتخلص من الساحر.. ولم يتركه حتى قتله.

ظل بعد ذلك «ديمتري» لأيام يبحث عن المكان الذي رآه في استجواب «ليونيد» بعد أن أعاد جثتة إلى مكانها.. وجد كوخًا جبليًّا ظن أنه هو.. جلس في سيارته يراقبه حتى وجد ذلك الشاب يدخله.. إنه أحدهم.. يبدو أنه صاحب الكوخ وأول من اعتدى على زوجته.. كان شابًا صغيرًا يحمل في يديه حقيبة بها الكثير من زجاجات الخمر.. يبدو أن هناك حفلًا في هذا الكوخ في الليل.. لا يعلم الشاب أنه سيكون حفلًا من نوع آخر.. سوف ينكر كل شيء في البداية.. لكن

«ديمتري» حضَّر له طريقة حتى يعرف منه كل ما يريد ويُرغمه على استدراج شركائه في الجرم.

لا.. ليس الاستجواب.. إنها طريقة أخرى تجعل الاستجواب أرحم بكثير.

***

وصلت الشرطة بعد أن أبلغت أسر الشبان الأربعة عن اختفائهم فأوصلها بحثها إلى ذلك الكوخ الذي استأجره أحدهم دون عِلْم أسرته.. كانت الرائحة النابعة من الداخل لا تطاق.. من الواضح أنهم سوف يجدون جثثهم بالداخل وربما تكون متعفنة.. لكنهم عندما دخلوا وجدوا أكثر من ذلك بكثير.

كانت جثثهم مربوطة في كراسي بجانب بعضها.. اعتقد الشرطي أنها غارقة في الدماء لكنه عندما اقترب منها فهم سبب ذلك اللون الأحمر الذي يكسو الجثث بالكامل.

لقد سلخ «ديمتري» جلودهم أحياء.. سلخهم ومن لم يمت منهم ترك تلك الفئران الجبلية تقوم باللازم.. سلخهم وأكملت الفئران المهمة.

تقيأ معظم رجال الشرطة وتركوا الكوخ عندما رأوا ذلك المشهد.. في ذلك الوقت كان «ديمتري» يركب الطائرة بجواز سفر مُزَوَّر إلى إحدى الدول الأوروبية ومنها إلى مصر.. الكتاب هو الذي أخبره بتلك الطريقة في الانتقام، ويريد منه بعض الأغراض الأثرية ليعيد إليه ابنه.. خادم الكتاب أوهمه أنه

يمكنه إعادة ابنه إلى الحياة.

***

عندما وصل «ديمتري» إلى مطار القاهرة لم يكن يحمل هم أي شيء.. لقد أتى إلى مصر عدة مرات، بل معه هوية مصرية مُزَوَّرة ورخصة قيادة.. المال الذي معه سوف يكفيه حتى تساعده الشياطين الحارسة للكتاب.. استأجر غرفة في إحدى «اللوكاندات» الشعبية بالهوية المصرية.. لم تقف ملامحه الأجنبية عائقًا أمامه، خصوصًا أن هناك مصريين على هذا القدر من الوسامة.. ليسوا كثيرين لكنهم موجودون.. جلس في الغرفة القذرة وفتح الكتاب الذي يشرح مكان وجود الكأس والخنجر اللذين يحتاجهما «ديمتري» ليعيد ابنه إلى الحياة.. سوف تتلبس روحه أي جسد يختاره هو.

***

فهم «وليد» الآن ما الذي كان يفعله الرجل.. كان يحاول أن يجعل روح ابنه تتلبس جسده هو.. عرف أيضًا أن الرجل قتل «شادي» متعمدًا؛ لأنه كان يرى أن «شادي» يمكن أن يثني «وليد» عن أخذ العهد الذي كان «ديمتري» ينوي نقله إليه.. «ديمتري» أيضًا هو من قتل الفتاة ابنة الحارس ظنًا منه أن «وليد» يحبها.

# رد الجميل

أفاق «وليد» ليجد أن الصبح قد طلع و«ربيع» يجلس خارج الدوائر يجاهد النوم.. مشي «وليد» مترنحاً إليه ليقول له:

- لقد عرفت كل ما أريد أن أعرف عن هذا الرجل.

فسأله «ربيع»:

- هل ارتحت الآن؟

فأجابه «وليد» بيأس:

- يبدو أنني لن أرتاح أبدًا.. تخلص من جثة سيدك.. هل تعرف أن اسمه كان «ديمتري»؟

رد عليه «ربيع» بسرعة:

- لا أريد أن أعرف أي شيء.. أريد فقط أن أرحل من هنا.

فقال له «وليد» بثقة:

- سوف ترحل بعد أن ننجز كل المهام.

***

لم يكن من السهل الوصول إلى بيت «شادي».. كان «شادي» قد أخبره ذات مرة بالعنوان لكنه لم يتذكره بالضبط.. لكنه كان يتذكر عندما استجوب

صديقه أنه رأى بعض الأماكن التي قد ترشده إلى المكان.. لكن ذلك كان منذ سنوات والأماكن تتبدل وتتغير.. كان هناك ذلك السور الأثري.. يعبر الطريق إلى تلك الحارة الضيقة.. ثم هل ينعطف يمينًا أم يسارًا؟ ينعطف يمينًا ويمشي كثيرًا ثم يعرف أنه كان على خطأ فيعود أدراجه لينعطف يسارًا فلا يجد أي شيء يعرفه.. يشعر بالتعب فيعود إلى المنزل ليكمل في الغد.

ظل على هذا الحال عدة أيام، وفي كل يوم يقترب أكثر من المنزل المنشود.. وصل إلى منزل ظن أنه هو.. كان تحت البيت مقهى والمقهى خير مكان تسأل فيه عمن تريد.

جلس ونادى النادل.. طلب منه شيئًا لا يتذكره وجلس يتأمل الناس في فضول.. منذ سنوات وهو محبوس في ذلك العالم.. نظر إلى طفل يمسك بيد والده.. الطفل يبكي في مرارة يريد لعبة معلقة في أحد المحال الفقيرة المواجهة للمقهى.. الأب يحاول أن يقنع الطفل أن هذه اللعبة سيئة ولا طائل من شرائها، لكن الطفل مصمم.. بعد مداولات مع الأم تدخل الأسرة إلى المحل لتخرج باللعبة.. لم يستطع «وليد» منع نفسه من التفكير في والده.. تُرى أين هو الآن؟ هذا الطفل يمكن أن يصبح «شادي» أو «وليد» أو أي أحد آخر إذا ما فقد الأب عقله فجأة مثل والده.. وعاد السؤال الذي ألح عليه من قبل, يلح عليه من جديد: لماذا تركني والدي؟!

أخرجه النادل من تأملاته وهو يضع الكوب أمامه.. وعندما أراد النادل

أن ينصرف استوقفه «وليد» وقال له:

– بعد إذنك.. أريد أن أسألك سؤالًا.

فرد عليه النادل بسرور:

– مائة سؤال.. تحت أمرك يا بيه.

فسأله «وليد»:

– هل يسكن في هذا المنزل رجل يدعى «عبد الحميد»؟

فكر النادل قليلًا ثم رد عليه:

– بصراحة أنا أعمل هنا حديثًا.. يمكنك أن تسأل المعلم.

نظر «وليد» حيث أشار النادل فعرف لماذا يجب أن يسأل المعلم.. هذا الرجل الطاعن في السن بالتأكيد يعرف تاريخ كل من بالحارة.

وقف «وليد» بأدب أمام الرجل وقال له:

– بعد إذنك يا معلم أريد أن أسألك عن شيء ما.

رد عليه الرجل العجوز بصوت واهن:

– تفضل اجلس أولًا يا بني.

جلس «وليد» إلى جواره وسأله نفس السؤال الذي سأله للنادل، فرد عليه المعلم وهو يفكر:

– «عبد الحميد».. «عبد الحميد».. «عبد الحميد» من؟

فعرف «وليد» أن الرجل لا يعرف أي شيء لكنه رد عليه من باب الواجب:

- «عبد الحميد» الذي كان له ابن اسمه «شادي».

فرد الرجل على الفور:

- «شادي» الهارب؟!

تحفز «وليد» ورد عليه:

- نعم هو.. هل هو في هذا المنزل؟

أجابه الرجل:

- ما الذي ذكّرك به الآن يا بني؟ هل كان عليه مال لك؟ استعوض ربنا.. لقد مات منذ سنوات.. وقع من فوق السلم وهو مخمور في إحدى الليالي ومات.. ربنا يحسن ختامنا.

فعاد «وليد» يسأله:

- وأين زوجته وأولاده؟

أجابه الرجل:

- إنها لا تزال بالشقة، لكنها سيدة مسكينة لن تقدر على رد الدّين.. إنها تعمل خادمة في البيوت هي وابنتها.. «شادية» ابنتها تريد الزواج ولا تستطيع تجهيز نفسها.. حتى الولد الصغير لم يذهب إلى المدرسة حتى الآن..

أنا لا أعرف هل هو في سن المدرسة أم لا.. أنت تعرف، كل شيء يتغير وكل يوم نظام جديد.. أستاذ أين أنت يا أستاذ؟

كان «وليد» قد تركه وانطلق إلى البيت الذي قابل أحد سكانه على بابه فسأله عن شقة أم «شادية» فأخبره الرجل بمكانها.. قفز الدرج مسرعًا حتى وصل إلى باب الشقة فدق الباب ليفتح له الباب طفل صغير.. كان يشبه «شادي» بشدة أو هكذا ظن.. سأله «وليد»:

- هل ماما موجودة؟

رد عليه الولد:

- نقول لها مَن؟

لم يعرف «وليد» ماذا يقول لكنه سمع صوت السيدة قادمًا من الداخل يسأل الولد عن الواقف بالخارج.. ظهرتِ أمامه والدة «شادي» وسألته وهي تبتسم ظنًّا منها أنه سوف يرسلها لتنظيف إحدى الشقق:

- تحت أمرك يا بيه.

نظر إليها «وليد» بحب وسألها:

- هل أنت والدة «شادي»؟

اتسعت عيناها وتجمعت فيهما الدموع وأمسكت بكتفه وهي تقول:

- أين هو؟ هل تعرف طريقه؟

ثم تذكرت أن يدها لم تكن نظيفة فمسحتها في ثيابها ثم مسحت ثيابه وهي تردد:

- لا تؤاخذني يا بني.. تفضل.

دخل «وليد» ليجد الصالة فارغة إلا من طاولة صغيرة حولها أربعة كراسي.. جلس «وليد» على أحدها وجلست الأم أمامه تسأله بلهفة:

- أين «شادي» يا أستاذ؟

لم يدرِ «وليد» بماذا يجيبها.. كانت صورة «شادي» معلقة على أحد الجدران فاطمأن قلبه لأنه تأكد أنه لم يخطئ الشقة، مع أن لهفة السيدة كانت كفيلة بإثبات أنها أمه.. رد عليها:

- هو بخير.. إنه يعمل في إحدى الدول بالخارج.

عادت الأم تسأله:

- لماذا لم يأتِ معك؟

أجابها «وليد» والكذب ينضح من لهجته:

- هو لن يستطيع أن يأتي الآن.. لكنه أرسلني في مهمة.

قالت له السيدة وهي تبكي كأنها لم تسمعه:

- قل له إن والده قد مات.. من كان يعذبه ويعذبنا قد مات.. أنا الآن في أَمَسِّ الحاجة إليه.

رد عليها «وليد»:

– لذلك هو أرسلني.. لأنك في أَمَسِّ الحاجة إليه، لقد سمعت أن ابنتك على وشك الزواج.

أجابته السيدة وهي تحاول أن تتوقف عن البكاء:

– نعم.. ربنا يعيننا.

قال لها «وليد»:

– لقد قدم لي «شادي» خدمة مهما فعلت لن أقدر على تعويضه.. لذلك أريدك أنت وابنتك وابنك في الغد أن تذهبوا معي إلى البنك.

سألته السيدة بدهشة:

– وماذا سنفعل في البنك؟

أجابها «وليد»:

– سوف نضع وديعة لكل واحد منكم باسمه تمكنه من الإنفاق على نفسه والعيش منها حياة كريمة.

لم تفهم السيدة كلام «وليد» فسألته والدهشة لم تفارقها:

– ماذا تعني الوديعة هذه؟

فكر «وليد» قليلًا ليجد طريقة مبسطة يفهمها بها فقال لها:

– سوف نضع لكل واحد منكم مبلغًا من المال لن يستطيع استرداده في

القريب.. لكن لو تركه في البنك فسوف يحصل على أرباح تكفيه طوال عمره.

عادت السيدة تسأله في دهشة:

– وماذا ستستفيد حضرتك من ذلك؟

أجابها «وليد» وهو يبتسم بألم:

– أحاول رد الجميل الذي فعله لي «شادي».

بكت السيدة وحمدت الله وهي تقول لـ«وليد»:

– لقد أرسلك الله إلينا.. الحمد لله.. لقد أنهكتني خدمة البيوت.. كل ما أريده من الحياة أن أزوِّج البنت، والولد يتعلم أي صنعة.

ابتسم «وليد» وسألها:

– ماذا يعمل خطيب ابنتك؟

أجابته السيدة:

– عامل في ورشة نجار.. ولد ابن حلال وشديد الطيبة.. أشفق على حالنا وأراد أن يستر ابنتي.. ربنا يكرمه.

سألها «وليد»:

– هل هو صانع ماهر؟

أجابته السيدة بفخر:

– يده تُلف في الحرير.

فقال لها «وليد»:

– حسنًا.. سوف نفتح له ورشة شراكة بينك وبينه.

نظرت إليه السيدة في ذهول فاستطرد:

– بالنسبة للولد يجب أن يدخل أفضل مدرسة.

سألته السيدة:

– كيف سيدخل المدرسة؟ لقد تخطت سنه سن الالتحاق بالمدرسة!

رد عليها «وليد» مطمئنًا:

– لا تخافي سوف أتصرف في هذا الأمر.

عادت السيدة تسأله بحيرة:

– ما الخدمة التي قدمها لك «شادي» بالضبط؟

فأجابها «وليد»:

– ألم أقل لك إنه قد أنقذ حياتي.

وبالطبع لم يقل لها الثمن الذي دفعه «شادي» لإنقاذه.

***

بالنسبة لبيته فقد وصل إليه «وليد» دون عناء فهو يحفظه عن ظهر قلب.. وقف أمام المنزل الذي تركه منذ سنوات.. تركه وذهب إلى والده الذي يعيش بمفرده وعلى الرغم من ذلك طرده.. ما زال السؤال يحيره.. لماذا فعل به

والده هذا؟! تعب من كثرة ما ألقى ذلك السؤال على نفسه دون فائدة.

وقف «وليد» أمام المنزل بعد أن ترك السيارة في مكان بعيد.. ظل يفكـر: هل يصعد إلى أمه أم من الأفضل أن ينتظر بالشارع.. إنـه لا يعـرف كيـف أصبح شكل أخته الآن.. لو كان يعرف لانتظرها وعرف منها أخبار أمها.. هو لا يريد تقديم المساعدة لأمه دون معرفة أحوال «بهجت»، زوج أمه.. لقد كان ينفق معظم أمواله على المخدرات.. هل ما زالت أمه على ذمته؟ وبينما هو على ذلـك الحـال رآها تخرج من المنزل.

كانت أمه ومعها شابة صغيرة.. هذه بالتأكيد «هنـد» أختـه.. لم يـتردد «وليد» في المشي خلفهما.. كان يريد أن يجري إلى أحضان أمه.. لقد ذبل جمالها.. داسته قسوة الأيام الـتي عاشـتها.. شـاخت مبكـرًا.. تمامًـا مثلـه.. ظـل «وليـد» خلفهما.. كانتا في طريقهما إلى الـسوق لـشراء الخـضار و«وليـد» لا يرفـع عينيـه عنهما.. لاحظ أن أخته نظرت نحوه أكثـر مـن مـرة وهمـست في أذن أمـه.. لقـد لاحظت أنه يراقبهما.. آثر «وليـد» الاختفـاء فعـاد إلى مكـان قريـب مـن المنـزل وانتظرهما.

عادت الأم ومعها ابنتهـا إلى المنـزل، لكنهـا كانـت ككـل الأمهـات قـد نسيت شراء شيء ما، فنزلت «هند» بمفردها هذه المرة لشرائه، وكانت تلك هي فرصة «وليد» التي لن يضيعها.. اقترب من أخته وقال لها متسائلًا:

- «هند»؟

التفتت إليه أخته وصرخت فيه بطريقة جعلت بعض المارة يقفون لتفقد الأمر:

- احترم نفسك يا حيوان.. أنا رأيتك في السوق وأنت...

فقاطعها «وليد» بسرعة قبل أن يتجمع حولهما المزيد من المارة:

- أنا «وليد» أخوك.

نظرت إليه «هند» بعدم فهم غير مصدقة فاستطرد هو بسرعة:

- لقد تركت البيت منذ سنوات بسبب «بهجت» زوج أمك.

أصابتها حالة هستيرية لم يكن يعرف هل هي تضحك أم تبكي أم كلاهما.. فقال لها:

- إلى أين أنتِ ذاهبة؟

ردت عليه وهي شاردة الذهن:

- كنت ذاهبة إلى السوق لشراء الملح، فقد نسيته أمك كعادتها.

فقال لها «وليد»:

- تعودين إلى السوق مخصوص من أجل الملح.. لماذا لا تشتريه من أي بقال؟

أجابته «هند» بخجل:

- في السوق يبيعونه أرخص.

فعلم «وليد» أنهم في فاقة وضيق حال، فقال لها:

- دعكِ من الملح الآن سوف أشتريه أنا لك.. كيف حالكما؟

هزت رأسها وقالت:

- الحمد لله على كل حال.

شعر «وليد» من طريقة إجابتها أنهما ليستا على ما يرام فعاد يسألها:

- هل ما زال «بهجت» يعيش معكما؟

هزت رأسها بالإيجاب وهي تردد في حسرة:

- للأسف.

فقال لها «وليد» وهو يتلفت حوله:

- على كل حال لن أستطيع الحديث معك الآن.. سوف أشتري لك الملح وعودي الآن حتى لا تتأخري، لكن لا تخبري أمي أنك قابلتني لأني لن أستطيع مقابلتها الآن.."أريد أن أقابلك في مكان ما حتى نتحدث بلا قلق.

اتفقا على المكان الذي سيقابلها فيه والموعد لكنها قالت له قبل أن ترحل:

- لكنك تبدو أكبر بكثير مما توقعت.

فرد عليها باسمًا:

- مما رأيت يا «هند».. مما رأيت.

وانصرف باسمًا يشعر بأنه يعود إنسانًا بالتدريج.

***

أخبرت «هند» أمها أنها ذاهبة لحضور زفاف إحدى صديقاتها في المصنع الذي تعمل به أحيانًا لسد حاجتهما, وذهبت إلى المكان الذي حدده لها «وليد»، وكان ينتظرها فيه بالسيارة.. ركبت معه السيارة وهي تقول له في ذهول:

– ما شاء الله يبدو أن ربنا فتح لك من واسع.

ابتسم «وليد» وقال لها:

– ومنذ اليوم لن تحتاجي إلى أحد.. لكن المهم لا تخبري أحدًا بوجودي حتى أطلب منك ذلك.

سار «وليد» بالسيارة حتى وصلا إلى مطعم راقٍ في مكان منعزل.. نزلا من السيارة ودخلا المطعم.. كان من ينظر إليهما يعتقد أن «وليد» يقوم بخداع تلك الشابة الصغيرة الساذجة بملابسها المتواضعة الفقيرة.. جلسا إلى منضدة فسأل «وليد» أخته:

– ماذا ستأكلين؟

ردت عليه في خجل:

– أنا شَبِعَة.

ابتسم «وليد» وقال لها:

– حسنًا سوف أختار لك أنا.

طلب «وليد» الكثير من الطعام رغم أنه لن يأكل، فقالت لـه أختـه بعـد ـاب النادل:

- لكن هذا كثير.

فرد عليها:

- لا يهم سوف تأخذين ما سيتبقى منـك.. قـولي لأمـك إنـه مـن طعـام زفاف.

فقالت له ضاحكة:

- وهل يقدمون في مثل هذه الحفلات المتواضعة مثل هذا الطعام الفاخر؟

فأجابها «وليد» بعدم اكتراث:

- لن تلحظ أمك.. لقد لاحظتُ أنها تبدو متعبة، ما الذي حل بها؟

اختفت الابتسامة من وجه أخته وقالت له:

- من الذي تراه من زوجها.

فسألها «وليد» بحزن:

- هل ما زال «بهجت» على سابق عهده لم يتغير؟

ردت عليه «هند»:

- بل ازدادت حالته سوءًا.. لقد أصبحا في عراك مستمر.

فسألها «وليد»:

- وما السبب؟

أجابته «هند» بخجل:

- إنه يضايقني.

فهم «وليد» ما الذي تريد أخته قوله لكنه سألها:

- كيف يضايقك؟

لم ترد أخته وظهر الخجل عليها فتأكدت شكوكه وأحس بنار الغضب تتأجج في داخله، لكنه أظهر برود أعصاب، وقال لها ليغير الموضوع:

- هل سمعتِ أي شيء عن والدنا؟

فأجابته «هند» بعد أن مصمصت شفتيها:

- ذهبتُ إليه منذ فترة طويلة، كان هناك من تقدم لخطبتي، بالطبع لم تنجح الخطبة, المهم عندما ذهبت إليه كان في حالة مزرية.. لم يدفع إيجار الشقة التي يسكن فيها بمفرده منذ فترة طويلة.. طال شعره ولحيته بطريقة غير طبيعية.. ذهب عقله تقريبًا.. سمعت أن أولاد الحلال نقلوه إلى مستشفى المجانين حتى لا يُرمى به في الشارع.. وجدوا له واسطة حتى قبلوه فيه.

لم يشعر «وليد» بالشفقة عليه، بل شعر بخسارة فرصته في معرفة إجابة السؤال الذي حيَّره.. لماذا تركهم وصار على هذا الحال.. استطرد «وليد» في كلامه بسؤاله عن زوج أمه:



– هل ما زال «بهجت» يعمل نقاشًا؟

هزت «هند» رأسها وأجابت:

– نعم.. هو لا يعرف غير ذلك.

فعاد يسألها:

– هل معك رقم هاتفه؟

فأجابته بترقب:

– أنا أحفظه بالطبع.. لكن لماذا تريده؟

كان النادل قد وصل بالطعام فسكتا حتى وضع الطعام أمامهما وذهب فاستطرد «وليد» بهدوء:

– هاتِ رقمه وكُلي.. أظنه لن يضايقك بعد اليوم.

وعلى الرغم من هدوئه فإنه كان من الواضح أنه ينوي فعل شيء ما بـ«بهجت».. الذي كان يضايق أخته.. كان.

***

رن جرس هاتف «بهجت».. كان رقمًا غريبًا والأرقام الغريبة في الغالب يكون معها أعمال جديدة.. سمع صوتًا وقورًا من الطرف الآخر يسأله:

– آلو.. المعلم «بهجت»؟

فرد متسائلًا:

- من معي؟

أجابه صاحب الصوت:

- أنا دكتور «حسام» عندي فيلا أريد أن أجدد طلاءها.

شعر «بهجت» بالسعادة فالفيلا تعني العمل لفترة طويلة، فرد عليه بفرح:

- تحت أمرك يا بيه.. لكن أين هي؟

أجابه صاحب الصوت بجدية:

- سوف أقابلك بالسيارة في أقرب مكان وآخذك معي لتراها.

كان «بهجت» طماعًا ويحب المساومة، فقال له:

- لكن يا بيه لو كانت بعيدة...

قاطعه صاحب الصوت بصرامة:

- لن نختلف على أي شيء.. لا يهمك المال.. أنا تحت أمرك.

شعر «بهجت» بالراحة النفسية ورد بفرح:

- حسنًا.. أين نتقابل لرؤيتها؟

***

ظل «بهجت» يدور في المنزل ويتفق مع «وليد» على ما سيقوم به لتجديده.. بالطبع لم يتعرف عليه.. بعد أن انتهى من معاينة المنزل قال له

«وليد»:

– استرح الآن قبل أن أعيدك.. لقد نسيت أن أقدم لك شيئًا تشربه.

فرد عليه «بهجت»:

– متشكر يا بيه ولا أي شيء.

فقال له «وليد» مُصِرًا:

– لا.. يجب أن تشرب أي شيء.

فرد عليه «بهجت» وهو يضحك بلا سبب واضح:

– حسنًا أي شيء مثلج، فالجو حار.

عاد «وليد» إليه بالشراب فبدأ بشربه وهو يقول:

– لكن يا بيه ما الذي رماك في هذه المنطقة المقطوعة التي يُقتل فيها القتيل ولا يسمع عنه أحد أي شيء؟

فرد عليه «وليد» وهو يبتسم:

– وهذا هو المطلوب.. فأنا أحب الهدوء.

نظر «بهجت» إلى باب القبو وسأله:

– إلى أين يؤدي هذا الباب؟

أجابه «وليد»:

– إلى القبو.. سوف تراه عندما تنتهي من شرب العصير.

عندها أحس «بهجت» بالدوار ووقع الكوب من يده.

لن يفتقده أحد.. لن يسأل عنه أحد.. سوف يختفي «بهجت» من حياة والدته إلى الأبد.

***

لم يجرؤ «بهجت» على العودة إلى بيت والدة «وليد» مرة أخرى.. أرسل إليها ورقة طلاقها عن طريق القسم ولم يظهر في الشارع مرة أخرى.. لكن هناك رجل كان يسكن بالقرب من منزل والدة «وليد» كان يعرف «بهجت»، رآه مصادفة يقول إنه قد تغير فجأة.. شاب شعره وتبدو عليه علامات الريبة.. كان يتلفت حوله وهو يسير ويظن ذلك الرجل أن «بهجت» قد فقد بعض أصابعه.. تعجب الرجل للتحول الذي حدث لبهجت فجأة.. أصابه الهزال وتحول إلى إنسان آخر.. هذا على أساس أنه كان إنسانًا من البداية.

# إجابة قاسية

بعد أن طلَّق «بهجت» والدة «وليد».. أرسل «وليد» «ربيع» إلى أمه.. كان «وليد» قد بذل مجهودًا هائلًا حتى يُعيد «ربيع» إلى مظهر شبه آدمي.. أخبر «ربيع» والدة «وليد» أنه يعمل في إحدى الدول بالخارج.. كان «وليد» قد اتفق مع أخته ألا يخبرا والدته بوجوده حتى ينتهي من بعض المسائل العالقة.. مثل مسألة الكتاب الذي وجده «ديمتري» وهو الآن في حوزته ويقرأ فيه ليل نهار.. ولا يعرف كيف يتخلص منه.. لقد وجد ذلك الكتاب مخبأً في أحد أركان القبو، حيث إن «ديمتري» لم يكن قد أخبره بأي شيء عنه بعد.

كان «وليد» قد أنهى كل إجراءات البنك لا ينقص سوى ذهاب أخته وأمه بصور هويتهما ليصبح مستقبلهما آمنًا ماديًا.

هكذا تفرغ «وليد» للبحث عن والده حتى يعرف إجابة السؤال الذي حيره لسنوات.

***

«فؤاد» المرض سيئ السمعة بالمستشفى.. لو كان هناك جائزة أكثر ممرض سيئ السمعة لحصل عليها دون منازع.. لم يُضِع «وليد» الوقت في محاولات قديمة للتعرف عليه.. انتظره على باب المستشفى بالسيارة.. عندما رآه خارجًا من المستشفى نزل من السيارة وسأله:

- «فؤاد»؟

أجابه الرجل الضخم بصوت أجش:

- تحت أمرك يا بيه.

أشار إليه «وليد» وقال له بلهجة آمرة:

- أريد أن أتحدث معك قليلاً في السيارة.

لم يجد الرجل الوقت كي يعترض وقد شعر أن في الأمر شيئًا غير مشروع مما يعني الكثير من المال.. ركب الرجل السيارة مع «وليد» وانتظر أن يتكلم.. بعد فترة من الترقب قال له «وليد»:

- كم الثمن الذي تريده لتساعدني في تهريب أحد النزلاء؟

هاج الرجل وقال له:

- كيف تطلب مني هذا الطلب؟ أنا...

أخرسته لكمة «وليد» التي كادت تفقده الوعي وأحس أن الدنيا دارت به.. قال له «وليد» بصرامة:

- لو رفعت صوتك مرة أخرى فسوف أقطع لك لسانك.

تحول الرجل رغم ضخامته إلى ما يشبه الهرِّ الخائف وتكور في مقعده وهو يقول:

- يا بيه لو قمنا بتهريب أحد المحكومين عليهم في قضية من القضايا

ويدَّعون الجنون فسوف تنقلب علينا الدنيا.. أنا ممكن أدخل له ما تريد.. أدخلك لتراه.. لكن تهريبه!

فقال له «وليد» مطمئنًا:

– ومن قال لك إنني أريد تهريب أحد المحكومين عليهم؟ أنا أريد تهريب مجنون عادي كان في الشارع وستعيده أنت إليه.. مجنون عادي ليس مهمًا.. مجنون لن يبحث عنه أحد.

فسأله الرجل بحيرة:

– وماذا ستستفيد يا بيه؟

نظر إليه «وليد» نظرة غاضبة ولم يرد، فقال له الرجل خائفاً:

– من دون ضرب.. أنا تحت أمرك.. لكن الأمر سيتكلف الكثير.

فرد عليه «وليد» بإصرار:

– المهم أريده في أقرب وقت.

***

كان والده في عالم آخر.. لم يتخيل «وليد» الصبي الصغير الذي كان يلعب مع هذا الرجل في يوم من الأيام أن يقوم بعمل طقوس سحرية ليعرف منه إجابة سؤال واحد فقط.

ربط «وليد» والده الذي كان كثير الحركة قبل أن يقوم بتخديره.. قال له «ربيع» – الذي كان معه في القبو – بغضب:

– لقد تخطيت كل الحدود يا سيدي.. إنه والدك على كل حال.. هل ستقتل والدك؟

أجابه «وليد» وهو يمسك بكتاب «ديمتري»:

– لا تخف يا «ربيع» ما زال عندي بعض الشفقة التي لا أستطيع التخلص منها.. لقد وجدت في هذا الكتاب طريقة استجواب للأحياء.

فرد عليه «ربيع»:

– لكنها خطيرة يا سيدي وغير مأمونة العواقب.

فقال له «وليد»:

– المهم أن أعرف الإجابة.. لقد فقد عقله تمامًا, ولا يمكنه إجابة أي سؤال.

***

أبحر «وليد» في عالم «عادل» والده، رآه وهو طفل صغير يقع من فوق دراجته، رآه وهو شاب يختلس النظر إلى الفتيات، رآه وهو يسير خلف «هناء» أمه، رآه وهو فَرِحٌ بإنجابه هو وأخته حتى حانت الفترة التي يريدها «وليد».

لقد بدأ «عادل» في الشعور بأن زوجته غير راضية عنه في علاقتهما الحميمة.. جرب بعض الأشياء من أصدقائه.. جرب وصفات العطارين.. جرب الحبوب الزرقاء.. في النهاية قالت له «هناء»:

– لماذا لا تذهب إلى الطبيب؟

أذعن «عادل» لطلبها وذهب للطبيب الذي سأله بعد أن رأى التحاليل:

- هل أنجبت من قبل يا «عادل»؟

فأجابه «عادل»:

- نعم.. عندي ولد وبنت.

نظر إليه الطبيب في حيرة وقال له:

- سوف أحولك إلى طبيب آخر كبير، لكن لا تخبره بأنك أنجبت من قبل.. حتى يهتم بحالتك.

ذهب «عادل» إلى الطبيب الآخر والقلق يملأه فقال له الطبيب:

- بالطبع أنت لم تنجب من قبل.

فأشار «عادل» بالإيجاب فاستطرد الطبيب:

- ما الذي جعلك تسكت على نفسك حتى هذه السن المتأخرة.. لو كنت أتيت قبل ذلك لكان من الممكن العلاج.. الآن العلاج صعب، لكن يمكن أن نبدأ فيه وكله بيد الله.

فسأله «عادل» بدهشة:

- ماذا تعني يا دكتور؟!

أجابه الطبيب بثقة وهو يعدل من وضع عويناته:

- أنت مولود بعيب خلقي يمنعك من الإنجاب، هذا العيب...

لم يسمع «عادل» باقي كلام الطبيب لأنه كان يفكر في «وليد» و«هند».

ذهب لأكثر من طبيب كلهم قالوا له الكلام نفسه.. لو أتى قبل ذلك كان يمكن العلاج لكن الآن...

اشتعل المنزل.. «عادل» ممزق بين رغبته في الانتقام وشعوره بأن الطفلين ليس لهما ذنب.. في النهاية قرر الرحيل، وبالطبع لم تطالبه «هناء» بنفقة أو مؤخر.

رحل «عادل» في صمت يحمل في قلبه أخدودًا، ليس جرحًا فحسب.. قرر الصمت.. طرد «وليد» وقلبه يتمزق لأنه على الرغم من كل شيء كان يحبه.. بل نزل بعد ذلك وبحث عنه في كل مكان.. ذهب إلى «هناء» وسأل عنه لكنها ردت عليه في برود:

- وما دخلك أنت بـ«وليد»؟ ألم تقل إنه ليس ابنك؟

«هناء» لم تتكبد عناء البحث عنه.. «عادل» هو من بحث في كل مكان دون جدوى.. لو كان «وليد» عاد إليه لكان سيقبله على الفور دون تردد.

لم يتحمل جهازه العصبي كل ذلك الضغط. فقد عقله بعد أن فقد حياته من الأساس.

***

عندما أفاق «وليد» كانت الدموع تنهمر من عينيه، سمع «ربيع» يصرخ بفزع:

- الرجل ينهار يا سيدي.

كان «عادل» ينتفض بقوة.. أمسك «وليد» بيديه وهو يبكي.. لا يدري ماذا يفعل ليساعده.. ظل جسد «عادل» ينتفض بقوة حتى هدأ تمامًا.. وساد السكون.. ظل «وليد» يحرك وجه الرجل.. يحرك يديه.. يضرب صدره بقوة دون جدوى.. سمع صوت «ربيع» يقول له وهو يمسكه من كتفه:

- لقد مات الرجل.. مات والدك يا سيدي.

صرخ «وليد» في مرارة وهو يقول:

- إنه ليس والدي.. إنه أكثر من ذلك بكثير.

***

وقف «وليد» يرتدي نظارة شمسية سوداء يراقب الرجال والنساء الذين وقفوا على المقابر يودعون «هناء» التي ماتت بعد صراع قصير مع سرطان الرحم.

نزلت دموعه رغمًا عنه، لكنه شعر بسعادة في داخله عندما شاهد زوج «هند» يربِّت على كتفها في حنان. تنهد في ارتياح وذهب حتى لا يراه أحد.

***

وقف «وليد» مع «ربيع» يختلسان النظر إلى زفاف أخت «شادي» الذي تأخر لمرض والدة «شادي»، لكن بمجرد تحسن حالتها قرروا إقامة العُرس.. أصر الجميع أن يكون العُرس في الحارة رغم مقدرتهم على إقامته في أكبر النوادي.. وقف «وليد» على باب السرادق المنصوب في الحارة ينظر في سعادة إلى

العروس والأم التي لا تسعها الدنيا من الفرح.

نظرت الأم إلى باب السرادق فلمحته للحظة، حاولت الوصول إليه, لكنه لاحظ محاولتها فاختفى في الزحام.

***

عندما انتهى «وليد» و«ربيع» من صلاة الفجر قال له «ربيع» وهو ينظر إلى سقف المسجد:

- هذه أول مرة أصلي منذ سنوات.

فرد عليه «وليد»:

- هذه أول مرة أصلي على الإطلاق.

خرجا من الجامع الأزهر فقال «وليد» لـ«ربيع»:

- الوداع يا «ربيع».

فقال له «ربيع» بفزع:

- ماذا تعني يا سيدي؟

أجابه «وليد»:

- لقد كنت تبحث عن حريتك لسنوات.. من اليوم أنت حر.

احتضنه «ربيع» وهو يقول له:

- أنا لن أتركك بمفردك بعد أن رأيت ما تفعله.. أنت الإنسان الوحيد

الذي قابلته في حياتي.

ربَّت «وليد» على كتفه وهو يقول:

- الإنسان لا يفعل ما فعلته يا «ربيع».. أنا فقط أحاول إصلاح ما يمكنني إصلاحه.

فرد عليه «ربيع»:

- نعم لقد حاولت أن تصلح ما فسد.. ثم إن كل هذا ليس ذنبك وحدك.

فقال له «وليد»:

- حتى أكفر عما فعلت يجب أن أدمِّر الكتاب.. هناك طريقة واحدة فقط لتدميره.. لا تخف هذه المرة الطريقة مضمونة.. لكني ربما أرحل معه.. إنها خطيرة جدًا.

أمسك «ربيع» يده وهو يقول:

- لا يا سيدي سوف نجد طريقة أخرى.. اصبر.

أفلت «وليد» يده من بين يديه وهو يقول:

- الصبر على هذا الكتاب خطير.. خذ هذا المظروف.

أعطاه «وليد» مظروفًا وهو يقول له:

- حساب البنك مثل أخت «شادي» و«هند».

أمسك «ربيع» بالمظروف وهو يقول:

– لا أريد شيئًا يا سيدي.

ثم احتضنه وانفجر في البكاء.. طبع «وليد» قبلة على خده وقال له:

– الوداع يا «ربيع».

كانت الدموع تنهمر من عيني «وليد» الذي لم يشعر بكل ذلك الحب منذ سنوات, فاستطرد وهو يبتسم حتى يخفف من حدة ألم الفراق:

– رغم كل تلك السنوات التي قضيناها معًا لم أسالك عن أسرتك.. هل كان عندك أولاد قبل أن تتعرف على «ديمتري»؟

أجابه «ربيع» وهو يبتسم:

– نعم كان عندي أولاد، سوف أعود للبحث عنهم وعن زوجتي.. لا أعرف هل سأجدها أم ستكون قد توفيت وتركت الأولاد.. كانت امرأة طيبة.. أنا كنت شديد السوء, وأستحق ما حدث لي.. أنت لم تعرف حكايتي حتى الآن.

فضحك «وليد» وقال له:

– لا أريد أن أعرف المزيد.. يكفي ما عرفته.. لقد كرهت الاستجواب.. سلام يا «ربيع».

تركه «وليد» وسار في طريقه, عندما التفت خلفه كان «ربيع» ما زال واقفًا ينظر إليه, فابتسم «وليد» واستمر في سيره. ظل «ربيع» يراقبه وهو يختفي في طريقه إلى مهمته الأخيرة.

# استحواذ

ركب «وليد» السيارة ذات الدفع الرباعي التي تركها له «ديمتري»، وتحركت به السيارة في طريق عودته إلى الفيلا حيث الكتاب في انتظاره.. لم يكن «وليد» يعرف تفاصيل تدمير الكتاب، لكن من قراءاته توصل للخطوط العريضة التي سيتبعها للقضاء عليه.. ما هو متأكد منه أن ذلك الكتاب لن يرحل بسهولة.

كان الأمر يحتاج للكثير من الشجاعة أو ربما الحماقة والحماسة الزائدة.. كان الطريق إلى الفيلا طويلًا، ربما الخوف والقلق هما ما جعلاه يشعر ببعد مقصده.

وصل «وليد» إلى الفيلا، وقبل أن يدخلها ألقى نظرة على غرفة حارس العقار المجاور الذي كان وقوفه مع ابنته سببًا ربما غير مباشر في قتلها. فتح «وليد» الباب وقبل أن يدخل أحس بذلك الشعور الذي ينتابك عندما تشعر أن هناك شخصًا غريبًا بالمنزل.. لكنه لم يكن يشعر بشخص بل كان يشعر كأن هناك شيئًا ما بالمنزل.. ابتسم «وليد» بسخرية وقال لنفسه:

- وكيف لا يوجد شيء؟! بالتأكيد حارس الكتاب يشعر برغبتي في تدميره.

لكنه عندما نظر إلى باب القبو أصابه التوتر.. كان الباب مفتوحًا..

ستقول إنه الحارس.. حارس الكتاب.. لكنك تقول ذلك لأنك لا تعرفه.. لا تعرف أنه يحتاج إلى جسد مادي ليقوم بتلك المهمة.. ألا وهي البحث عن الكتاب.

بالتأكيد حارس الكتاب وجد من يعطيه جسده.. متطوعًا أو مكرهًا.. بالتأكيد هناك من يتجول الآن في مكان ما يبحث عن الكتاب.. بالتأكيد حصل على قوة هائلة من حارس الكتاب الذي استحوذ عليه.. ربما هو يقف الآن خلفه ويتحرك نحوه كالسهم.. ربما سيفقد «وليد» الوعي جرَّاء تلك الضربة القوية التي أخذها على رأسه.

***

الفرعون..

ملك البلاد وصاحبها.. حاكمها الذي عبده الشعب وظنوا أنه ابن الآلهة, والآلهة كما هو معروف تحتاج إلى بعض المعجزات, وذلك ما كان ينغِّصُ على الفرعون حياته ويقلقه.. إنه في حاجة مستمرة كي يكون قويًا لا تعطله مشكلات ولا تعجزه الظروف.. أي يحتاج أن يكون غير بشري.

كل بلد مهما كانت ثرواته تمر عليه فترة قحط, لكن هل سيتعرض ابن الآلهة للقحط ويقف مكتوف اليدين؟ كيف يكون ابن الآلهة إذًا؟

هنا يأتي دور السحرة.. سحرة الفرعون الذين يكون دورهم إيهام الناس بأن للفرعون قدرات خارقة وصفات سامية.

«أنينا».. أحد السحرة المغمورين الذين حاولوا كثيرًا أن يرتقوا بين سحرة الفرعون الكبار.. لكنه كان دائمًا ما يفشل.. حتى تعرف على «شباكا» الساحر المتمرس الذي له باع طويل في ممارسة السحر, وعلاقات واسعة في القصر الملكي.. قبل «شباكا» مساعدة «أنينا» له على مضض.. هو لم يكن يقبل المشاركة مع أحد في أي شيء, لكن المشروع الجديد المقبل عليه يحتاج المساعدة من أحد ما.. ومن سيكون أفضل من «أنينا» الساحر المبتدئ الذي ظل أعوامًا يعمل دون أن يحقق نجاحًا يُذكر؟

كان «شباكا» قد اكتشف طريقة لتسخير بعض الجن لمعرفة ما يعرفه الأموات.. يرى ما رآه الميت ويختبر ما اختبره.

الأمر يحتاج إلى الكثير من البحث والمحاولة.. في ذلك اليوم رأى «أنينا» معلمه الجديد «شباكا» يُقلِّب في بعض أوراق البردي.. وقف «أنينا» بجانب معلمه ونظر إلى الأوراق التي كان يُقلب فيها.. بالطبع لم يفهم أي شيء فسأله مستفسرًا:

– ما هذه الأوراق يا سيد «شباكا»؟

أجابه «شباكا» دون أن ينظر إليه:

– هذه المحاولات الأولى لاستجواب الموتى.

سكت «أنينا» قليلًا وتردد في أن يسأله السؤال الذي كان يدور في خلده.. لكنه في النهاية قرر أن يسأله:

- حتى لو نجحت تلك الطريقة يا سيدي.. ما الذي سنستفيده منها؟

توقف «شباكا» عن التقليب في الصفحات ونظر إليه مليًّا قبل أن يبتسم في سخرية ويرد عليه:

- كيف سنستفيد؟! أقول لك يا «أنينا» كيف سنستفيد.. عندما نستجوب المقتول ونعرف قاتله.. عندما نستجوب الجنود فنعرف منهم خطط أعدائنا.. عندما نحصل على الخبرات التي نريدها في أقصر وقت ممكن.. كل هذا لا تعتبره فائدة؟! الفرعون.. كم سيدفع في مقابل أن نظهره أمام الناس بمظهر العالم ببواطن الأمور؟

هز «أنينا» رأسه مقتنعًا بكلام «شباكا».. أخيرًا سوف يصبح له أهمية.. أخيرًا سوف يقترب من قصر الفرعون.. لكنه لا يستطيع أن يفك تلك الطلاسم التي يقرأها «شباكا».. يبدو أنها لغة لا يعرفها «أنينا».. سمع شيطانه يقول له في حسرة:

- سوف تصبح تابعًا لـ«شباكا».. «شباكا» الذي سيكون ساحر الفرعون الأقرب.. أنت ستظل دائمًا في الظل.. لا يراك أحد ولا يعرفك أحد.

أخرجه صوت «شباكا» من همزات شيطانه يقول له:

- لكن في البداية يجب أن نحرر المارد المسؤول عن تلك الاستجوابات.. إنها سلالة شياطين يرث بعضها بعضًا.. ترى الماضي بعيون أسلافها.. العين الثاقبة هي التي تمكنهم من رؤية ما حدث.

هز «أنينا» رأسه على الرغم من أنه لم يكن يفهم شيئًا بعد والصوت يتردد في ذهنه بلا توقف: سوف تظل تابعه يا «أنينا».

***

لو كان «وليد» شابًّا عاديًّا لكان سيأخذ الضربة ويقع مباشرة على الأرض فاقد الوعي, لكن «وليد» في الأساس شعر بصاحب تلك الضربة التي أتت من خلفه فمال في آخر لحظة فلم يتلقَ رأسه كامل الضربة, أحس «وليد» ببعض الدوار للحظة لكنه تحامل ودار حول نفسه ليوجه ركلة قوية إلى صاحب تلك الضربة التي أخطأته فطار إلى الوراء واصطدم بالمائدة قبل أن يقع بها على الأرض.. أسرع «وليد» إلى قابس الكهرباء فأضاء الثريا المتدلية من السقف لأن الإضاءة كانت خافتة بسبب الستائر المسدلة.. نظر «وليد» بسرعة إلى مهاجمه فكانت المفاجأة...

لقد كان «ربيع».. كيف وصل إلى هنا بهذه السرعة؟! كيف سبقه إلى هنا؟!

لم يكن أمام «وليد» الكثير من الوقت ليعرف إجابات الأسئلة, فـ«ربيع» قرر أن يعيد محاولة الهجوم.. من أين حصل «ربيع» على تلك القوة؟ كيف يستطيع أن يحمل المائدة ويلقيها بهذه السهولة على «وليد» الذي تفاداها في اللحظة الأخيرة؟!

لم يَحْتَج «وليد» الكثير من الوقت حتى يعرف من أين أتته هذه القوة..

لقد استحوذ حارس الكتاب عليه.

***

كان «شباكا» يعمل بجد في الأيام التي تلت حصوله على تلك الأوراق.. يحاول فك طلاسمها ومعرفة تفاصيل الطقوس اللازمة لاستدعاء حارس التعويذة.. وبعد جهد طويل وعمل دؤوب وبعض المحاولات الفاشلة فهم الأمر.

تلك الطقوس يتم عن طريقها استدعاء حارس التعويذة والطلب منه معرفة تاريخ شخص ما والحصول على خبراته, لكن يجب أن يكون ذلك الشخص موجودًا.. حيًّا أو ميتًا.. في النهاية ذلك الشخص يموت غالبًا.

لم يكن «شباكا» يعرف أن «أنينا» بدأ يتعلم, وأول شيء فهمه أن تلك الطرق القديمة في التعلم لم تعد تجدي نفعًا.. هناك طريقة جديدة يمكن أن تنقل إليه كل خبرات المعلم «شباكا» بسهولة وسرعة.. لكنه ما زال في حاجة إلى إتقانها.

***

فكر «وليد» سريعًا في طريقة يوقف بها «ربيع» دون أن يؤذيه, يمكنه أن يهشم رأسه أو يطلق عليه الرصاص وينتهي الأمر.. لكن الأمر أشبه بوحش كاسر تريد أن تقيده دون أن تقتله.

تذكر «وليد» القبو.. القبو الذي أصبح مقبرة لمن مات فيه وكان آخرهم «عادل».. يمكنه أن يقيد «ربيع» بالقيود الحديدية الموجودة فيه.. لكن عليه أن يستدرجه إليه أولًا.

نظر «وليد» في عيني «ربيع» التي أصبحت كسحابة بيضاء وقال له باستفزاز:

- أنا أعرف من أنت, وأعرف ماذا تريد.

بدأ «ربيع» يزوم ويتحرك حوله كأنه ذئب يستعد كي ينقض على فريسته.. بينما استطرد «وليد» بطريقته المستفزة:

- يمكنك أن ترى ما رآه الموتى.. لكنك لا تستطيع معرفة مكان الكتاب.. أليس كذلك؟

أخرج «ربيع» خوارًا قويًا قبل أن يقول بصوت عميق يختلف كثيرًا عن صوت «ربيع» الذي يعهده «وليد»:

- أين الكتاب؟

أجابه «وليد» بنفس اللهجة المستفزة من جديد:

- لقد ألقيت عليه تعويذة الإخفاء.. لن تستطيع رؤيته مهما فعلت.. يمكنك أن تقتلني لكنك لن تعرف طريقه.

انقض عليه «ربيع» والصوت يردد بغضب:

- لكن الألم سيرغمك على الاعتراف بمكانه.

تفادى «وليد» انقضاضة «ربيع» الذي كان جسده الهش لا يساعد حارس الكتاب.. جرى «وليد» نحو القبو يتبعه «ربيع».. نزل «وليد» الدرج مسرعًا

سابقًا «ربيع» الذي كانت السرعة التي يهرول بها هي أقصى سرعة هذا الجسد.

أمسك «وليد» بالأصفاد الحديدية ووقف متأهبًا ينتظر «ربيع» الذي يبدو أنه قد استنفد قواه.. فكر «وليد» في أن الحارس لو كان يمكنه أن يستحوذ على جسد آخر أكثر حيوية وشبابًا وقوة لفعل.. ما الذي يرغمه على الاستحواذ على ذلك الجسد الهزيل؟!

كان «ربيع» يقترب منه بتؤدة وبطء.. ممسكًا سكينًا في يده اليمنى.. بدا عليه التعب والإنهاك.. سوف يتفادى «وليد» الطعنة بمنتهى السهولة.. لكن ماذا لو فشل؟

***

كانت «نوارا» الفتاة القمحية البشرة الدقيقة القسمات الرقيقة هي من وقع اختيار «أنينا» عليها, وعرف أن تلك هي مهمته التي احتاجه «شباكا» من أجلها.. «شباكا» يريده أن يوقع له فرائسه التي سيجرب عليها تعويذة الاستجواب.. لكن لماذا «نوارا» بالذات؟! ربما لأنها يتيمة ولن يفتقدها أحد وعندما يلاحظون اختفاءها سوف تكون ببساطة اختفت وانتهى الأمر.. لن يعثروا لها على أي أثر ، فـ«شباكا» لن يترك فيها قطعة سليمة.

«نوارا» شابة نشيطة ومتحمسة.. دماء الشباب الدافئة التي تجري في عروقها هو ما يحتاجه «شباكا».

ربما كان يفكر «أنينا» في الاعتداء عليها قبل قتلها, فقبحه الشديد وعمله

السري لم يكفل له الزواج أو الدخول في علاقات غير تلك التي يدفع المال من أجلها.

كانت «نوارا» تعمل بالسوق طوال النهار ثم تعود إلى كوخها قبل الغروب.. كوخها فقير وصغير في مكان ناءٍ.. يمكن لأي أحد أن ينتظرها في الطريق ليؤذيها.. لكنها كانت مطمئنة لأنها لا تملك ما يجعل أحدًا يقدم على ذلك.

لم ينتظرها «أنينا» في الطريق, بل كان ينتظر في آخر مكان لم يخطر لها على بال.. في المكان الذي تشعر فيه بالأمان.. في داخل الكوخ.

لم تفطن هي إلى ذلك لأنها لم تشعر حتى بألم الضربة على رأسها.. فقط أظلمت الدنيا ووقعت على الأرض.. هل ماتت؟ لا.. إنها لا تزال تتنفس.. صدرها يعلو ويهبط بسرعة وخيط رفيع من الدم ظهر من خلف رأسها مكان الضربة.. صدرها ما زال يعلو ويهبط.. جسدها الفتي ممدد أمامه كأنه ينادي عليه.. جميلة بلا شك.. فليأخذ منها ما يريد قبل أن يسلمها إلى «شباكا» جثة هامدة.

***

كان «ربيع» قد أصبح كأنه دمية مربوطة في بعض الحبال وهناك من يحركها.. اقترب «ربيع» منه وانطلق السكين نحو «وليد» الذي تفادى النصل وأمسك بمعصم «ربيع» للحظات وفي حركة محترفة أدار يديه خلف ظهره ووضع

فيهما الأصفاد.

زادت الأصفاد من غضب الحارس الذي كان في جسد «ربيع».. بدأ يتحرك بطريقة غاضبة وينتفض بطريقة أشبه بنوبات الصرع.. ركله «وليد» ركلة قوية جعلته يرتطم بالجدار وهو يقول:

– لا تؤاخذني يا «ربيع» سوف يؤلمك هذا كثيرًا عندما يخرج الحارس من جسدك، لكن ما باليد حيلة.

وقع «ربيع» على الأرض فانقض عليه «وليد» وبدأ في ربطه بالسلاسل حتى يضمن أنه لن يتحرك.. فجأة جحظت عينا «ربيع» أكثر من جحوظهما الذي اعتاده «وليد» وقال له بصوته الواهن المعروف لديه:

– ساعدني يا «وليد».. أرجوك لا تتركني له.. التميمة يا «وليد».. التميمة.

ثم أطلق صرخة ألم عاتية قبل أن يعود الصوت الغريب يخرج منه قائلًا:

– سوف أقضي عليه لو حاولت التخلص مني.

رد عليه «وليد» بثقة:

– لن تستطيع أن تؤذيه لأنك لو فعلت سوف تهلك.

توجه «وليد» إلى صندوق صغير معلق مليء بالأدوية فأخرج منه حَاقِنًا وملأه بمخدر ثم عاد إلى «ربيع» الذي أصبح كحيوان مذبوح يضرب الهواء بقدميه

علّ الحياة تعود إليه.

أفرغ «وليد» الحاقن في عروق «ربيـع»، وبعـد ثـوانٍ بـدأ مفعـول المخـدر يظهر عليه.. الخدر يسري في عروقه.. يسيطر على عقله.. يـذهب الآن «ربيـع» إلى أكثر الأماكن أمانًا في حالتـه.. إلى مملكة النوم.

كشف «وليد» صدره ليطمئن على خفقان قلبه عندما رآها...

قلادة فرعونية معلقة على صدره.. بمجرد أن لمسها «وليـد» أحـس أنـه انتقل للحظات إلى عالم آخر.. رأى «ديمتري» وهو يعطيها لـ«ربيع».

كان «ديمتري» يعطيها لـ«ربيع» ويأمره بارتـدائها وعـدم خلعهـا مهمـا حدث.. الحارس هو من أمر «ديمتري» بذلك.. فجأة شعر «وليد» بحرارة في كف يده.. حرارة أعادته إلى القبو.. حرارة أرغمته على ترك القـلادة بعـد أن تركـت حرقًا قويًا في يده.. والغريب أنها لم تترك أي أثر على جلد «ربيع»!

***

كانت «نوارا» أولى ضحايا «أنينا» لكنها لم تكن الأخيرة.. تبعها الكـثير معظمهـن مـن الفتيـات الـصغيرات في عمـر «نـوارا»، لأن «أنينـا» كـان يفـضل أن يسلمهن إلى «شباكا» بعد أن يفرغ فيهن شهوته.

شعر «شباكا» أنه أصبح قـادرًا علـى الاسـتجواب ومتمرسًا فيـه بالقـدر الكافي حتى يعرض تلك القدرة على الفرعون، لكن «أنينا» كان له رأي آخر.

لن يذهب «شباكا» إلى أي مكان.. لو ذهب هو ستظل أنت يا «أنينا» تابعًا

له مدى الحياة.. هو لا يعرف أنك تعلمت كل شيء يعرفه عن الاستجواب.. أنت لم تعد في حاجة إليه.. أنت من تأتي بالفرائس.. أنت من تعرض نفسك للخطر.. لم تعد تحتاج سوى كأس التعويذة والخنجر والأوراق.. سوف يخبرك حارس الأوراق بمكانها لو تخلصت من «شباكا».. أنت الآن قادر على الاستجواب يا «أنينا».. سوف تحصل على كل خبرات «شباكا» التي حصل عليها في كل تلك السنوات.. سوف تحصل عليها باستجواب واحد.. هذه فرصتك الأخيرة أما أن تحصل على كل شيء وإما تصبح لا شيء.. إنه يعطيك ظهره الآن.. قبل أن يلتفت.. اطعنه قبل أن يشعر بك.. قبل أن يخبره أحدهم أنك في هذه اللحظة بالذات تقف وراءه ممسكاً بالخنجر في عزم على إنهاء حياته.. لم يعد أمامك خيار إما أن تُنهي حياته، وإما أن تكون آخر لحظات حياتك.

***

ظل «وليد» يقلب في صفحات الكتاب يبحث عن ذلك الرسم.. كان يجلس وسط الحطام الذي خلّفه صراعه مع «ربيع»، أو بالأحرى مع حارس الكتاب الذي استولى على جسد «ربيع».

هو متأكد أنه رأى ذلك الرسم الذي يمثل القلادة في أثناء تقليبه في صفحات الكتاب.. لكن أين.. يجب أن يقلب صفحة صفحة.. يبحث في كل صفحة بعناية.. سوف تكون في الصفحة الوحيدة التي سيتركها.. دائمًا يكون الأمر هكذا.. المفتاح الأخير هو المفتاح الصحيح.. الباب الأخير هو الذي تريده..

جر الأخير هو الذي فيه ما تبحث عنه.. المرأة الأخيرة هي التي ستتزوجها
ني تختلف كثيرًا عن حبك الأول.

ها هي أخيرًا.. القلادة.. هي نفسها التي يرتديها «ربيع».. لكن
كتوب هنا يدل على أن «ديمتري» كان يخدع «ربيع».. هذه القلادة ليس
غرض منها حماية من يرتديها بل هي علامة على أن من يرتديها جاهز بأن
تطوع بجسده من أجل الحارس.. حارس الكتاب.

***

انتظر «أنينا» الفرصة طويلًا حتى سنحت له في النهاية...

لقد سرق أحد اللصوص الكأس المقدسة الخاصة بالفرعون من المعبد
لكبير.. بالطبع كان الأمر صعبًا عليه، بوصفه ابن الآلهة، أمام الناس أن تتم
سرقته, أنت تعرف المصريين لو سُرقت عنزة من أحدهم عيروه بأنه لا يستطيع
الحفاظ على ممتلكاته، ومن تُسرق منه عنزته يُسرق منه أي شيء آخر.. فما
بالك بالكأس المقدسة! لكن الأهم الآن أن الحراس استطاعوا القبض على السارق,
وكأي لص يحترم مهنته حاول الفرار, وكأي حراس لا يفهمون أي شيء فقتلوه..
مات ومعه مكان الكأس لأنهم لم يجدوا معه أي شيء.

وقع الكهنة في حيرة من أمرهم, لقد ضاعت كأس الفرعون إلى الأبد..
بالطبع لن نتحدث عن غضب الفرعون وكلام عامة الناس ونظراتهم إلى الكهنة
الذين كانوا يدعون معرفة الغيب.. أصبحت مصداقية الجميع على المحك, وحان

دور «أنينا».

توجه «أنينا» إلى المعبد الموجود فيه جسد اللص المقتول حيث كان الفرعون والكهنة هناك يتباحثون في طريقة لمعرفة مكان الكأس المقدسة.. استوقفه أحد حراس المعبد وقال له بغلظة:

– الفرعون اليوم بالمعبد وغيرمسموح للعامة بالدخول.

ابتسم «أنينا» في ثقة وقال له:

– الفرعون هو الذي يحتاجني.

ضحك الحارس باستهزاء وقال له وهو يغمز إلى زميله الواقف إلى جواره:

– وماذا يريد منك الفرعون أيها الرجل العظيم؟

أجابه «أنينا» بجدية:

– يمكنني أن أعرف مكان الكأس.

نظر إليه الحارس بشك، فمظهره لم يكن يدل على أنه يمتلك أية قدرة من أي نوع, فاستطرد «أنينا» آمرًا:

– أخبر أحد الكهنة أنني هنا.. هم يعرفونني.

غاب الحارس بالداخل قليلًا بعد أن قال لزميله:

– لا ترفع عينيك عنه حتى أعود.

بعد قليل من الغياب في الداخل عاد الحارس معه أحد الكهنة.. قال لـه الكاهن بضجر فور رؤيته:

– ماذا تريد يا «أنينا»؟

أجابه «أنينا» بثقة:

– يمكنني أن أعرف مكان الكأس لو رأيت جثة اللص.

رد عليه الكاهن بشك:

– لو كان معلمك «شباكا» هو من يقول ذلك الكلام ربما كنت صدقته.. لكن أنت...

قاطعه «أنينا» قائلًا بحزم:

– يمكنك أن تقتلني لو أخفقت.

رد الكاهن محذرًا:

– لو أخفقت فسيقتلك الفرعون بالفعل.. لم أرَه غاضبًا هكذا من قبل.

رد «أنينا» بإصرار:

– لن أخفق.

بعد كل تلك التحذيرات وأمام إصراره تركه الكاهن يدخل.. كانت جثة اللص موضوعة على الأرض في وسط ساحة كبيرة.. وقف حولها الفرعون والكهنة.. الفرعون يتحدث بغضب والجميع يقف حوله محاولًا تهدئته.. حتى

كبير الكهنة، صاحب المكانة العالية، ظهر عليه التوتر والخوف.

توجه «أنينا» مباشرة إلى الجسد الذي فقد جميع ملامح الحياة.. لم يُلْقِ التحية على أحد.. حتى إنه في طريقه دفع أحد الكهنة برفق حتى يبتعد عن الجسد الذي انحنى عليه, وفتح الكيس الذي كان معه ليخرج كأسًا وضع فيها بعضًا من دم اللص ثم أضاف إليه بعضًا من السوائل التي كانت معه في الكيس وسط نظرات الدهشة من الجميع.

ذلك المخبول تلميذ «شباكا» ما الذي أتى به الآن؟! هذا ليس وقت اللعب فليخرجه أحدكم.

بدأ «أنينا» في رسم الدوائر حول الجسد والشرب من الكأس، بينما كان بعض الكهنة يهمون بإخراجه ولوم الكاهن الذي سمح له بالدخول.. عندما سمعوا ذلك الخوار.. رياح عاتية تضرب المعبد تثير التراب في كل مكان.. لحظات من التوتر والخوف.. ظلال تظهر في كل مكان بالمعبد.. الأعمدة الفرعونية للمعبد تهتز بقوة.. ثم يهدأ كل شيء من جديد.

يرتكز «أنينا» على يديه ورجليه في وضعية الحبو.. لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه.. يقوم مترنحًا ويتوجه مباشرة إلى الفرعون.. يقف أمامه بثقة رغم التعب الظاهر عليه ويقول:

– سيدي الفرعون.. هذا الرجل ليس السارق.

نظر إليه الجميع بدهشة بينما اعتقد البعض أنه يهذي. استطرد

«أنينا»:

- هذا ليس السارق.. بل هو من رأى السارق؛ لذلك تم قتله.

ثم نظر إلى الكاهن الأكبر وقال له بلهجة ذات مغزى:

- أليس كذلك يا كبير الكهنة؟

نظر إليه كبير الكهنة بغلظة وسأله:

- ماذا تقصد أيها المعتوه؟

ضحك «أنينا» بطريقة جعلتهم يشعرون أنه معتوه بالفعل وهو يرد عليه:

- لم يستطع الكهنة أن يروا الكأس لأن من سرقها قد وضع عليها تعويذة الاختفاء.. لكن ذلك الرجل البريء رأى السارق وأعوانه وهم يفعلون ذلك.

ابتلع الكاهن الأكبر ريقه بصعوبة بينما أكمل «أنينا» موجهًا حديثه للفرعون:

- من فعل ذلك يريد أن يُحرج مولاي الفرعون ويُضعف موقفه أمام الشعب, لأنه يريد التخلص منه.

ثم أضاف بحركة تمثيلية وهو يشير إلى كبير الكهنة:

- كبير الكهنة هو مَن وراء تلك الحادثة.

صرخ فيه كبير الكهنة بغضب:

- أنت كاذب أفّاق مثل معلمك.

ابتسم «أنينا» بهدوء وقال:

- سوف أخبرهم بمكان الكأس.. ولو كنت كاذبًا فرقبتي ستكون الثمن.

حاول كبير الكهنة أن يظهر خطأ ادعاء «أنينا» وكذبه، لكن الفرعون قرر أن يسيروا وراءه حتى النهاية.. النهاية التي ستطير فيها رقبة أحدهم.

***

حل «أنينا» محل الكاهن الأكبر.. لكن طموحه لم يكن له حدود.. كان عليه أن يستمر في تطوير قدراته, وحتى يستمر في تطوير قدراته كان عليه أن يحصل على الموتى.. الموتى الذين يأتون إلى المعبد الكبير ليتم تحنيطهم هم من طبقة الأمراء والوزراء وأسرهم الذين لا يمكن العبث بهم أو معهم.. أحياءً أو أمواتًا؛ لذلك كان يحصل على الأجساد من نبش قبور العامة وأحيانًا قتل الفتيات اللاتي يهددنه بفضحه لأنه اعتدى عليهن.

كثر الكلام في جميع أرجاء البلاد حتى وصل إلى الفرعون.. لكن «أنينا» أصبح أقوى وأخطر من الفرعون.. حتى حراس المعبد أصبحوا يدينون له وحده بالولاء.

في تلك الأثناء كان «أنينا» بسبب غروره وثقته الزائدة يكسب الكثير من العداوات.. حتى أصبح كل من بالقصر الفرعوني إما كارهًا له وإما يخشاه.

تطور الوضع حتى أصبح «أنينا» يجمع بعض الضرائب لنفسه.. لم يعد من الممكن السكوت عليه, وأيضًا لم يعد من الممكن مواجهته.. كل مؤامرة تحاك ضده يعرفها.. كل خطة يكتشفها.. حتى لم يجد الفرعون غير ذلك الحل الأخير الذي ربما يُدخل البلاد في دائرة عنف لن تنتهي.. لكن لم يعد أمامه غير ذلك.

سوف يعلن أن «أنينا» هو المسؤول عن تلك الجرائم التي حدثت في الآونة الأخيرة.. سوف يترك ثورة الشعب هي التي تقتص منه.

كان الفرعون يحمي «أنينا» في البداية لأنه كان يخشاه.. لأنه كان يراه مفيدًا له.. لأنه كان يرى أن المواجهة سوف تودي بالبلاد إلى الهلاك.. لكنه عرف الآن أن تأخره هو سبب الدمار الذي سيحل بالبلاد.

ربما تدخل البلاد في حرب لأيام أو شهور, لكن في النهاية استطاع الشعب بمساعدة جيش الفرعون في محاصرة «أنينا» في المعبد الذي أنشأه خصيصًا من أجل طقوسه.. معبد أشبه بالقلعة.. تمت محاصرة القلعة وحرقها بمن فيها.

هلك «أنينا», لكن الأوراق التي كان يحفظها في مكان سري لم يُصِبْهَا سوء.. لقد كان للقلعة حديقة, في تلك الحديقة كوخ صغير لا يعرف أحد ما الذي كان يفعله «أنينا» فيه، أو لماذا ذلك الكوخ بالذات.. المهم أنه لم يكن يحتفظ بالأوراق في القلعة, بل كان يتركها تحت أرض ذلك الكوخ, وظلت كذلك لسنوات طويلة.. سنوات طويلة تنتظر من يُخرجها.

# المقابر

قبل انقضاء النهار كان «وليد» قد وجد طريقة للتخلص من القلادة وهذا ما يهمه الآن.. هو لن يستريح حتى يُخلِّص «ربيع» من ذلك العذاب.

كان حارس الكتاب قد أمر «ديمتري» بأن يجعل «ربيع» يرتدي تلك القلادة حتى تكون هناك خطة بديلة في حال كان هناك من يريد أن يدمر الكتاب مثل «وليد», وفي حالة اختفاء «ديمتري» الذي حدث بموته, أو بالأحرى انتحاره.

صعد «وليد» إلى الدور العلوي ودخل غرفة «ديمتري» التي لم يدخلها من قبل إلا مرات تُعد على أصابع اليد الواحدة.. كان يعرف أن المواد التي سيحتاجها لصناعة العقار الذي سيزيل به القلادة موجودة في خزانة ملابسه.

فتح الخزانة ليشعر بذلك الشعور المقبض.. صاحب هذه الملابس ترك الحياة وهو الآن في عالم آخر.. لم تعد هذه الأشياء ملكاً له.. غريبة هذه الحياة التي نظل نجمع فيها ما سنتركه للآخرين.

ألقى «وليد» بتأملاته جانبًا وبدأ في البحث بجد عن المواد التي يحتاجها.. الخزانة الكبيرة بها قسم كبير لتلك الزجاجات الصغيرة التي عليه أن يفتحها ويشمها حتى يتأكد من المكونات.. بالطبع هناك بعض المكونات التي

ستتطلب منه أن يجري وراء قطة ليأخذ بعض الدم منها, أو يحاول الحصول على وطواط ليستعين بكبده.. لا توجد وصفة سحرية تخلو من هذه الأشياء, وهو لن يتوانى في البحث عن حل لهذه المشكلة.. مشكلة القلادة.

***

الحملة الفرنسية, أو المحاولة الفرنسية لاحتلال مصر.. جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر بقيادة «نابليون»، الذي مهما كنت تمقته لن تستطيع أن تبخسه حقه, ولولا أن ذلك ليس المجال المناسب لكنا تحدثنا عن قصة حياته بإيجاز.

جاءت الحملة الفرنسية ومعها 36826 مقاتلًا على 300 سفينة شراعية و55 سفينة حربية, كما استعان «نابليون» بخيرة قادته الذين أثبتوا كفاءة في معارك عدة قبل ذلك, لم ينسَ «نابليون» الذي تشبع بالأدب والتاريخ أن يحضر معه علماء في مختلف الفنون.. ذلك الجيش الجرار كان يُطلق عليه «جيش المشرق»؛ ويبدو أنهم لم يكونوا ينوون العودة إلى ديارهم.

ليس من المنطقي ألا يكون بين أعضاء تلك الحملة أطباء, لذلك كان من الطبيعي وجود «فيليب».. ذلك الشاب النحيف المعروف بين الجميع بالطبيب «فيليب», لكن «فيليب» لم يكن طبيبًا بالمعنى المعروف للطب.. هو يحاول شفاء المرضى, لكن ليس بتلك الأساليب التقليدية, فهو في الحقيقة يجمع بين الطب والكيمياء.. وأخيرًا السحر الأسود.. الذي لو ثبت عليه فيمكن أن تكون نهايته

الحرق.

«فيليب» شديد النحافة.. أنفه شديد الطول.. نظراته مجنونة.. عيناه لا تتوقفان عن الحركة.. متوتر دائمًا.. منعزل لا يحب الكلام كثيرًا, وتلك الصفة الأخيرة كفيلة بأن تجعل الجميع يهابه أو يمقته أو يتجنبه, وربما كل ما سبق.

كان «فيليب» يجلس في هدوء على ظهر السفينة.. لا يتحدث مع أحد ولا يحاول أحد الاقتراب منه, لكن ذلك البحّار المخمور وجده مادة خصبة للسخرية.

كانت السفينة تتمايل والبحّار المخمور يتمايل عليها أكثر منها فارتطم عن عمد بـ«فيليب» الذي كان جالسًا يتأمل البحر في صمت.. ضحك البحّار فرحًا عندما ارتطم بـ«فيليب»، وقال له بطريقة ساخرة وصوت متكسر مخمور:

– أنا آسف يا صغيري.. لم أرَك فأنت تشبه الفأر الصغير.

وانفجر في الضحك بينما ظل «فيليب» ساكنًا كأنه لا يراه أو كأن الكلام لا يوجه إليه.. عاد البحّار يركله وهو يقول:

– أوه.. آسف لم أرَك هذه المرة أيضًا.

ثم ركلة مرة ثالثة وهو يقول:

– لم أرَك هذه المرة أيضًا.

وانفجر في الضحك من جديد, فقام «فيليب» هذه المرة وابتعد عنه وهو

يقول له بلهجة هادئة:

- لا عليك.

كانت تلك الكلمة كأنها سبة بالنسبة للبحَّار الذي عاد فصفعه على قفاه وهو يقول بغضب ليس له ما يبرره:

- ما دام لا علي فخذ هذه اللطمة.

كاد «فيليب» يقع على الأرض من قوة الضربة، لكنه استعاد توازنه وأكمل سيره مبتعدًا عنه, فبصق البحَّار عليه وهو يصرخ بغضب:

- اذهب أيها الجبان.. اهرب بعيدًا.. أنا أمقتك وأمقت كل السحرة أمثالك.

اقترب منه بحار آخر وهو يقول له مهدئًا:

- لا تتكلم في هذه الأشياء يا «أندرو».. هذا كلام خطير.

رد عليه «أندرو» وهو ما زال في ثورته الغاضبة:

- لكننا جميعًا نعرف ذلك.

فأخذه صديقه وأوصله إلى فراشه لينام.

في الصباح شعر «أندرو» بتوعك شديد.. ظن أنها خمر الأمس ما زال لها أثر في دمه.. سوف ينام قليلًا حتى يستعيد وعيه.. لكن الأمر ازداد سوءًا, فحرارة جسده بدأت بالارتفاع, عليه أن يذهب إلى الطبيب الموجود على السفينة

الذي هو ليس «فيليب» بالطبع. عندما ذهب إلى الطبيب نصحه بالراحة وأعطاه عقارًا ليساعده على خفض درجة حرارة جسده. عندما جنَّ الليل كانت حالته قد تحسنت.. سوف ينام الآن وفي الغد سوف يكون بخير.

عندما أتى الصباح شعر كأن بطنه يتمزق.. ساعات من القيء المتواصل حتى إنه لم يستطع الذهاب إلى الطبيب وجاء إليه هو ليفحصه.. عقار آخر حتى جنَّ اليل فشعر بتحسن.. في الصباح سيصبح على ما يرام.

عندما جاء الصباح لاحظ تلك التقرحات التي تملأ وجهه وجسده.. كأنه مصاب بالجذام, في هذه المرة أمر الطبيب بعزله حتى لا ينشر المرض في السفينة, وأعطاه الدواء.. بدأ يتحسن, لكنه كان يخشى أن يتوقع أن يكون أفضل في الغد.. وكان هذه المرة على حق, فعندما حل الصباح بدأ يشعر كأن هناك من يحرق جلده.. حروق في كل مناطق جسده.. كأنه اشتعال ذاتي, وكما توقع الجميع ذهب عنه كل شيء في الليل.

أصبح الأمر مألوفًا.. سوف يصيبه في الصباح مرض ما ويختفي في الليل.. أصبح «أندرو» لا ينام الليل من القلق ولا يهدأ في الصباح من المرض الذي يأتي كل يوم بشكل جديد.

لم يكترث البحَّارة كثيرًا لزميلهم, بل وجدوا ما يحدث له فرصة للترويح عن أنفسهم وعمل المراهنات.. فمثلًا تبدأ المراهنة:

– ما الذي سيصيب «أندرو» في الغد؟

- صداع يفتك برأسه.

- إسهال يصيبه بالجفاف.

- مغص يقطِّع أمعاءه.

- بثرات تصيبه بحكة تقوده للجنون.

والفائز هو من يتوقع التوقع الصحيح.. يا لهم من طيبي القلوب.. يجدون ألعابًا مسلية بأقل الإمكانات.

في النهاية مات «أندرو» بعد أن جرب الكثير من ألوان العذاب.

كان الهمس يتعالى.. بعض البحَّارة يقولون إن ما أصاب «أندرو» لعنة السبب فيها «فيليب»، والهمسات مع الوقت ترتفع حتى تصبح مظاهرات وثورات.

ذهب مساعد القبطان وأخبر القائد بتلك الحالة من السخط التي أصابت البحَّارة لاعتقادهم بأن «فيليب» هو السبب.. كان القائد يتأمل الأفق البعيد وقد لاحت الإسكندرية فقال له:

- نحن لا نملك الوقت لهذا الهراء.. لقد وصلنا.

عاد المساعد يسأله بإصرار:

- و«فيليب» يا سيدي.. ماذا سنفعل معه؟

رد عليه القائد:

- وماذا تظنني سوف أفعل؟ «فيليب» له حماية من المحفل الماسوني.. لا يمكن لأحد أن يمسه.. لو اقترب منه أحد سوف أقتله.

بالطبع لا يمكن أن نحاكم أحدًا بتهمة أنه قد تسبب في الإسهال لشخص آخر.. كيف سنثبت هذه التهمة من الأساس؟!

***

كان «وليد» قد انتهى من إعداد بعض السوائل التي سيقوم باستخدامها لنزع القلادة عن صدر «ربيع»، فنزل إلى القبو وهو يتمنى أن يجده في مكانه الذي تركه فيه.

كان رغم السلاسل التي تركه فيها يشك في أنه سيجده كما تركه، لكنه لحسن حظه وجده كما هو.. يبدو أن أثر المخدر بدأ ينسحب من دمه، وأنه سوف يعود إلى وعيه.. أو بالأحرى قل إن القوة سوف تعود إلى الجسد الذي حصل عليه حارس الكتاب.

اقترب «وليد» منه بسرعة قبل أن يستعيد كامل وعيه فوضع خرطومًا في فمه ووصل نهاية الخرطوم بقمع ليصب فيه سائلًا من إحدى الزجاجات التي كانت معه.. شرب «ربيع» السائل الذي كان كريه الرائحة والطعم، وبعد قليل فتح عينيه ليجدها «وليد» بيضاء تمامًا ويسمع الصوت الخشن القوي يقول له بغلظة مستهزئًا:

- هل تعتقد أن تلك الوصفات البدائية الضعيفة سوف تجعلني أترك

جسد صاحبك؟

رد عليه «وليد» بهدوء وهو يفتح زجاجة أخرى:

- بالطبع لا.. أنت تبدو أقوى بكثير من أسلافك.

ثم استطرد وهو يقترب بالزجاجة منه:

- لكني أنا أيضًا أختلف عن أسلافي.

بدأ «وليد» برش السائل على «ربيع» فسمع الصوت يقول له بتحدٍّ:

- حتى لو تركت جسد صاحبك.. فلن أترك لك الكتاب, وأنت لا تستطيع تدميره أو تركه.

هزَّ «وليد» رأسه ببرود كأنه يتحدث مع صديق له على المقهى وهو يرد عليه:

- عندك حق في أنني لن أترك الكتاب.. لكن ربما أستطيع تدميره.

سمع «وليد» أسوأ ضحكة سمعها في حياته قبل أن يضيف الحارس:

- حاول غيرك ولم يستطع.

وفجأة بدأ الصراخ بعد أن بدأ «وليد» بالتمتمة ببعض الكلمات الغريبة, لقد بدأت القلادة في حرق جلد «ربيع».. صراخ عنيف كأن هناك من ينتزع كبده حيًا.

الضوء الضعيف في القبو يهتز ونسمة هواء لا يعرف «وليد» من أين أتت

قبل أن يفقد «ربيع» الوعي, وقد تفحم الجلد الذي كان تحت القلادة تمامًا.

اقترب «وليد» منه ولمس القلادة ليجدها باردة.. نزعها عنه ولفها في خرقة قماش قديمة, ثم وضعها في حقيبة مع الكأس والسكين اللتين كانتا يستعملهما «ديمتري».. كان يفعل ذلك وهو جالس بالقرب من «ربيع» الذي فتح عينيه فجأة وأمسك بيد «وليد» بقوة ففزع ذلك الأخير والتفت إليه, لكنه رأى «ربيع» يبتسم في إعياء شديد ويقول بصوته الذي يعرفه «وليد» جيدًا:

– شكرًا لك يا سيدي.

. فربَّت «وليد» على كتفه وهو يقول له:

– قلت لك من قبل.. أنا لست سيدًا لأحد.

وبدأ في فك الأصفاد عنه, ليساعده على النهوض والصعود للأعلى.

***

عندما رست السفن الفرنسية في ميناء الإسكندرية.. لم يشغل «فيليب» باله بالقتال أو المقاومة المصرية.. لم يلقِ بالًا لـ«بونابرت» الذي من المفروض أنه دخل في حمايته شخصيًّا بإيعاز من المحافل الماسونية, التي سيكون من آثار الحملة الفرنسية بناء أحدها، أو بالأصح أولها، في مصر.

كان «فيليب» يجيد اللغة العربية, وملامحه الدميمة التي تُشبه ملامح المرضى أو الذين فقدوا عقولهم كانت تجعله غريبًا في وطنه, لذلك لن يشعر بالغربة هنا نتيجة نظرات العامة الفضولية, فالنظرات الفضولية تطارده في كل

مكان.

كان يفكر في شخص من هذا البلد يساعده في مهمته.. سوف يكون عليه السفر إلى أقصى الجنوب للبحث عن الكتاب.. هكذا أخبرته المطوية التي تركها له معلمه.

كانت تلك المطوية تتحدث عن أحد المتمرسين في السحر من الغرب, أتى إلى مصر منذ مئات السنين وتعرف على قصة الكتاب فَدَوَّنَها في كتاباته وشرح بطريقة تفصيلية مكان القلعة التي دُفن فيها «أنينا» وكتابه.. «فيليب» يعرف بصورة تقريبية المكان, لكنه لم يأتِ إلى مصر من قبل، وسيكون عليه البحث عن مساعد له في البداية.. بينما كان واقفًا يفكر في طريقة تُمكنه من الذهاب إلى الجنوب, فجأة وجد من وقع عليه اختياره ليكون مساعده.

كان يجري في السوق المتاخم للميناء, لم يعبأ بالغازي الأجنبي أو بأهل بلده الذين يموتون، بل كان كل ما يشغله السرقة والفرار.. الناس يجرون وراءه لكنه كان سريعًا.. هناك من يحاول إيقافه لكنه كان ضخمًا أيضًا.. كان يدفع كل من يقف أمامه, ويشق طريقه بين المارة.

عرف «فيليب» أنه لو تأخر أكثر من ذلك فسوف يفقده, أطلق ساقيه للريح.. كان يجري إلى جواره يفصل بينهما سور قصير.. بينما من يطاردون السارق يجرون خلف السارق.

لم يكن مع السارق الكثير لذلك لم يعبأ به مطاردوه كثيرًا, بل توقفوا

بعد خطوات قليلة.. لاحظ السارق أنه ابتعد كثيرًا عن المطاردين, لكنه أيضًا لاحظ ذلك الرجل غريب الشكل الذي يجري إلى جواره.. كان السور قد انتهى وأصبح «فيليب» يجري إلى جواره تمامًا.. دخل السارق فجأة في زقاق ضيق فأسرع «فيليب» خلفه, لكن ما إن دخل «فيليب» الزقاق الضيق حتى قابلته قبضة السارق في وجهه وسمع الصوت الغليظ يسأله:

– ماذا تريد أيها الغريب مني؟ هل تعتقد أنك تستطيع النيل مني؟

أشار إليه «فيليب» بيده أن يتوقف بعد أن وقع على الأرض وهو يحاول أن يمسح الدم بيده الأخرى.. ثم قال بعد أن اطمأن على أن أنفه الطويل الذي حصل على معظم الضربة ما زال في مكانه:

– اهدأ.. أنا أريد منك أن تساعدني.

نظر إليه السارق وهو يشعر بأنه كاذب وسأله بدهشة:

– وكيف لمثلي أن يساعدك؟! لقد رأيت الناس جميعًا يطاردونني.. أنا سارق يا أخ.

فقام «فيليب» من وقعته وقال له وهو ينفض الغبار عن ثيابه:

– وهذا ما أحتاجه.

نظر إليه السارق منتظرًا أن يوضح له ذلك اللغز الذي ألقاه عليه «فيليب» الذي استطرد:

– أنا أيضًا سارق.. لكني سارق من نوع خاص.

وضع «فيليب» يده في كيس من القماش كان معلقًا في حزام يلفه حول خصره فتأهب السارق، لكن «فيليب» طمأنه وقال له وهو يخرج إليه بعض العملات الذهبية التي لا تمت بصلة لمصر في أي عصر:

– ما رأيك في هذه العملات.

أخذ السارق العملات ووضعها بين أسنانه ثم بدأ في فركها واتسعت عيناه في دهشة وجشع وسأل «فيليب» بغلظة:

– هل معك المزيد منها؟

كان ينوي أن يقتل «فيليب» ويأخذها منه، و«فيليب» يعرف ذلك جيدًا، فرد عليه بحسرة مصطنعة:

– للأسف ليس معي غير هذا الكيس.

ووضع الكيس أمام عيني اللص الذي بدأ لعابه يسيل عليه وهو يتبعه بعينيه.. اقتربت يدا اللص من الكيس، لكن «فيليب» أعاده إلى الحزام بسرعة وهو يقول له:

– يمكنك أن تحصل على هذا الكيس الآن، لكنك سوف تفقد بذلك كنزًا عظيمًا.. كنزًا لو حصلت عليه لأمكنك أن تلقي بكيس مثل هذا في الشارع كل يوم دون أن ينقص منه أي شيء.

لمعت عينا السارق وابتسم ابتسامة جشعة وتغيرت لهجته وهو يقول لـ«فيليب»:

- وماذا أفعل حتى أحصل على ذلك الكنز يا سيدي؟

أعجب «فيليب» بطريقة السارق التي تحولت وأصبحت أكثر تهذيبًا.. لقد استطاع أن يروضه في دقائق فأجابه:

- بداية أريدك أن تساعدني في الوصول إلى المكان الذي يُدعى النوبة.

أخرج اللص صفيرًا من بين شفتيه وهو يقول له:

- لكن الطريق إلى هناك طويل جدًا.

هزَّ «فيليب» الكيس الذي علَّقه في حزامه وهو يرد عليه:

- سوف أعطيك في كل يوم قطعة ذهبية مثل التي معك.. هكذا أنت تضمن حقك حتى لو لم نجد أي شيء, وإذا عثرنا على الكنز تأخذ النصف.

تهللت أسارير اللص وقال له:

- حسنًا يا سيدي.. هيا بنا الآن.

كان اللص قد أصبح متحمسًا أكثر من اللازم فقال له «فيليب» معترضًا:

- لكننا في حاجة إلى بعض المؤن وجَوَادَيْن.

رد عليه اللص وهو يَجُرُّه:

- سوف نسرق كل ما نحتاجه في الطريق.

فقال له «فيليب» محذرًا:

- من الآن لا سرقة.. نريد أن نصل إلى النوبة دون أية مشاكل.

فهز اللص رأسه موافقًا فاستطرد «فيليب»:

- أريد مكانًا للمبيت الليلة، وفي الغد سوف ننطلق معًا بعد شراء كل ما نحتاجه.

ثم أضاف بلهجة حازمة:

- شراء لا سرقة.

هز اللص رأسه موافقًا وقال له:

- حسنًا عندي مكان يمكننا المبيت فيه.

فتبعه «فيليب» وتذكر في أثناء سيرهما أنه لم يعرف اسم مرافقه حتى الآن فقال له:

- لم أعرف اسمك حتى الآن.

رد اللص بخجل لا يتناسب مع مهنته أو حجمه أو شكله:

- «سالم» يا سيدي.

فهز «فيليب» رأسه وابتسم وهو يقول له:

- حسنًا يا «سالم».

سأله «سالم» وهو ينظر إليه بتودد:

- وأنت يا سيدي.. ما اسمك؟ إنك تبدو كأنك لست عربيًّا.

رد عليه «فيليب» بغضب مفاجئ:

- لا تسأل عن أي شيء لم أخبرك به.. نفذ ما آمرك به فقط.

أصابت طريقة «فيليب» تابعه الجديد بالصدمة، خصوصًا بعد أن كان يعامله برقة وهدوء.. ابتلع «سالم» لسانه.. لم يشعر بالإهانة فهو يتعرض لها طوال اليوم, لكنه عندما نظر إلى عينيه شعر بالخوف.. الخوف الذي لم يجربه من قبل.

***

الطريق إلى النوبة طويل.. طويل جدًا.. خصوصًا إذا كنت ستقطع المسافة من الإسكندرية حتى القاهرة على جوادين, ثم تأخذ سفينة صغيرة تقلك في النيل حتى الجنوب.

أطلق «فيليب» لحيته وصبغها باللون الأسود كما صبغ شعر رأسه باللون نفسه, وتكفلت الشمس بإضفاء سمرة محمرة على وجهه الذي لم يتعرض للكثير من شعاعها في بلاده.. كما أنه لم يعد يتكلم كثيرًا حتى لا تكشفه لكنته الغريبة التي تفضحه على الفور بمجرد كلامه؛ لذلك أصبح «سالم» هو المسؤول عن عقد جميع الصفقات وشراء كل ما يحتاجون إليه.. مهمة «فيليب» الأساسية هي التوجيه والبقاء متخفيًا قدر الإمكان حتى يصل إلى غايته التي قطع كل تلك المسافة من أجلها.

الحرب مشتعلة بين الفرنسيين والدولة العثمانية.. كذلك المصريون لا يسكتون.. لا يستسلمون بسهولة.. المماليك وجدوا في الفرنسيين عدوًا مناسبًا بعد أن كانوا يتقاتلون, لكن «نابليون» سوف يهزم كل هؤلاء بدهائه وطموحه الذي سيودي به في النهاية.

«فيليب» لا يكترث لكل ذلك الهراء.. من وجهة نظره أن كل تلك الجيوش والحروب لن تجدي نفعًا.. لو أردت أن تحتل بلدًا فيجب أن تفرغه من موروثه الثقافي أولًا, وهذا ما سيفعله الغرب بعد ذلك بسنوات في جميع الدول العربية.

استأجر «فيليب» سفينة صغيرة بطاقمها المكون من ثلاثة أفراد.. كان يحاول قدر الإمكان أن يبتعد عن نظرات الطاقم.. كان يتجنب التحدث معهم أو مخالطتهم.. يأكل بمفرده أو مع «سالم» الذي بدأ يألفه بطريقة ما.. ذلك الشاب رغم الغلظة والتشرد الباديين عليه فإن الجلوس معه إحسانًا يكون أفضل من لا شيء.. على العموم هو لا يجد غيره.

مرت الأيام على «فيليب» بين قراءاته في الأوراق التي كان الجميع يختلس إليها النظرات ولا يفهمون منها شيئًا.. هو لم يكن يخشى أن يحاولوا تصفحها, فهم لن يستطيعوا قراءتها على كل حال, لكنه كان يخشى أن يروا تلك الطلاسم والرسومات ويفهموا طبيعة عمله أو يرتابوا منه, لو أضفنا تلك الكتابات الغريبة مع سلوكه فسوف يكون مصيره أن يُلقى به في البحر.

وصلت السفينة حيث اتفق «فيليب» معهم.. هؤلاء قوم شرفاء وبسطاء.. أعجب «فيليب» بهم فقد كان يتوقع أن يقتلوه في أي وقت, فقد كان يعتقد أن أي شخص سوف يقتله لو رأى ما معه من عملات ذهبية.. بعد أن نزل من السفينة سالمًا كان يرى أن طاقم تلك السفينة بُلَهَاء لأنهم لم يحاولوا الاحتيال عليه على الأقل.. لا يستطيع أن يتخيل أن هناك من يحترم كلمة الشرف.

المهم أنه وصل.. صحيح أنه لم يصل إلى القرية التي حددتها الكتابات التي معه لكنه وصل إلى اليابسه, ولن يكون عليه ركوب البحر من جديد من أجل الوصول إلى غايته.

جعل «فيليب» «سالم» يسأل البحارة عن طريق الوصول إلى أقرب قرية فوصفوها له.. تردد «فيليب» قليلًا ثم أخرج خريطة من بين ثيابه ووضعها أمام أعين البحارة الذين كانوا يستريحون من تعب الرحلة معه على اليابسة.. حتى البحارة يتعبون أحيانًا من ركوب البحر!

وضع «فيليب» الخريطة أمامهم وسألهم وهو يشير إلى نقطة معينة على الخريطة:

- هل تعرفون كيف نصل إلى القرية الموجودة هنا؟

نظر البحارة إلى النقطة التي أشار إليها وبدا عليهم عدم الفهم, فاستطرد «فيليب»:

- أنا أريد الذهاب إلى تلك النقطة.

لم يَبْدُ عليهم تحسن في حالة فهمهم، فقرر «فيليب» أن يبسط الأمر لهم.. أشار إلى النقطة التي من المفترض أنهم بها وقال لهم:

- نحن الآن هنا.

ثم تحرك على الخريطة إلى الجنوب واستطرد:

- لو وصلت إلى هنا سوف أسير غربًا حتى النقطة التي أريدها.

لم يَبْدُ أنهم يفهمون, فقال لهم «فيليب» بيأس وهو يطوي الخريطة:

- يبدو أنكم لا تفهمون.

رد عليه أكبر البحَّارة سنًّا:

- بل نفهم جيدًا المنطقة التي تريد الذهاب إليها, ونريد أن نحذِّرك.

تحفز «فيليب» وسألهم:

- وما الشيء الذي تريدون أن تحذروني منه؟

حك الرجل العجوز الذي هو أكبر البحَّارة عمامته التي كانت طوال الطريق على رأسه لا يخلعها إلا للوضوء وقال:

- تلك المنطقة التي تريد الذهاب إليها موجودة بين واحة وقرية قريبة من النهر.

عاد «فيليب» يسأل بلهفة:

- ما المشكلة في ذلك؟

عاد الرجل يرد عليه وهو يحك العمامة كأن الكلام يخرج منها:

- هذه المنطقة محرَّمة.. الجميع يعرف أنها مليئة بالكنوز.. ورغم ذلك تقوم القبائل هناك بحماية تلك المنطقة من التنقيب.. يقولون إن ذلك طقس قبلي تقوم به القبائل منذ عهد الفراعنة.. أنت تعرف تلك الأساطير.. ساحر مدفون في تلك المنطقة منذ قديم الأزل والمنطقة ملعونة.

ثم ضحك ساخرًا وأضاف:

- هم لم يذهبوا إلى المدينة.. ما زالوا يعيشون في تلك الخرافات.

فقال له «فيليب» بحماس:

- هل تعرف كيف يمكنني أن أصل إلى هناك؟

رد عليه الرجل محذِّرًا:

- كنت أعرف أن وراءك أمرًا مريبًا.. لكنهم لن يسمحوا لك بالتنقيب.

رد عليه «فيليب» بثقة:

- عندي الطريقة التي سيقتنعون بها.

وكان في نيته أن يرغمهم على الموافقة.. حتى لو قضى على كل من في القرية.

***

كان «ربيع» ينام في غرفة ضيقة بالحديقة الصغيرة الخاصة بالفيلا, لكن «وليد» أخذه إلى غرفة «ديمتري» حتى يستطيع رعايته.. كان «ربيع» خائر القوى

تماماً.. بالكاد يستطيع المشي.

خرج «ربيع» من القبو سعيدًا.. لا يصدق أنه قد نجا من قبضة الحارس.. وعلى الرغم من الألم الذي يشعر به في كل عظمة من عظام جسده, الحرق الشديد الذي فحَّم صدره, فإنه يشعر بالراحة والرضا بعد أن خرج من القبو.

صعد الدرج مستندًا على «وليد» حتى غرفة «ديمتري».. صعد إلى الفراش وظل محملقاً في سقف الغرفة لا يتحرك.. جلس «وليد» إلى جواره على الفراش وسأله:

- كيف حالك الآن يا «ربيع»؟

أجابه «ربيع» بامتنان:

- بخير والحمد لله.. شكرًا لك على إنقاذي.

ربَّت «وليد» على يده برفق وهو يقول له:

- لا عليك.. هل تتذكر كيف وصلت إلى هنا؟

هزَّ «ربيع» رأسه نافيًا وهو يقول:

- كنت كأني في حلم.. أشاهد ما يحدث ولا أفهمه.. لا أستطيع أن أتدخل لأوقفه.. لم أستطع التدخل إلا في اللحظة التي طلبت فيها منك المساعدة.. معظم الوقت لم أكن أعي ما أفعل.

هز «وليد» رأسه موافقاً, فقد كان يتوقع ذلك على كل حال.. بعد أن هدأ

«ربيع» قليلًا سأله «وليد»:

- ألا تريد أن تأكل شيئًا؟

أجابه «ربيع» وهو يحاول أن يعتدل في جلسته:

- لقد حان الوقت كي تعرف حكايتي.

نظر إليه «وليد» في صمت مصغيًا إليه فقد أصبح من المفيد له معرفة كل ما حدث مع «ربيع» الذي استطرد:

- لقد كنت أسكن في إحدى قرى النوبة.. كما تعلم يتميز أهل النوبة بالطيبة والتسامح, ربما ذلك ما هو مشهور عنهم, لكن بالتأكيد كلهم ليسوا كذلك.. أنا كنت من الذين يشعرون دائمًا بالسخط على تلك الحياة.. حياة بسيطة ليس فيها من المتع ما يمكن أن يجده المرء في حياة المدينة التي تصلنا عبر التلفاز.. الأبراج الشاهقة.. السيارات الفارهة.. النساء الجميلات, بالطبع كل ذلك كان مجرد حلم فأنا في قرية متطرفة فقيرة لا يسمع عنها أحد أي شيء.. الشعور بأنك غير مرئي لم يكن جيدًا.. شعورك بالإهمال من الجميع وأنك لست من أبناء هذا الوطن لم يكن جيدًا أيضًا كما أعتقد.. شعور الاضطهاد كان سائدًا في الكثيرين, أما أنا فتميزت بعدم الرضا, فحتى على مستوى قريتي.. كنت فقيرًا أعمل بالأجر لدى البعض, عندما تزوجت كانت أفقر الفتيات وأقبحهن من نصيبي, ربما لأنني لا أملك المال أو الجمال.. كانت الحياة تسير ورُزقت بطفلين لا أعرف عنهما الآن أي شيء.

سكت «ربيع» قليلًا ليلتقط أنفاسه فانتظر «وليد» أن يكمل, بالتأكيد لم تنته الحكاية عند ذلك الحد.. أين «ديمتري»؟

استطرد «ربيع» كأنه سمع ما يدور في خلد «وليد»:

– حتى وصل «ديمتري» إلى القرية.. كان يبدو كسائح عادي في بداية الأمر.

***

لا يعرف «ربيع» كيف رأى «ديمتري» نقمته على حاله التي كانت تملأ صدره, لكنه شعر بها واستغلها.. تعرف «ديمتري» إلى «ربيع» في سوق القرية التي كان «ديمتري» يذهب إليها ليجمع المعلومات التي كان في حاجة إليها, وأي مكان أفضل من السوق لجمع المعلومات؟!

كان هناك بعض الأفواج السياحية التي من الممكن أن تمر على القرية الصغيرة في رحلاتها النيلية, لكن «ديمتري» أتى بمفرده.. استأجر أحد البيوت القديمة وظل به.. كان من الغريب أن يفعل سائح بمفرده ذلك الشيء, لكن ما الشيء الذي يمكن أن يُخيف «ديمتري»؟

بعد مراقبة طويلة لأهل القرية أحس بالسخط الذي ينضح من كل كلمة وحركة من كلمات وحركات «ربيع».. عرف أن «ربيع» هو الشخص المناسب لتلك المهمة.. المهمة التي تحتاج لشخص ناقم.. جشع.. لا يقدس أي شيء.. حتى حرمة الموت.

كان «ديمتري» قد حدد المكان الذي يتوقع أن يكون فيه الكأس والسكين والقلادة.. تلك الأدوات الأساسية اللازمة لإتمام المهمة.. كان كل من بحث قبله ووصله الكتاب كتب ما تعلمه أو استنتجه أو أخبره به الحارس.. أصبحت الصفحات التي كانت قليلة أيام «أنينا» الكاهن، المدفون بالقرب من هذه القرية، كتابًا كبيرًا بلغات متعددة يجمعها الغلاف السميك الذي صنعه شخص ما لا يعرفه «ديمتري» لكنه جدده حتى يتحمل الكتاب.

كانت المنطقة التي من المفترض أن يحفر فيها «ديمتري» قد تحولت مع الوقت إلى مقابر لموتى أهل القرية, وهو يعرف ماذا يعني ذلك.

لقد أصبح من المستحيل الحفر في هذه المنطقة.. حُرمة الأموات عند هؤلاء القوم أعظم من حُرمة الأحياء, هو في حاجة إذًا لمن يقوم بذلك العمل الذي يعتبره البعض عملًا يُدنس صاحبه إلى يوم الدين.

بالطبع رفض «ربيع» في البداية.. قد يكون سيئ الخُلُق لكن ليس إلى حد أن ينبش القبور.. قال له «ديمتري» محاولًا إقناعه:

- لكننا لن نفعل هذا من أجل جثث الموتى.

رد عليه «ربيع» بحزم:

- لا يمكن أن أفعل هذا.

هز «ديمتري» رأسه بحسرة مصطنعة وهو يردد:

- حسنًا.. ليس لنا من نصيب في الكنز المدفون في هذه المنطقة.

التمعت عينا «ربيع» بجشع وأحس «ديمتري» أنه قد ابتلع الطعم فاستطرد:

- تلك المنطقة النائية كان الحفر محرمًا فيها لسنوات.. بعد ذلك تحولت إلى مقابر ولم يهتم أحد بالبحث عن الكنز الموجود تحتها.

رد عليه «ربيع» بشك وقد تذكر أنهم يحفرون بالفعل وهم يدفنون الموتى:

- لماذا لم نجد أي شيء ونحن ندفن موتانا؟

أجابه «ديمتري»:

- لأنكم لا تحفرون إلى العمق الكافي.

أحس «ربيع» بالمنطق في إجابة الرجل فقال متسائلًا:

- لكننا كيف سنحفر دون أن نلفت أنظار أهل القرية؟

أجاب «ديمتري» وقد علم أنه قد ابتلع الطعم:

- المهم أن توافق أنت أولًا على مساعدتي وسوف أقوم أنا بتجهيز كل شيء.

تردد «ربيع» قليلًا, لكنه قال في النهاية:

- حسنًا.. سوف أساعدك.

فضحك «ديمتري» فرحًا ومد يده ليصافحه, لكن «ربيع» قال لـه محـذرًا قبل أن يمد يده:

– لكنني لا أحب الغدر.. نتفق أولًا على حصة كل واحد منا.

ازداد ضحك «ديمتري» الذي كان ينوي أن يتخلص منه بعـد أن يحـصل على ما يريد وقال:

– سوف تحصل على كل ما تريد.

ثم أضاف وهو يضع يده في يد «ربيع»:

– وأكثر بكثير.

ثم تركه يحلم بالثراء.. الفيلا.. السيارة.. الزوجة الحسناء.

***

الوباء...

لا يمكن أن يكون ما يحدث مرضًا عارضًا وسوف ينتهي.. ظهر الأمر في صورة حالات منفردة.. قيء وإسهال يتبعهما ارتفاع في درجة الحرارة.. أيام من العناء والهلوسة قبل أن يموت المريض.. حالة هنا وأخرى هنـاك.. لكـن ذلـك لا يعني أن الأمر قد تطور إلى حد الوباء, وحتى نجـزم بأنـه وبـاء يجـب أن يكـون هناك الكثير من المرضى والكثير من الموتى.. يجب ألا يتوقف الأمر عند حالة أو اثنتين أو عشر حالات.. وهذا ما حدث بعد ذلك.. وصل الأمر إلى كـل بيـت.. لم يعد هناك أحد يخرج من بيته.. الموتى أصبحوا في كل شارع بالقرية.

هنا يظهر الشيخ المبروك.. لا يعرف أحد متى وصل ولا من أين أتى.. فقط جاء مع مساعده «سالم».

كان «فيليب» يرتدي الملابس البيضاء من قدميه حتى عمامة رأسه.. كان يسير بثقة في شوارع القرية التي صارت فارغة تمامًا لا يخشى ذلك المرض الذي يأخذ معه كل يوم أحد الأعزاء على قلوب البعض إلى قبره.

كل من يراه وهو يسير بمفرده بتؤدة وهدوء يتقدمه مساعده تتملكه قشعريرة غريبة.. مهابة الموقف مع الاستعداد النفسي أضفت على الموقف تأثيرًا بالرهبة.

كان «فيليب» متوجهًا مباشرة إلى بيت كبير القرية.. الشيخ «حسين»، والشيخ «حسين» من الذين يعتقدون في أن الأولياء موجودون في كل زمان ومكان لكننا لا نعرفهم.. سوف يتدخلون في أي وقت للمساعدة.. كان «فيليب» قد عرف ذلك عنه، لذلك لم يُرِد أن يخيب ظنه.

طرق «سالم» الباب ففتح له صبي صغير فانحنى عليه وسأله:

– هل الشيخ «حسين» موجود؟

نظر إليه الصبي الذي كان يعرف كل سكان القرية وسأله:

– نقول له من؟

رد «فيليب» هذه المرة بعربية مفهومة لكن تشوبها لكنة غير مريحة

للسامع العربي:

- هو لا يعرفني.. لكنني أعرفه جيدًا.. قل له شيخك يريدك.

دخل الصبي الذي لم يفهم أي شيء ليعود خلف الشيخ «حسين» الذي بدا عليه الغضب.. كان ابن الشيخ «حسين» الكبير مصابًا بذلك المرض الغريب، ويظنه على مشارف الموت.

نظر «حسين» إلى «فيليب» الغريب المظهر وسأله بنفاد صبر:

- ماذا تريد يا سيدي؟

أجابه «فيليب» بغموض:

- بل أنت الذي يريد.

زفر الشيخ «حسين» في ضيق وقال له:

- قل ما تريد بسرعة أو ارحل.. ليس عندي مزاج يسمح بالكلام مع أمثالك.

ابتسم «فيليب» بثقة وقال له:

- يبدو أنك لم تعرفني بالفعل.. لا يهم سوف تعرفني قريبًا.. كيف حال ولدك؟

سأله الشيخ «حسين» بترقب:

- أي ولد؟

أجابه «فيليب» وهو يشير إلى الغرفة القابع فيها الشاب المريض:

- «أسامة».. الشاب المريض.

رد عليه «حسين» بلهجة مترددة:

- اشتد عليه المرض.. لكن كيف عرفت أنت بأمر مرضه؟!

اتسعت ابتسامة «فيليب» وهو يقول له:

- ما زلت لم تفهم.. ربما تفهم عندما تُريني ولدك.. يجب أن أسرع، الوقت ليس في صالحه هذا...

ثم سكت للحظات حتى يرى وقع كلامه على الرجل قبل أن يضيف:

- هذا لو أردت إنقاذه.

بدأ «حسين» يشعر بالثقة في هذا الرجل الذي يبدو عليه الوقار والعلم.. قال له بسرعة:

- تفضل يا سيدي يمكنك رؤيته.

تقدم «حسين» «فيليب» الذي تبعه وهو يتنحنح علامة على دخوله.. دخلوا مباشرة إلى غرفة الشاب.. كان بها بعض النساء وخرجن فور دخول «فيليب».. أمسك «فيليب» برأس الشاب.. كانت حرارته مرتفعة جدًا, وبدأ يشعر بقلق حقيقي.. تمنى لو أنه لم يكن قد تأخر.. قال لـ«حسين»:

- سوف أحاول.. لكنك تعرف أن كل شيء بيد الله.

رد «حسين» والدمع يترقرق في عينيه:

- ونعم بالله.

***

يومان وشُفي «أسامة» تمامًا.. عاد معافى لا يشعر بأي مرض أو ألم.. فقط أثر نومه في الفراش لفترة طويلة هو ما يتعبه.

وعلى الرغم من أن هناك بالقرية من يموت كل يوم, فإن أهل القرية شيء وابن الشيخ «حسين» شيء آخر.. الشيخ «حسين» فرح فرحًا شديدًا لعودة ابنه الأكبر إليه.

وصل الخبر إلى كل بيت بالقرية: هناك ولي من أولياء الله الصالحين في بيت الشيخ «حسين».. ولي يمكنه شفاء ذلك المرض الغريب الذي ظهر بالقرية, وكما يقولون فالغريق يتعلق بقشة.

ذهب عدد كبير من أهل القرية إلى منزل الشيخ «حسين», وطلبوا مقابلة الولي الذي صار يبيت في داره.. رد عليهم الشيخ «حسين» بغضب:

- من الذي أخبركم بأمر ذلك الولي؟

فأجابه أحد الرجال بغضب مماثل ولوم:

- كنت تريد أن تخفيه عنا يا شيخ «حسين»؟!

رد الشيخ «حسين» عليه بسرعة:

- أنت لا تفهم أي شيء.. هذه الأشياء لو انتشرت ذهبت بركتها.

فقال له الرجل بإصرار:

- بل يجب أن نقابله.. لقد جرَّبنا كل شيء.. لو استمر الحال هكذا فسوف نموت جميعًا.

عاد الشيخ «حسين» يقول له:

- لكنه لا يريد أن يقابل أحدًا.

فصرخ فيه الرجل وقد انفجر غضبًا:

- لو كنت تريد المال يا «حسين» حتى تجعلنا نقابله جمعنا لك ما تريد.

فلطمه الشيخ «حسين» على وجهه وهو يقول:

- اخرس يا جبان.

فأمسك الرجل بتلابيب الشيخ «حسين» وهو يقول له:

- تضربني في بيتك يا شيخ «حسين»؟

ولا أدري هنا ما فائدة كلمة شيخ وهو يمسك بتلابيبه ويحاول ضربه!

بدأ الرجال في الفصل بينهما, بينما كان «حسين» يرغي ويزبد وهو يقول بغضب:

- لولا أنك في بيتي لقتلتك يا جاهل.. تريد أن تعطيني رشوة حتى أجعلك تقابل الولي الصالح؟!

همَّ الرجل بالرد عليه, لكنهم سمعوا صوتًا أتى من الأعلى يأمرهم

بالسكوت.. تجمد الكل في مكانه على حاله بعد أن سمعوا صوت «سالم».

كان «فيليب» ينزل الدرج المؤدي إلى الدور العلوي يتبعه «سالم» ممسكاً له طرف ثوبه حتى لا يمس الأرض.. ذلك المشهد جعل الرجال يتجمدون على حالهم.. الرجل ما زال ممسكاً بتلابيب «حسين», وبقية الرجال يمسكون بالرجل و«حسين».

ظل الجميع على ذلك الحال حتى اقترب «فيليب» من الرجل وابتسم له في رقة قبل أن يمسك بقبضته ويبعدها عن «حسين» وهو يقول له:

- كل ذلك من أجل مقابلتي؟!

ترك الرجل تلابيب «حسين» ونزل فورًا على قدمي «فيليب» ليقبلهما وهو يقول له:

- أرجوك يا مولانا.. أولادي سيموتون.. زوجتي سوف تموت.

تركه «فيليب» يقبل قدميه قليلاً قبل أن يضع يده على رأسه ويقول له بورع:

- أستغفر الله يا بني.. قم.

فوقف الرجل على قدميه فقال له «فيليب» بهدوء:

- أولاً يجب أن تعتذر للشيخ «حسين».

تردد الرجل قليلاً قبل أن يعتذر للشيخ «حسين» الذي لم يرد عليه.. كان

«فيليب» يريد أن يسيطر تمامًا على الشيخ «حسين»؛ وقد فعل.

استطرد «فيليب»:

– لم يكن الشيخ «حسين» يمنعني من الخروج لمساعدتكم أو يريد المال حتى يسمح لكم بمقابلتي.. لكن من أرسلني كان لا يريد أن ينتشر خبري بينكم الآن.

الغموض والكلام بضمير الغائب عن شيء فوقي أرسله أعطاه مزيدًا من المصداقية.. أضاف «فيليب» بعد أن أغمض عينيه ورفع رأسه إلى السماء:

– لكن ما دمتم قد عرفتم بوجودي، وقد سمح لي بالخروج عليكم.. فأنا جاهز لعلاج مرضاكم.

ارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل, قبل أن يضيف «فيليب»:

– لكن هناك شيء يجب أن نقوم به في أثناء العلاج.

عاد الصمت يخيِّم على الجميع ولم يجرؤ أحد على سؤاله عن ذلك الشيء.. نظر «فيليب» قليلاً في وجوههم قبل أن يقول:

– الأرض المحرَّمة.

نظر إليه الجميع بخوف قبل أن يقول له «حسين»:

– ما لها الأرض المحرمة يا مولانا؟ لا أحد يذهب إليها, ونحن نمنع التنقيب فيها كما علَّمنا أجدادنا.

رد عليه «فيليب» بغموض:

- لكن الشر.. كل الشر الذي أصاب القرية خرج منها.

فسأله «حسين» في حيرة:

- وماذا نفعل يا مولانا؟!

رد عليه «فيليب» وهو ينظر إلى سقف المنزل:

- الشر المدفون فيها يجب أن نخرجه.

ثم سكت قليلًا قبل أن يضيف:

- لكننا سنبدأ في العلاج أولًا.

وبدأ في كتابة ما يحتاج من طلبات لصناعة أكبر كم من الدواء.. كان كل من بالقرية يساعد بما عنده من مؤن، ومن لا يملك أي شيء يساعد بجهده.. المهم أن يساعد الجميع في شفاء المرضى.. والقضاء على الشر القابع في الأرض المحرمة.

***

كان «ديمتري» يمتلك آلات متطورة تعتمد على الموجات فوق الصوتية تمكنه من معرفة الفجوات الموجودة تحت أعماق كبيرة في تلك المنطقة, التي هي الآن مقابر القرية.. كان معه الكتاب لكن ليس بالكتاب وحده يمكنه إتمام الطقوس.. يحتاج إلى القلادة والكأس والسكين.

حدد «ديمتري» مكان القبر الذي سيحتاج إلى نبشه, وبدأت مهمة

«ربيع».. الأمر يحتاج إلى الكثير من الجهد, لكن الحفر أصبح آمنًا بعد أن تمت رشوة حارس المقابر.

لا أدري لماذا يكونون في الغالب عديمي الضمائر, يسهل رشوتهم والسيطرة عليهم بالمال, كأنهم حصلوا على حصانة من التأثر بالموت من كثرة الموتى الذين يرونهم.

فتح «ربيع» القبر الذي من المفروض ألا يتم فتحه دون تصريح الدفن.. نزل السلالم الحجرية القائمة ليجد نفسه على الأرض الرملية.. ناوله «ديمتري» المصباح وقال له مُطَمْئِنًا:

– لا تخف سوف أنزل معك.. حارس المقابر يراقب لنا الطريق.. لو حدث أي شيء فسوف يخبرنا.

نزل «ديمتري» إلى الأسفل بقفزة واحدة ليقف بجانب «ربيع».. انحنيا حتى يستطيعا الدخول إلى المكان الذي يُدفن فيه الموتى.. كانت رائحة التراب هي المسيطرة على المكان.. «ديمتري» يعرف أن عليهما الحفر حتى عمق كبير.. ربما يحتاج الأمر إلى عدة أسابيع حتى يصلا إلى سطح القصر الذي تم حرقه هدمه على «أنينا».. «ديمتري» يعرف أنه لن يستطيع الوصول دون استعمال أدوات كبيرة, هو يريد التأكد فقط أن ذلك هو المكان المطلوب وبعدها سوف تكون المتفجرات هي الحل.. نعم سوف يقوم بتفجير صغير يمكّنه من هدم جزء يمكنه الدخول من خلاله.

ظلا يحفران لأيام حتى وصلا إلى عمق كبير.. بدأت علامات ونقوش فرعونية في الظهور.. هذا أول طريق الكنز بالنسبة إلى «ربيع»، لكنه لم يكن يعرف أنه أول طريق الأسر الذي سيقع فيه لفترة طويلة.

بدأ «ديمتري» في تثبيت أصابع المتفجرات على ما يفترض أنه سطح القلعة التي أحرقت وتهدمت على رأس «أنينا».. كان يريد الانتهاء من كل شيء بسرعة.. كان «ديمتري» يخشى أن يسمع أهل القرية التفجيرات التي سيقوم بها حتى لو كانت ضعيفة وعلى عمق كبير.

كانت الحفرة التي صنعها «ربيع» و«ديمتري» على شكل بئر عميقة.. بعد أن انتهى «ديمتري» من زرع المتفجرات باحترافية عالية خرج من القبر وأخذ «ربيع» معه.. ثم قال له:

- هيا.. ضع الغطاء على القبر كما نفعل كل يوم.

فعل «ربيع» ما أمر به سيده.. ثم ذهب إليه حيث كان قد ابتعد كثيرًا.. المقابر بعيدة عن القرية، والوقت متأخر.. وضع «ديمتري» إصبعه على زر الإطلاق متمنيًا ألا يكون الصوت عاليًا.. وكان ما تمنى.

هزة أرضية خفيفة شعرا بها.. لا يظن «ديمتري» أن أحدًا قد شعر بأي شيء.. هذا سوف يعطيه المزيد من الوقت.. أشار إلى «ربيع» بإعادة فتح القبر، ليجد «ربيع» أنهم قد أصبحوا فوق هوة واسعة.. الانفجار تسبب في انهيار سقف القلعة التي أحرقها المصريون منذ آلاف السنين.

كانت مخاطرة من «ديمتري» لكنه نزل هو وترك «ربيع» في الأعلى ليسحب الحبل.. نزل «ديمتري» برفق ليجد نفسه في ممر ضيق.. لقد قرأ وصف القلعة جيدًا أكثر من مرة ويحفظه عن ظهر قلب.. هناك الكثير من الممرات التي ردمتها الرمال.. سوف يكون عليه الحفر أو أن يجد ممرًا مناسبًا.. هو يعرف أن الكتاب لم يكن في القلعة, هو يملك الكتاب لكن ينقصه بقية الأدوات.

ظل «ديمتري» يزحف بين الممرات.. لو لم يجد شيئًا في نهاية ذلك الممر فسوف يعني ذلك أنه قد أصبح خارج المكان الذي بنيت فيه القلعة..

ظل يحفر في كل مكان دون أن يجد أي شيء.. شعر بالتعب.. لقد حقق إنجازًا كبيرًا, لكنه بدأ يشك في قدرته على إتمام هذا العمل بمفرده.. بدأ يزحف خارجًا من الممرات ليعود إلى الحبل المتدلي من سقف القبر.. تسلقه بسرعة وخفة, لتمتد يد «ربيع» إليه ليساعده على الخروج.. بعد قليل تلقفته يد أخرى وثالثة ورابعة! يبدو أن هناك رفقة.

عندما خرج «ديمتري» من القبر كان هناك الكثير من الرجال يحملون البنادق في انتظاره, وكان من بينهم حارس المقابر, جلس «ربيع» القرفصاء وأحدهم موجهًا البندقية إلى رأسه.. قال له من يبدو أنه كبيرهم بسخرية:

– تريد أن تخدعنا يا «خواجة»؟!

رد عليه «ديمتري» بهدوء:

– من الجيد أنكم أتيتم.

فعاد الرجل يقول له بغلظة:

- هل تريد خداعنا.. كما ظننت أنك سوف تخدع «حمدان»؟ لقد اكتشف «حمدان» أمر الكنز الذي تبحث عنه وأخبرنا.. إما أن نصبح شركاء وإما نقتلك أنت وهذا الخائن.

رد عليه «ديمتري»:

- يوجد بالأسفل ما يكفي الجميع.. يكفي أهل القرية جميعًا, وأنا كنت أنوي أن أطلب المساعدة على كل حال, لكن هناك بعض المشاكل.

سأله الرجل بشكٍ:

- وما هذه المشاكل؟

أجابه «ديمتري»:

- نحتاج للمزيد من الوقت للحفر, ربما يحتاج أصحاب المقبرة دفن أحد ذويهم لو حدث ومات أحد في أثناء الحفر.

رد عليه الرجل:

- لا تخف أنا صاحب هذه المقبرة ومقابر أخرى حولها, لن يدفن فيها أحد في الفترة المقبلة.

هز «ديمتري» رأسه في رضا وقال:

- حسنًا.. أنا سوف أوفر الأدوات التي نحتاجها للحفر, لكني أحتاج

للرجال.

رد عليه الرجل الذي يبدو أنه كبيرهم بفخر:

- ليس هناك أكثر من الرجال.

فاستطرد «ديمتري»:

- لكن يجب أن يكونوا محل ثقة.

رد الرجل بثقة:

- لا يتنفس أي واحد منهم دون إذن مني.

فابتسم «ديمتري» وقال له:

- من الجيد أنني تعرفت إلى رجل مثلك يا معلم.. ما اسمك يا سيدي؟

رد عليه الرجل بفخر من جديد:

- «رجب».. الحاج «رجب».

وتعاهدَ الجميع على عدم خيانة الأمانة.

***

بدأت صحة المرضى تتحسن.. «فيليب» صار رجلًا مباركًا ومقدسًا عند جميع أهل القرية, لذلك سارع الجميع بتنفيذ طلبه عندما أمرهم بالتنقيب في الأرض المحرَّمة.

كان «فيليب» قد أخبرهم أن هناك سحرًا سُفليًا مدفونًا في الأرض

المحرَّمة, لو لم يجدوه فسوف تعود لعنة المرض مرة أخرى.

ظل الحفر لأيام, ومن عادة الأيام عندما تتراكم أن تكون أسابيع, وعندما تتوالى الأسابيع تتحول إلى شهور.

بدأ اليأس يدب في قلب «فيليب», لقد وجدوا بعض الذهب الذي تحفَّظ عليه «سالم», لأنه ملعون, أو هكذا قال لهم «سالم»:

- ذلك الذهب ملعون ويجب التحفظ عليه.

لا يريد أحد عودة المرض فوافقوه على الفور.. لكن الشيء المهم الذي يريده «فيليب» لا يجده, مجموعة من الأوراق.. لو وجدها فسوف يعود من حيث أتى.

كانوا قد حفروا أخاديد كثيرة في الأرض, وكان اليأس قد تملَّك «فيليب».. في تلك اللحظة إما أن تحدث الانفراجة وإما يضيع كل شيء.

في تلك اللحظة.. خرج أحد الرجال من إحدى الحفر ممسكًا بها.. مجموعة الأوراق التي ينتظرها «فيليب».

كانت الدنيا كلها لا تسعه من الفرحة, لكنه تمالك نفسه وقال للرجال بهدوء:

- اخرجوا جميعًا الآن.

خرج جميع الرجال, فقال لـ«سالم»:

- اتبعني إلى الأسفل.

فنزل «سالم» وراءه والرجال بالخارج يعتقدون أنه نزل بنفسه إلى المكان الذي كانت الأوراق مدفونة فيه حتى يُبطل مفعول السحر.. خرج «فيليب» بعد قليل بمفرده, وقال لهم:

- اردموا كل شيء هنا ولا تجعلوا أحدًا يقترب من تلك المنطقة مرة أخرى, كما كنتم تفعلون من قبل.

فسأله أحدهم بحيرة:

- وأين الشيخ «سالم»؟

أجابه «فيليب» بتأثر:

- ضحى بنفسه من أجلكم.

وبدأ الجميع الردم دون كلمة أخرى.

***

خبر في صفحة الحوادث بالجريدة:

في فصل جديد من مسلسل محاولة التنقيب عن الآثار بطرقة غير مشروعة.. تم العثور على عدد من جثث القتلى في مقبرة بإحدى قرى الصعيد.. من بينها جثة حارس المقابر, الذي يدعى «حمدان».. من الواضح أنها كانت عصبة تنقب عن الآثار وحدث خلاف بين أفرادها أدى لقتل بعضهم بعضًا.. توجهت على الفور قوة مسلحة بقيادة العقيد «أشرف السعيد», وقوة من شرطة

الآثار، وخبراء من وزارة الآثار.

عن المقبرة التي تم اكتشافها قال الدكتور «ناجي النمر»:

– هي ليست مقبرة ذات أهمية تاريخية، فهي لم يكن بها مومياء محنطة، مما يدل على أن صاحبها لم يكن ذا شأن كبير، كذلك لم يتم العثور على أي مشغولات ذهبية أو أوانٍ قَيِّمَة.. لكن سوف يتم ضمها إلى وزارة الآثار على كل حال.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هل تم نهب المقبرة قبل وصول قوات الشرطة؟ ولو لم يكن بها شيء قيم.. فلماذا قُتل كل هؤلاء على بابها؟!

من الظلم أن ندَّعي أن «هتلر» و«موسوليني» هما فقط السبب في الدمار الذي أصاب أوروبا في الحرب العالمية الثانية, لكن شعبيهما أيضًا كان لهما نصيب كبير من المسؤولية, فمثلًا أكبر حشد في التاريخ كان لتأييد «هتلر».. لقد كانا يتمتعان بشعبية جارفة ما داما يقتلان الشعوب الأخرى فقط.

دعنا من هذا الكلام الآن فسوف نعرف علاقة الحرب العالمية الثانية بالأمر بعد قليل, ما يهمنا نحن الآن أن الأوراق قد ترجم «فيليب» ما استطاع منها, وقد ساعد فك رموز «حجر رشيد» كثيرًا في فهم تلك المطويات.

جمع «فيليب» الأوراق والترجمة التي صنعها لها وقام بتجليدها للحفاظ عليها.. أصبحت الآن أشبه بالكتاب, لكن «فيليب» عرف أنه قد تسرع في عودته من مصر.

لقد فهم من الكتاب أن هناك قسمين من الطقوس.. قسم خاص بالاستجواب, وهذا يفضل فيه وجود الكأس والسكين, وجزء آخر خاص باستدعاء الأرواح, وهذا يجب فيه وجود الكأس والسكين, وهذا ما عرفه «ديمتري» بعد ذلك, وعرف أيضًا أن طقوس استدعاء الأرواح كذبة كبيرة.. كما فشل في إعادة ابنه.

أصيب «فيليب» بالإحباط لفشله في طقوس الاستدعاء, وإن كان قد نجح في الاستجواب أكثر من مرة.

لم يكن «فيليب» من أنصار أن يوجد معه مساعدون, لذلك عندما مات نقلت حاجياته التي كان من بينها الكثير من المقتنيات الأثرية إلى خزانة الدولة.. حتى اندلعت الحرب العالمية الثانية.

في لحظة أوج الانتصارات الألمانية.. عندما اجتاحت القوات الألمانية فرنسا, ودخل «هتلر» بنفسه باريس.. عثر أحد الجنود الألمان على ذلك الكتاب.. لا يدري لماذا أخذه معه. لا يعلم لماذا ترك المقتنيات الذهبية وأخذه.. ربما شعر بأهميته أو سمع صوتًا في داخله يأمره بأخذه.. المهم أن الكتاب في النهاية وصل إلى ألمانيا, وبعد ذلك عندما خالفت «ألمانيا» اتفاقية عدم الاعتداء التي أبرمتها مع الاتحاد السوفيتي، واجتاحوا الاتحاد السوفيتي من الشرق.. انضم الدب الروسي إلى جيوش الحلفاء.. ربما لو لم يكن «هتلر» قد أعلن الحرب على الاتحاد السوفيتي لكانت الحرب قد سارت إلى مآل آخر, فالولايات المتحدة لن تخاطر بضرب دولة في قلب أوروبا بسلاح نووي.

المهم.. هُزم «هتلر» ودخل جيش الاتحاد السوفيتي برلين وتم تقسيم ألمانيا بين الحلفاء على أساس شيوعي ورأسمالي, وهذا ما أدى بعد ذلك إلى الكثير من المشاكل واتحاد ألمانيا من جديد.

ذهب الكتاب إلى روسيا, ليصل في النهاية إلى «ديمتري» الذي كان

مجنونًا بعودة ابنه, وفي النهاية انتحر.. بعد أن تأكد أن طريق الموت اتجاه واحد فقط.

***

«عم سعد» الحارس الذي يحرس الأرض المجاورة لمنزل «وليد», الحارس الذي قتل «ديمتري» ابنته.

لم يعد «سعد» إلى بلدته, فهو لم يعد يملك أي شيء فيها.. كان عليه أن يكمل حياته هنا, رغم الألم.. رغم اليأس.. رغم الفقر.. كان الرجل في شدة السذاجة, لذلك لم يعطه «وليد» مالًا, سوف يخدعه أحد ما بعدها بلحظات ويأخذه منه.. كانت طريقة تعويض الرجل المناسبة تؤرق «وليد».. لا يعرف ماذا يفعل له.

عندما حدث ذلك الحادث لابنته تعرف إلى مخبر من القسم يدعى «صابر».. كان «صابر» يبدو كأنه كان شخصين تم ضم أحدهما للآخر جيدًا وصناعة رجل واحد منهما.. كان شديد الطول والعرض والسُمك.. عندما تراه للوهلة الأولى فسوف تقول عنه ساخرًا:

– من هذا الرجل الذي يبدو كالمخبرين؟

لكن حتى تكتمل المفارقات, كان الرجل ساذجًا وطيب القلب إلى حد بعيد.. يمتلك وجهًا طيب الملامح أسمر اللون.. كان القسم الذي يعمل فيه «صابر» في تلك المنطقة النائية قد ساعده على الاسترخاء والراحة وبلادة الفكر.

لا يوجد هنا مسجلون خطر أو شجارات يومية لأن إحدى الساكنات بللت غسيل الجارة التي أسفل منها.. معظم العقارات هنا عبارة عن فيلا أو بيوت منفصلة عن بعضها.. ناهيك من أن معظم الأراضي لم يتم البناء عليها بعد.

كان «صابر» أول من وصل إلى مكان الحادث.. تظاهر برباطة الجأش والحزم وأمر الشابين اللذين كانا يمران مصادفة بالابتعاد عن الجثة وعدم التجمهر.. نظر الشابان حولهما وقالا له بدهشة:

- أي تجمهر لا يوجد غيرنا!

لم يفهم «صابر» بالطبع أنهما يسخران منه.. وصلت سيارة الإسعاف لينزل منها المسعف ويخبر «صابر» أن الفتاة ماتت, وكان عليه أن يقوم بتلك المهمة القاسية.. أن يُخبر والدها.

ذهب «صابر» إليه ولم يكن يجد الكلمات, لكنه في النهاية أخبره أن ابنته صدمتها سيارة وهي الآن في مستشفى قريب, ذهب الرجل إلى المستشفى ليجد ابنته جثة هامدة ويبدأ في الصراخ والعويل.. منذ تلك اللحظة أصبح «صابر» صديقًا له.. بكى بجانبه وظل يربِّت على كتفه.. من قال إن الضخام لا يبكون؟

بعد ذلك أصبح «صابر» يذهب إليه كل فترة ليطمئن عليه, ويشرب معه كوبًا من الشاي.. خصوصًا لو كان يبيت في القسم.. لن يضير أحدًا أن يضيع بضع ساعات من الليل الطويل في نزهة إلى «عم سعد».

كان «سعد» قد بدأ يتعايش مع تلك الحقيقة الجديدة التي لا مفر منها..

رغمًا عنه يجب أن يتعايش معها من أجل بقية الأولاد.. كان الليل قد حل عندما وصـل «صـابر» إلى الغرفـة الـتي صـنعها «سـعد» لنفـسه في تلـك الأرض الـتي يحرسها.. تهللت أسارير «سعد» عندما رأى «صابر» في تلك الليلة وقال له:

- أهلًا بك.. كيف حالك يا «صابر»؟

رد عليه «صابر» وهو يمد يده ليسلم عليه بحرارة:

- بخير والحمد لله.

عاد «سعد» يقول له معاتبًا:

- لماذا تتأخر علي في الزيارة؟ أنا لا أجد أحدًا أتكلم معه.

جلسا معًا على الأريكة الخشبية الموجودة علـى بـاب الغرفـة, و«صـابر» يقول:

- لماذا لا تتحـدث مـع حـارس الفيلا المجـاورة؟ هـل هـو رجـل سـيئ المعشر؟

أجابه «سعد»:

- هو غير موجود من الأساس.. ليس عندهم حارس.

رفع «صابر» حاجبيه في دهشة وقال له:

- كيف لا يكون عندهم حارس في هذه المنطقة النائية؟! أنا نفسي أشعر بالخوف أحيانًا إذا سرت بمفردي بالليل.

رد عليه «سعد» وهو يبتسم من كلامه:

- هم ليسوا في حاجة إليه.. عندهم رجل يعمل لـديهم اسمـه «ربيـع».. أعوذ بالله على شكله.. يشبه الشياطين.. ينتـابني الخـوف عنـدما أراه, والرجـل الكبير صاحب الفيلا.. أظن اسمه «صفوت».. هذا الأخير يشبه «إبليس» شخصيًا.

ضحك «صابر» في سخرية وقال له:

- وأين رأيت «إبليس»؟

رد عليه «سعد» بجدية هذه المرة:

- أنا لا أمزح.. ذلك البيت يحدث فيه شيء ما.. الصراخ الـذي سمعتـه خارجًا منه أكثر من مرة.. الشعور المقبض الذي ينتابني إذا اقتربت منه.

رد عليه «صابر» بقلق:

- ربما يكون طفل صغير أو امرأة أصابها الجنون بسبب الولـد الـذي لا يريد أن يستذكر دروسه.. أنت تعرف هذه الأمور.

فرد عليه «سعد» وهو يهز رأسه بما يعني أن الأمر ليس كذلك:

- لا يوجد بالبيت غير الأستاذ «وليد» ابن صاحب البيت, ووالـده الـذي أظن أن اسمه «صفوت», وذلك المشوّه «ربيع».

هز «صابر» رأسه وردد بلهجة حائرة:

- بالفعل شيء غريب.. لكنك لم تخبرني بمثل هذه الأشياء من قبل.

رد عليه «سعد» بأسى:

- أنا لم أعرفك إلا عند وفاة ابنتي.. في تلك الأثناء لم أكن أملك البال الرائق حتى أخبرك بأي شيء.. ثم ما حدث قريبًا هو ما ذكرني بما كان يحدث في هذا المنزل.

فسأله «صابر» بلهفة:

- وما الذي حدث؟

أجابه «سعد» وهو يتلفت حوله بخوف:

- منذ عدة أيام رأيت «ربيع» يمشي بسرعة غير عادية.. ثم فجأة تسلق السور وتسلق جدران الفيلا حتى دخلها من الدور العلوي.. كان يتسلقها بمنتهى السهولة دون أية معاناة.. بعد ذلك بقليل وصل الأستاذ «وليد»، وبعدها سمعت أصوات أشياء تتحطم وكأن هناك حربًا دائرة بالداخل.. ثم هدأ كل شيء.. في اليوم التالي رأيت الأستاذ «وليد» يخرج ويركب سيارته في هدوء ليشتري بعض الأشياء ويعود إلى البيت.

فسأله «صابر» بتشوق:

- وأين «ربيع»؟ هل ظهر مرة أخرى؟

أجابه «سعد» بغموض:

- لم أرَه من ساعتها.

حك «صابر» رأسه وهو يسأله:

- ماذا حدث له يا ترى؟

رد عليه «سعد»:

- لو أضفنا اختفاء «صفوت» بيه صاحب البيت منذ فترة.. سوف نعرف الحل.

فسأله «صابر» بلهفة:

- وما هو يا ترى؟

أجابه «سعد»:

- يبدو أن الأستاذ «وليد» قتل والده, وقد جاء الخادم للانتقام لموت سيده, لكن الشاب قتله هو الآخر.

نظر إليه «صابر» في حيرة قبل أن ينفجر ضاحكًا ويقول له:

- ألا ترى أن ذلك التفسير قريب بعض الشيء من الأفلام؟ ربما يكون الرجل قد سافر إلى مكان ما.

رد عليه «سعد» بجدية:

- ذلك الرجل لم يكن يترك البيت إلا نادرًا.. لكن هناك تفسير آخر.

فسأله «صابر» وهو يبصق على الأرض علامة على الإثارة:

- ما هو؟

أجابه «سعد» بلهجة غامضة وصوت خافت:

- إنهم يقومون بتحضير العفاريت وعمل أعمال سُفْلِيَّة.

فضحك «صابر» من جديد حتى كاد يقع على الأرض هذه المرة وهو يقول له:

- أي عفاريت يا رجل يا طيب؟! قم وأعد لنا كوبين من الشاي وتعال حدثني أكثر عن ذلك البيت.

فقام «سعد» لعمل الشاي, وظل «صابر» يفكر في أمر الشاب الذي قتل والده, والذي كان من وجهة نظره أكثر واقعية من موضوع العفاريت هذا.

***

الرائد «إبراهيم».. انتقل منذ فترة إلى ذلك القسم الذي يعمل فيه «صابر».. كان سبب النقل كثرة الشكاوى التي وصلت إلى مديرية الأمن والتقارير التي تثبت تورطه بأدلة قاطعة في تعذيب بعض المحجوزين والحصول على اعترافات تحتَ التهديد.. ربما لم يكن «إبراهيم» هو الوحيد الذي يفعل ذلك, لكنه كان الوحيد الذي تناوله الإعلام وأصبح عقابه ولو بصورة صورية أمرًا واجبًا.

في الحقيقة قد يعتبر غيره من الضباط ما حدث له مكافأة وليس عقابًا.. منطقة هادئة.. الموجودون فيها لا تجد فيهم البائع المتجول وضارب زوجته, وتلك المرأة الخارقة التي تخلع فك جارتها إذا نظرت إليها بطريقة لا تعجبها.

لكن «إبراهيم» أحس بالإهانة, رؤساؤه جميعًا كانوا على علم بما يفعل، بل كان البعض يشجعه حتى تنتهي التحقيقات سريعًا, وبعد أن اجتهد وصار مُرَشَّحًا للعمل في جهاز أمن الدولة.. يجد نفسه في ذلك القسم البعيد عن أي شيء.. لا يوجد هنا أي شيء سواء كان سيئًا أو حسنًا.

أيام من الملل حتى يقع بين يديه لص سيارات أو أحد الأغبياء الذين يحاولون سرقة إحدى الفيلات.. يتم الإمساك باللص متلبسًا ومعترفًا, فيبدأ «إبراهيم» بالضرب.. يصرخ اللص معترضًا:

– أنا السارق.. أنا معترف بكل شيء.

لكن «إبراهيم» لا يتوقف وسط دهشة الجميع، ومن بينهم «صابر» الذي كان لا يمانع الضرب, لكنه كان يرى أن «إبراهيم» يضيع طاقته في ما لا يفيد، فما دام الرجل سيعترف فلنوفر الضرب لشخص آخر.. لكن «إبراهيم» كان لا يضمن الحصول على لص آخر يضربه في القريب.

في صباح الليلة التي قابل فيها «صابر» عم «سعد».. عقد عزمه على أن يحكي ما دار بينه وبين «سعد» للرائد «إبراهيم».. هو شرس يتوق لضرب أي شخص وسيهتم بالأمر.

كان «إبراهيم» يملك مواهب حقيقية, لكنه لم يكن يستخدمها.. كان يستخدم أقصر الطرق للوصول إلى الحقيقة.. الضرب.

كان «إبراهيم» يجلس في مكتبه يرتِّب العملات المعدنية التي معه

بعضها فوق بعض تصاعديًا.. من الأكثر لمعانًا للأقل.. نشاط لا طائل منه.. لكنه أفضل من أن يضرب شخصًا ما.

جلس «صابر» على الكرسي أمام مكتب «إبراهيم» دون استئذان, فقد كانت له مكانة خاصة في قلوب جميع من بالقسم.. ربما لأنه يملك الكثير من الأضداد.. قوته مع المجرمين وضعفه مع الضحايا.. قسوته على المذنب وطيبته مع البريء.. قال له «صابر» بطريقة حاول أن تكون مشوقة قدر المستطاع فخرج الرذاذ من فمه وهو يتكلم:

– لقد قابلت «سعد» بالأمس.

لكن يبدو أنه فشل في إثارة انتباه «إبراهيم» الذي ظل مركزًا في ما يفعل وهو يرد عليه ببرود وسخرية:

– حسنًا.. ألف مبروك.

فكر «صابر» في نفسه.. هل يسخر مني؟ لكنه عاد وقال له لأنه يعرف جيدًا أن «إبراهيم» لا يعرف «سعد»:

– «سعد» هذا والد فتاة كانت قد صدمتها سيارة و...

وبدأ في سرد حكاية «سعد» وابنته, حتى شعر «إبراهيم» بالضجر فقال له بملل:

– «صابر».. هل يوجد شيء معين تريد أن تخبرني به.. أم أن ما تفعله

مجرد تضييع للوقت نتيجة الفراغ الذي نعيش فيه؟

أجابه «صابر» وهو يشير بيده حتى يصبر:

- لا يا سيدي.. هناك شيء قد يكون خطيرًا في الموضوع.

بدأ «صابر» في حكاية ما قاله له «سعد» من أدلة بطريقة مشوقة.. كأنه بائع يريد بيع بضاعة بارت عنده ولم يجد من يشتريها, وقد بدأ الاهتمام يظهر على ملامح «إبراهيم» أخيرًا فسأله وهو يتأمل عملاته المعدنية:

- وماذا تعتقد أنهم يفعلون في ذلك البيت؟

تردد «صابر» قليلًا قبل أن يخبره بتفسيرات «سعد».. سكت «إبراهيم» قليلًا وظل يحملق فيه بصمت قبل أن ينفجر ضاحكًا وهو يقول له:

- ما هذا الذي تقوله يا «صابر»؟ عفاريت؟! وصل الأمر بك من كثرة الجلوس في هذا القسم لأن تقول عفاريت؟! وماذا أقول للمديرية؟ سوف نأخذ قوة ونذهب للقبض على بعض العفاريت التي تؤرق السكان؟!

ظل «إبراهيم» يضحك بينما تركه «صابر» حتى انتهى من ضحكه وقال له معاتبًا:

- أنا أقول لك ما قاله لي الحارس.. أنت طلبت مني ذلك.. أن أنقل لك كل ما أعتقد أن له أهمية.

أحس «إبراهيم» أنه قد زاد على الحد في سخريته من الرجل فعاد يقول

له بجدية وهو يكتم ضحكه:

- لا تغضب يا «صابر» أنا أداعبك فقط.

ثم أضاف وهو ينظر إلى الساعة المُعَلَّقة على الحائط:

- لماذا لا يسير الوقت في هذا المكان الممل؟!

ثم استطرد وهو ينظر إلى «صابر»:

- على العموم لن يضيرنا شيء أن نذهب في زيارة إلى ذلك البيت.. نحن لا نفعل أي شيء على الإطلاق.

فهز «صابر» رأسه في رضا وسأله:

- هل سأذهب معك؟

أجابه «إبراهيم» وهو يتخيل أمامه طفلًا صغيرًا تعلق بوالده للنزول معه إلى الشارع:

- بالتأكيد يا «صابر».. أنت من يعرف المكان.

كان «إبراهيم» يراها نزهة ليس أكثر.. نزهة تكسر الملل الذي يصيبه من كثرة جلوسه بلا عمل في ذلك القسم.. ولا يعلم الذي سيقابله هناك.

***

كان «إبراهيم» يرى أنه ليس هناك فتاة على وجه الأرض تستحق أن ترتبط به.. كان قمحي اللون يحلق شعر رأسه تمامًا ليبدو شرسًا.. يهتم بالقيام بالرياضة البدنية بصورة مستمرة حتى يظل جسده ممشوقًا.. بعد كل ذلك الجهد

الذي يبذله ينظر في المرآة إلى نفسه ويقول:

- يا ترى من سعيدة الحظ التي ستتزوجني؟

يراه البعض غرورًا, لكنه يراه معرفة بقدر نفسه.. لذلك لم يتزوج حتى الآن وكل وقته لعمله الذي أصبح مملًا بالنسبة إليه الآن.

ركب «إبراهيم» سيارته الخاصة وذهب معه «صابر» لمقابلة «سعد» وسماع شكوكه بالتفصيل.. عندما اقتربا من المكان زاد «إبراهيم» من سرعة السيارة حتى تحدث عجلاتها صريرًا قويًا عندما يدوس بقدمه على المكابح, وكما أراد «إبراهيم» أصدرت السيارة الصوت المطلوب، كما أثارت التراب من حولها.. كان يحب تلك التأثيرات الدرامية في كل شيء.. كان يتخيل أنه يعيش ومن حوله موسيقى تصويرية لأحد أفلام الحركة.

صوت صرير العجلات المرتفع أثار حفيظة «وليد» الذي كان بالمنزل.. اقترب من النافذة ونظر من بين خصاصها ليرى «إبراهيم» - الذي لا تحتاج إلى كثير من الجهد أو قوة ملاحظة حتى تعرف أنه ضابط شرطة - وهو يتكلم مع «سعد» الذي كان يقول له نفس الكلام الذي قاله «صابر».

بدأ الشك يسري في قلب «وليد».. هو يعلم أن «صابر» مخبر بالقسم تعرف عليه الرجل بعد وفاة ابنته.. مَن ذلك الوافد الجديد الذي يعتقد أنه ضابط شرطة؟ هل للأمر علاقة بالفتاة؟

بعد قليل رآهم يقتربون من باب السور الخاص بحديقة المنزل الصغيرة

ودق الوافد الجديد الجرس بصورة متصلة فترة طويلة.. كان «ربيع» نائمًا لا يزال منهكًا مما حدث له.. فأسرع «وليد» ليفتح الباب ويجد أمامه الرجلين..
سأل «وليد» «إبراهيم» بهدوء:

- أي خدمة؟

أجابه «إبراهيم» بحزم:

- نريد مقابلة الأستاذ «صفوت».

فرد عليه «وليد» بنفس الهدوء:

- لكنه ليس موجودًا.

فعاد «إبراهيم» يسأله بنفس الحزم:

- متى سيعود؟

ليرد عليه «وليد» ببرود:

- مِنْ المفروض أن أتعرف بسيادتك أولًا قبل أن أجيب.. أليس كذلك؟

أجابه «إبراهيم» بكل فخر واعتزاز وهو يعتقد أن «وليد» سوف يخر مغشيًا عليه فور معرفته بطبيعة عمله:

- أنا الرائد «إبراهيم» من القسم.

فابتسم «وليد» رغمًا عنه من طريقة «إبراهيم» المسرحية وسأله بسخرية:

- وماذا تريد يا رائد «إبراهيم» من القسم؟

احمرت أذنا «إبراهيم» من الغضب وقال له وهو يضغط على كل حرف من كلماته:

- أريد مقابلة الأستاذ «صفوت» الآن.

فهز «وليد» رأسه في لا مبالاة وقال له وهو يغلق الباب في وجهه:

- حسنًا هو ليس موجودًا الآن.. تعالَ في وقت آخر.

وضع «إبراهيم» يده أمام الباب حتى يمنعه من غلقه وهو يقول بسرعة:

- هناك شكوى من الجيران بسبب الضوضاء.

عاد «وليد» ففتح الجزء الذي كان قد أغلقه من الباب وهو يسأل:

- هل تقدم أحد بعمل محضر رسمي؟

فغر «إبراهيم» فاهه ببلاهة وهو يرد عليه:

- لا.. لم يفعل أحد ذلك.

فقال له «وليد» وهو يصفع الباب بقوة هذه المرة:

- حسنًا.. عندما يفعل أحدهم ذلك سوف أفتح لك الباب.

وجد «إبراهيم» كرامته قد تبعثرت على الأرض وتحولت إلى خرقة بالية، وما أثار غيظه أكثر وجود «صابر» الذي كان يكتم ضحكه بالكاد.

ابتعد «إبراهيم» وهو يتوعد «وليد» الذي أغلق الباب وظل يفكر في ما

فعل.. ربما كان عليه أن يتركه يدخل بصورة ودية.. لكنه كان يخشى أنه من الممكن لو سمح له بالدخول بصورة ودية ربما يطلب منه النزول إلى القبو بصورة ودية أيضًا, ولو رفض ربما أثار شكوكه.. أما الآن فأمامه بعض الوقت حتى يقوم أحد بتحرير محضر ضده ويستخرجوا أمر تفتيش المنزل.

«وليد» ينوي أن يترك المنزل على كل حال.. كل أوراقه مزوَّرة, كذلك أوراق «ديمتري».. ما يهمه الآن أن يجد بعض الوقت حتى يقضي على حارس الكِتاب, وذلك يستلزم الذهاب إلى الموطن الأصلي للكتاب.. الذي هو قرية «ربيع».

***

– هل انتهيت من كتابة المحضر يا «مجدي»؟

رد الكاتب على «إبراهيم»:

– نعم يا «إبراهيم» باشا.

فأمسك «إبراهيم» به ووضعه في يد «سعد» وهو يقول له بابتسامة مخيفة:

– تفضل يا عم «سعد» وقِّع على المحضر.

ابتلع «سعد» ريقه بصعوبة وهو يقول له:

– لا أستطيع يا سيدي.

زفر «إبراهيم» في ضيق وقال له بغضب:

– أتكلم معك منذ أكثر من ساعة.. أقول لك لا تخف لن يمسك سوء..

أنت نفسك تشك في أمرهم.

فرد عليه «سعد» بتردد:

- أعرف يا باشا لكن...

فقاطعه «إبراهيم» صارخًا:

- لكن ماذا أيها الجبان؟

أجاب الرجل بصوت خائف مرتعش:

- لا أستطيع التوقيع.

فعاد «إبراهيم» يسأله بسخرية:

- لماذا هل القلم فيه كهرباء؟

أجاب «سعد» بخجل:

- لا يا سيدي.. لكني لا أعرف الكتابة.. والدي - سامحه الله - أخرجني من المدرسة.. كنت صغيرًا ومتفوقًا على جميع أقراني بالصف الأول الابتدائي, لكن والدي لم يكن يرى جدوى من التعليم.. أخرجني بعد أسبوع وبدأت...

قاطعه «إبراهيم» وهو يمسك رأسه:

- يكفي يا «سعد».. أين الختم.

فجأة وضع «سعد» يده في جيب الجلباب وأخرج الختم الذي كان مربوطًا

بحبل وأعطاه له بكل فخر وهو يقول:

- تفضل يا باشا.. أجمل ختم.

أخذ «إبراهيم» الختم منه فختم المحضر بينما قال له «سعد»:

- ما هذا الشيء الذي ختمت عليه؟

أجابه «إبراهيم»:

- لا يهم يا «سعد» اذهب أنت الآن.

فقام «سعد» فرحًا لأنه ساعد الحكومة ولم ينسَ أن يؤدي التحية العسكرية قبل خروجه.. بعد أن خرج قال «صابر» الذي ظل صامتًا طوال فترة كتابة المحضر:

- ماذا تنوي أن تفعل بذلك المحضر يا سيدي؟

أجابه «إبراهيم» ببرود وثقة:

- وماذا نفعل بالمحاضر؟

حك «صابر» رأسه قبل أن يجيب:

- عادة لا نفعل أي شيء حتى يعود أصحابها فيسألون أكثر من مرة.

أخرجته إجابة «صابر» من جو الشر الذي كان يعيشه, فعاد يقول بضجر:

- أقصد المفروض أن نقوم بالتحقيق, وهذا ما سنفعله.

رد عليه «صابر» معترضًا:

- لكن المحضر الذي قمت بكتابته يتهم فيه «سعد» أصحاب المنزل بعمل أفعال منافية للآداب.

فقال له «إبراهيم»:

- وماذا في هذا؟

أجابه «صابر» ببراءة:

- لكنك تعلم أن ذلك غير صحيح, وأن هذا المحضر ملفق.

فرد عليه «إبراهيم»:

- المهم أن نلقن ذلك الولد المتكبر درسًا.

فعاد «صابر» يسأله:

- وماذا بعد الدرس؟

فنظر إليه «إبراهيم» بتساؤل, فاستطرد «صابر»:

- سوف نقوم بالتفتيش والتحريات وعمل بعض الصداع لأصحاب المنزل وتسويء لسمعتهم.. ماذا سيحدث بعد ذلك؟ سيكون هذا بلاغًا كاذبًا من «سعد», ويمكن أن يلحق الضرر به.

هز «إبراهيم» رأسه نافيًا وقال:

- الأمر لن يصل إلى هذا الحد.. أنا فقط أريد أن أعلم ذلك الولد أنني

أدخل المكان الذي أريد في الوقت الذي أريد.. لن أجعل الأمر يتطور أكثر من ذلك.

تنهد «صابر» في عدم ارتياح وتمتم:

– أتمنى ذلك.

فقال له «إبراهيم» مطمئنًا:

– اطمئن.. دعنا من ذلك الموضوع الآن.. ماذا سنأكل على الغداء؟

أجابه «صابر» وهو يقوم منتفضًا عن الكرسي:

– لحمة رأس.. سوف أرسل أحد الجنود بسيارة الشرطة.

وأسرع خارجًا يبحث عن سائق سيارة الشرطة وقد قرر أن يأكل لحمة رأس.. دون أن ينتظر ردًّا من «إبراهيم» الذي كان رأسه مشغولًا بشيء آخر غير لحمة الرأس.

***

عندما وصل «إبراهيم» إلى المنزل ومعه تلك القوة الصغيرة من القسم وإذن التفتيش علم من «سعد» أن كل من بالمنزل رحلوا منذ ما يقرب من اليوم.

كان «إبراهيم» سيعود إلى القسم كاسف البال.. لقد استعان ببعض الكلاب البوليسية التي كان الغرض منها إخافة «وليد» ونشر بعض الفوضى في المنزل, بالطبع لم تكن تلك الكلاب موجودة في القسم, لكن أحد أصدقائه في إدارة تدريب الكلاب أرسلها إليه من باب المجاملة.

سوف يكون عليه الذهاب الآن.. سوف تضيع فرصة الانتقام من «وليد»، بالطبع لن يكون من اللائق طلب الكلاب من صديقه مرة أخرى.. لكنه عندما همَّ بالرحيل جاءته فكرة؛ سوف يدخل الحديقة ويفسدها له, وعندما يعود «وليد» يقوم هو بتفتيش المنزل, لكن هل ذلك قانوني؟ هو لا يهتم بتلك الأشياء.. هو فقط سوف يقتحم الحديقة.

كسر «إبراهيم» قفل باب الحديقة وأمر القوة الصغيرة التي كانت معه بالدخول وترك الكلاب لتلعب قليلاً.

ما أثار دهشته أن الكلاب كانت متحفزة وبدأت تشم الأرض بطريقة من يبحث عن شيء ما.. سأله «صابر» الذي كان من ضمن القوة التي ذهبت معه:

– ألا يكفي هذا؟

أجابه «إبراهيم» وهو يوقع عن عمد وعاءً من الفخار فيه نبتة زينة لم يعرفها، لينكسر على الأرض:

– نعم لا يكفي.. لن أرحل حتى أُحدث أكبر ضرر بالحديقة.

لاحظ «إبراهيم» ارتفاع نباح الكلاب, وجرَّها الجنود الذين يمسكون بأطواقها إلى مكان خلف المنزل.. كان الجنود يحاولون السيطرة على الكلاب الهائجة, لكن «إبراهيم» أمرهم بتركها, فتركوها لأن أيديهم كادت تنخلع.. جرت الكلاب حتى وصلت إلى الباب المؤدي إلى القبو, وبدأت الكلاب تخمش الباب الخشبي بأظفارها.. كانت كأنها تحفر في الأبواب لتدخل.

نظر «إبراهيم» إلى الكلاب وفكر: تُرى ما سبب تصميم الكلاب على دخول هذه الغرفة؟ وبدأ يتردد هل يدخل أم يعود أدراجه؟

قرر في النهاية دخول الغرفة.. ضربة واحدة تفتح الباب, وحتى لو لم يكن هناك شيء فلن يستطيع أحد عقابه؛ لأنه معاقَب بالفعل بنقله إلى ذلك القسم.

قال له «صابر» محذرًا:

– يجب أن لا نتمادى أكثر من ذلك.

فرد عليه «إبراهيم» ساخرًا:

– إنها غلطة الكلاب, ونحن نسير خلف الكلاب.

وبدأ يضحك بشدة على دعابته السخيفة وهو ينزل السلم المؤدي إلى القبو.

لا يعرف متى انتابه ذلك الشعور.. كأن الهواء البارد يخرج من القبو.. كأن مزيجاً من الرهبة والكآبة يسيطر على المكان.. الكلاب يصيبها الجنون وتنزل مسرعة إلى الأسفل.. مكان في أرض القبو يبدو كأنه تم حفره وردمه قريبًا.. يهرول «إبراهيم» خلف الكلاب ليجدها تحفر الأرض بجنون.. يلتف الجميع حولها وقد أيقنوا أن هناك شيئًا خطيرًا بالفعل, خصوصًا عندما ظهرت قطعة القماش وبدأ أحد الكلاب يسحبها بأسنانه.. توقف الجميع في رعب إلا الكلاب، فقد ظلت تحفر حتى بدا للجميع أن المدفون في الأرض جثة رجل بالغ.

لكنهم سيعرفون بعد قليل أنها ليست الوحيدة.

***

امتلأ المكان أمام المنزل بسيارات الشرطة وتحول «سعد» فجأة إلى شخصية عامة.. التف الصحفيون من حوله وبدأوا يمطرونه بالأسئلة, وكل واحد منهم يأخذ منه ما يريد لينسج خيوط قصة يريدها هو لجريدته التي ستحقق نسبة بيع لا بأس بها عندما يكون عنوانها الرئيسي: «سفاح يقتل ضحاياه ويدفنهم في قبو منزله».

تلك العناوين هي التي تجعل الناس يشترون الصحف.. لا تتحدث عن الأدب أو السياسة, بل تحدث عن العنف والجنس فيرتفع سهم المبيعات, ربما يقول أحدهم إن هذا الرأي متجنٍّ بعض الشيء، لكن ألا تعتقد أنها الحقيقة؟ ألا تعتقد أن ما له علاقة بالجنس أو العنف يحقق أكبر نسبة ربح؟ ويا حبذا لو كان كلاهما.

جاء بعض الضباط الكبار من المديرية وكان من بينهم أحد المسؤولين عن نقل «إبراهيم», فذهب إليه «إبراهيم» وسلَّم عليه وقال بلهجة ذات مغزى:

– ما رأيك يا سيدي؟

أجابه الضابط الكبير:

– كعادتك يا «إبراهيم» تثبت أنك ضابط كفء.

فرد عليه «إبراهيم» متهكمًا:

- لذلك تم نقلي من أجل أنني قمت بواجبي.

فقال له الضابط بحزم:

- لقد تكلمنا في هذا الأمر كثيرًا قبل ذلك وانتهينا.. أنت أخطأت وأخذت جزاءك.

فقال له «إبراهيم» بعدائية:

- لو كان ما فعلته خطأ.. فجميعكم مشتركون فيه.

سحبه الضابط من ذراعه إلى مكان هادئ وقال له بحزم:

- أنا أراعي شعورك وأتفهم غضبك, لكن ما تقوله سوف يؤذيك.

زفر «إبراهيم» بغضب ولم يرد فاستطرد الضابط:

- لقد كنت صديقًا شخصيًا لوالدك, لذلك أنا أتحملك.. الجميع يتحملونك بسبب تاريخ والدك في الوزارة, لكن لا تراهن على ذلك كثيرًا.

أطرق «إبراهيم» إلى الأرض ولم يرد فاستطرد الضابط بتودد:

- يجب أن لا تعتبر نقلك إلى هنا عقابًا.. آخرون يتمنون الخدمة في هذه المنطقة.

رد عليه «إبراهيم»:

- لكن النقل بهذه الطريقة عقاب، ولو كان إلى الجنة.

هز الضابط رأسه وقد علم أنه لن يستطيع إقناعه وهو يقول:

– حسنًا يا «إبراهيم»، والآن اكتشفت جريمة سوف ترفع أسهمك في الوزارة والصحف من جديد، وربما تتم استضافتك في إحدى القنوات الفضائية كذلك.

رد عليه «إبراهيم»:

– لكن كل ذلك لا يهمني.. أنا أريد شيئًا آخر.

نظر إليه الضابط بشك لأنه قد توقَّع مطلبه وقال:

– ماذا تريد يا «إبراهيم»؟

رد «إبراهيم» على الفور:

– أريد العمل على هذه القضية.

فقال له الضابط:

– لكنك تعرف أن ذلك عمل المباحث، ولو تطور الأمر فسوف يكون عمل أمن الدولة.

فرد عليه «إبراهيم» مجادلًا:

– لكنك تعرف يا سيدي أنني كنت في المباحث الجنائية، وكنت مرشحًا للعمل في أمن الدولة.

فعاد الضابط يقول له:

– لكن كثرة الشكاوى والكلام حولك هو ما ألقى بك في النهاية في هذا

المكان.

فقال له «إبراهيم» متوسلًا:

- أريد فرصة أخيرة يا سيدي في هذه القضية الكبيرة.

سكت الضابط كأنه يفكر ثم قال له وهو يعود إلى رجال المعمل الجنائي ليرى ما أحرزوا من تقدم:

- سوف أحاول أن أجعلك تشارك في هذه القضية بطريقة ما.

فابتسم «إبراهيم» في رضا وهو يمني نفسه بالعودة إلى اللعبة التي يحبها كثيرًا.. لعبة القط والفأر.. لعبة الصيد.

## هروب

القطار.. وسيلة المواصلات المحببة إلى الكثيرين من أصحاب النفوس التَّوَّاقة للتأمل, أو من يحبون النوم وهم يهتزون كالأطفال.. لكن الرحلة طويلة يأخذها قطار النوم فيما يقرب من ثلاث عشرة ساعة.

قام «وليد» بحجز كابينة خاصة به و«ربيع».. حتى يجلسا فيها دون مضايقة من أحد.. لم يركب «وليد» الطائرة حتى لا يسهل العثور عليه.. هو لا يخشى أن يتم القبض عليه, لكنه لا يريد ذلك الآن قبل أن يُتم مهمته.

هو لن يستطيع النوم، على العكس من «ربيع» الذي ما زال متعبًا فتمدد على الفراش الصغير الخارج من جدار العربة ونام, ليظل «وليد» بمفرده يفكر ويتذكر.. هل نسي شيئًا ما قبل سفره؟

لقد أخذ كل الأوراق التي تدل على هوية «ديمتري» المزيفة التي صنعها لنفسه بعد أن استقر في مصر.. أخذ كذلك كل الأوراق الخاصة بـ«ربيع» أو به.. معظم الأوراق والهويات التي كان يستعملها كانت مزوَّرة, مهما بحثوا فلن يجدوا عنه أي شيء, سيكون الأمر كأنه لم يكن موجودًا من الأساس.. لقد تأكد من أنه لم يترك أثرًا وراءه.. لكنه على الرغم من حرصه الشديد يشعر أنهم سوف يعثرون عليه في النهاية.. ظل يعصر مخه من جديد علَّه يتذكر ذلك الشيء

الذي نسيه.. بالتأكيد نسي شيئًا ما.. حسابات البنوك أفرغها وحوَّل المال إلى عملات أجنبية كبيرة وهي معه الآن في هذه الحقيبة الصغيرة.. من يتوقع أن هذه الحقيبة الصغيرة بها ما يوازي الملايين؟ لقد سافر على عجل وبالتأكيد نسي شيئًا ما.. هو لا يحب أن يجد الشرطة فوق رأسه فجأة وقد أوشك على التخلص من الكتاب.

بينما كان «وليد» جالسًا ينظر إلى اللاشيء.. سمع الطرقات الخافتة على باب الكابينة.. تنبهت حواسه.. هل وجدوه بهذه السرعة؟ لقد وقع أسرع مما يتوقع.

وقف خلف الباب وسأل بحذر عن الطارق، فسمع صوتًا يرد عليه بتردد وخجل:

- آسف يا سيدي، لكن هناك مشكلة بسيطة.. هل يمكنني رؤية التذاكر؟

كان «ربيع» قد استيقظ وجلس على الفراش مرتاعًا، فتح «وليد» الباب فأومأ الموظف إليه برأسه في خجل وقال له:

- لقد وقع خطأ غير مقصود يا سيدي.. هل يمكن أن...

قاطعه «وليد» بغلظة وهو يضع التذاكر في يديه قائلًا:

- تفضل هذه هي.. لقد أفزعت والدي.

بالطبع كان من الغريب أن يكون «ربيع» بملامحه هو والد «وليد»، لكن الموظف ألقى نظرة سريعة على التذاكر واعتذر قائلًا قبل أن يخرج:

- آسف يا سيدي.. لكن يبدو أن هناك خطأً في رقم إحدى التذاكر.

فهز «وليد» رأسه ولم يرد فاستطرد الموظف موجِّهًا كلامه لـ«ربيع» قبل أن يخرج:

- آسف يا حاج.. سلام عليكم.

أغلق «وليد» الباب خلف الرجل، وعندما التفت إلى «ربيع» ليطمئنه وجده قد عاد إلى النوم.. لقد أصبح ينام بسرعة من بعد موت «ديمتري» ربما لأنه بات يشعر بالراحة نوعًا ما، ومن بعد خروج الحارس من جسده صار منهكًا كأنه يعمل حمالًا طوال النهار.

عاد «وليد» إلى سكونه وتأمله.. بالتأكيد نسي شيئًا ما.. لكن يا ترى ما هو؟

***

عندما تكون مستعجلًا حدوث الشيء فإنه لا يحدث بسرعة أبدًا، وعندما تكون في أشد الحاجة للوقت يجري الوقت بسرعة مبتعدًا.. يحدث في انتظارك الحافلة.. يحدث في الامتحان.. يحدث عندما تكون هاربًا في قطار النوم وأنت تتوقع أن يتم اتهامك في جريمة قتل، ليست جريمة واحدة بل عدة جرائم.. ربما إحداها لم تكن تقصدها.. ربما تكون الجريمة الأخرى انتحارًا.. ربما يكون

«بهجت» أو «سليمان» يستحق ما حل به.. لكنك لست قاضيًا.. أمامك الكثير لتشرحه.. سوف تتكلم بصراحة ويتم عرضك على مستشفى الأمراض العقلية عندما تخبرهم بأنك تتحدث مع الموتى.. سوف يكون التقرير أنك تدَّعي الجنون، ويكون حبل المشنقة مصيرك.. لن تفلت من العقاب.. كل المقدمات تصب في أن نهايتك التأرجح على حبل المشنقة.. كل ذلك بسبب أمٍّ غير مسؤولة.. بالطبع ذلك وصف شديد التهذيب لها بعد ما فعلته.. لقد ماتت على كل حال.

ربما يكون قدره أن يصل إليه الكتاب حتى يدمره.. تحسس حقيبة اليد التي لا يتركها من يده أبدًا.. فيها الكتاب والكأس والسكين والقلادة التي كان «ربيع» يرتديها.. مجرد وجود هذه الأشياء معه تجعله عرضة للاعتقال بتهمة الاتجار في الآثار.. لكنهم بعد ذلك سوف يعرفون أنه هو المطلوب القبض عليه في عدة جرائم قتل، وتكون أيضًا نهايته حبل المشنقة.

لم يخرجه من تلك الخواطر غير وصول القطار أخيرًا.. لم يستطع النوم طوال تلك الفترة, بينما استمتع «ربيع» بنوم طويل.. أيقظه «وليد» والقطار يدخل محطة الوصول.. فقام يتمطى سائلًا بصوت ناعس:

– هل وصلنا يا سيدي؟

أجابه «وليد» وهو يضحك لنومه الطويل:

– نعم يا «ربيع».. لقد وصلنا.. ما كل هذا النوم؟

ابتسم «ربيع» وهو يفرك عينيه وقال:

- أنا لم أنم منذ سنوات.. منذ أتيت مع السيد إلى القاهرة.

فهز «وليد» رأسه ولم يعقبٍ, بل بدأ في تحضير الحقائب حتى ينزلا من القطار.. في أثناء نزولهما قابلا الموظف مرة أخرى الذي أقلق نوم «ربيع» فاعتذر له، لكن ذلك الأخير لم يتذكره ولم يفهم سبب كلامه له.

أسوان مدينة جميلة وهادئة.. سوف تخرج من محطة القطار التي لها واجهة فرعونية بالطبع - لو لم تكن محطة قطار أسوان لها واجهة فرعونية فأي محطة يجب أن يكون لها؟! - لتجد أمامك حديقة صغيرة بها نافورة ماء.. يعرف «وليد» أنه لو سار في الشارع العمودي على محطة القطار فسوف يصل إلى ضفاف النيل، والنيل هنا يختلف عن ذلك الموجود في القاهرة تمامًا.. كأنه نهر آخر غير ذلك الموجود وسط الزحام.. منظر جميل يود لو يراه لكن لا يملك الوقت للجلوس والتأمل.. يمكنه أن يكتب مئات القصائد لو جلس قليلًا أمام ذلك النهر في هذه المنطقة بالذات.. ليس غريبًا أن يخرج «العقاد» من هنا.

كان هناك الكثير من سيارات الأجرة الواقفة أمام المحطة.. كل الناس هنا تبدو عليهم الطيبة.. السمرة تعطي إحساسًا بالطيبة.. لكنه لن يستقل سيارة أجرة من أمام المحطة, حتى يصعِّب الأمر على من سيتعقبه.

من الذي أخبره بانكشاف أمره؟ لم يخبره أحد هو مجرد حدس حتى الآن لكنه سيتأكد منه بعد ذلك، وعلى كل حال لو كانوا قد وجدوا الجثث فبالتأكيد هم يبحثون عنه الآن.

ابتعد «وليد» قليلًا عن المحطة ليرى سيارة بيضاء فيهَمَّ بإيقافها, لكنه يعود فيحجم عندما يرى لوحاتها تدل على أنها سيارة خاصة, لكن سائق السيارة لمحه وفهم ما يريد فاقترب منه سائلًا:

– هل تريد سيارة أجرة يا أستاذ؟

كان الرجل يبتسم في أدب تظهر أسنانه البيضاء بوضوح في وجهه الأسمر البشوش.. اطمأن له «وليد» فرد عليه بأدب مماثل وهو يبتسم بخجل:

– لا تؤاخذني لقد ظننت سيارتك أجرة.

فقال له الرجل بعد أن نزل من السيارة بسرعة وهو يحمل الحقائب عنه:

– تفضل معي أنا أعمل بالسيارة كأنها سيارة أجرة.

ركب معه «وليد» وهو لا يفهم، فأضاف الرجل بعد أن ركب الجميع السيارة:

– أنا أعمل بالسيارة كأنها أجرة بطريقة غير رسمية.. السياحة متوقفة هذه الأيام ونحن نحاول الحصول على قوت اليوم بالكاد.. بالطبع سائقو الأجرة يغضبون من هذه الأفعال, لذلك أفضّل أن أعمل بعيدًا قليلًا عن المحطة.

هز «وليد» رأسه وابتسم في المرآة للرجل الذي كان ينظر إليه.. ظل الرجل قليلًا صامتًا قبل أن يسأل:

- إلى أين سوف تذهب يا أستاذ؟

بالطبع لم يكن «وليد» يعرف أي شيء عن المدينة.. هو يريد نُزُلًا صغيرًا بعيدًا عن الأنظار.. لكن كيف يطلب منه ذلك المطلب دون أن يثير شكوكه.. قال له «وليد»:

- هذه أول زيارة لي لأسوان.. لقد جئت مع والدي لزيارة بعض الأقارب.. هم في الحقيقة ليسوا من أسوان نفسها هم من قرية بالقرب منها, لذلك نحن نريد مكانًا للمبيت يومًا أو يومين.. لكن نريده أن يكون قليل التكلفة.

نظر السائق إليه قليلًا ثم سأله:

- هل تقصد يا أستاذ أنك تريد مكانًا رخيصًا للمبيت؟

هز «وليد» رأسه بالإيجاب.. فتهللت أسارير الرجل وقال له:

- لماذا لم تَقُل ذلك من البداية؟

ثم التفت إليهما قبل أن يتحرك - فالسيارة لا تزال واقفة لأن الرجل لا يعرف وجهتهما - وقال لهما بسرور:

- أنت لا تبدو من الصعيد على عكس الحاج من أين أنت يا حاج؟

رد «ربيع» على الفور بفرح وأخبره باسم قريته, فنظر إليه «وليد» نظرة نارية ففهم «ربيع» الخطأ الذي وقع فيه, لكن الرجل لا يبدو عليه أنه يمكنه تذكر أي شيء على كل حال.. قال لهما الرجل وهو يدير محرك السيارة أخيرًا:

- هيا بنا إلى «فندق اللوتس».. إنه طلبكما بالضبط.. فخامة وهدوء وراحة في كل شيء حتى الأسعار.

***

الاستعانة بالرسام الخاص بالمباحث حتى نحصل على صورة للمجرم من وصف الشهود له طريقة جيدة، لكنها ليست بسيطة كما تبدو.. خصوصًا إذا كان من يصف الشخص هو العم «سعد».

في البداية بالطبع لم يفكر «إبراهيم»، الذي أُسندت القضية إليه بعد اعتراض رجال المباحث، في ذلك, لكنه اضطُر إلى هذه الطريقة بعد أن فتَّشوا في المنزل ولم يجدوا أثرًا لأي ورقة رسمية.

فكر «إبراهيم» بصاحب البيت الأصلي الذي اشترى منه «ديمتري» المنزل, وجده «إبراهيم» بعد سؤال الشهر العقاري, وكان يحتفظ بعقد البيع وصورة من بطاقة شخصية باسم «ديمتري» المستعار وعليها صورة غير واضحة له, بالكشف عن تلك البيانات اتضح أن الهوية مزوَّرة، حتى المعلومات القليلة التي كانوا يملكونها اتضح أنها غير حقيقية.. لم يعد أمامهم إلا الطرق القديمة.. صورة المشتبه به والسؤال عنه في كل مكان محتمل وجوده فيه.

كانت عملية رسم «وليد» مرهقة ومتعبة.. ساعات وساعات.. أحرق فيها «إبراهيم» العشرات من لفافات التبغ وشرب جالونات من القهوة، بينما نام «صابر» على أحد المكاتب في الغرفة, والرسام ارتفع ضغط دمه.. كان يرسم الأنف

فقال له «سعد»:

- لا أنفه ليس كذلك.

فرد عليه الرسام:

- حسنًا.. كيف يبدو إذًا؟

فكر «سعد» قليلًا قبل أن يجيب:

- أظنه أنفًا أجنبيًا.

حاول الرسام أن يكتم غيظه وهو يسأله:

- وكيف يبدو الأنف الأجنبي؟

حك الرجل عمامته وهو يردد:

- أجنبي.. أجنبي.

كان الرسام صبورًا إلى أقصى حد.. أخرج مجموعة من الصور, وبدأ في عرضها عليه وهو يحاول مساعدته:

- هل كان مدببًا مثل هذا؟ هل كان واسع الفتحات مثل هذا؟

ظل على هذا الحال حتى صرخ «إبراهيم» بغضب وقال:

- كفى يا «سعد».. كفى.. أنت تقول إن ذلك المدعو «ربيع» شكله مميز فلنرسمه.. ربما يكون رسمه أسهل.

استحسن «سعد» الفكرة وبدأ في وصف «ربيع» للرسام الذي كان موشكًا

على البكاء.. بعد قليل اتضح أن هذه الطريقة فاشلة أيضًا.. نفس المشاكل مع التفاصيل.. «سعد» لا يستطيع أن يصف أي شيء بدقة.. تمتم «إبراهيم» بيأس وهو يهز رأسه:

– لا فائدة.. لو كانت معنا صورة لأي منهما لكان الأمر سيصبح أسهل بكثير.

كان «إبراهيم» يقول ذلك وهو يقف خلف «سعد» الذي التفت إليه فجأة وسأله:

– هل المشكلة مشكلة صورة لـ«ربيع» أو الأستاذ «وليد»؟

أجابه «إبراهيم» وهو لا يعرف سبب الاهتمام المفاجئ منه:

– نعم.. لو معنا صورة لأحدهما لوفّرت علينا الهم الثقيل الذي نحن فيه الآن.

وضع «سعد» يده في الجيب الداخلي للجلباب وهو يقول بفخر وسخرية:

– لماذا لم تقل هذا من البداية؟

ثم أخرج هاتفه المحمول وبدأ في التقليب فيه ثم وضع شاشته أمام وجه «إبراهيم» وهو يقول له:

– هل يمكن استخدام هذه؟

كانت صورة فتاة تقف وهي تبتسم وبجانبها سيدة تبدو أنها والدتها..

لم يفهم «إبراهيم» مراد الرجل فسأله:

- ما علاقة هذه السيدة بالقضية؟

فرد عليه «سعد» بفزع:

- هذه ابنتي الله يرحمها.. صورتها مع أمها في إحدى المرات القليلة التي كانت صحتها فيها جيدة.. أرجوك يا سيدي زوجتي ليس لها علاقة بالقضية.

فسأله «إبراهيم» بغضب وقد ظن أن الرجل فقد عقله من طول الجلوس معهم:

- أنا أعرف أن زوجتك ليس لها علاقة بالقضية وبالتأكيد ابنتك.. لكني أبحث عن «وليد» أو «ربيع» فهل هذه الفتاة «وليد» وهذه السيدة هي «ربيع».. من منهما «ربيع»؟!

نظر إليه «سعد» بدهشة وقال له:

- «ربيع» هو من يقف عند باب المنزل ينظر إليهما.

أخذ «إبراهيم» الهاتف منه بسرعة ودقق النظر في الصورة.. كان المنزل يظهر من خلف الفتاة و«ربيع» يقف عند بابه ينظر إليهما بطريقة غريبة.. ربما يحسدهما أو يتحسر على الحياة التي أضاعها بطمعه.. كان وجهه بعيدًا لكن ملامحه واضحة.. وضع «إبراهيم» الصورة أمام الرسام وسأله:

– هل يمكن معالجة الصورة حتى نستطيع توضيح صورة ذلك الرجل فقط؟

نظر الرسام إلى الصورة وقال بفرح:

– بالطبع يمكن, وحتى لو لم نستطع فسأقوم بالرسم من هذه الصورة.. أرحم من وصف عم «سعد».

أحس «إبراهيم» أنه كان موشكاً على الغرق وألقى إليه أحدهم طوق النجاة, لكنه تذكر أن «سعد» لم يقدم له الصورة من البداية فسأله بغيظ:

– لماذا لم تُرِنا هذه الصورة من البداية يا عم «سعد»؟

أجابه الرجل وهو يهز كتفيه بلا مبالاة:

– كنت أظنك تريد رسم صورة له بالقلم الرصاص.

شعر «إبراهيم» بارتفاع في ضغط دمه وعاد يسأله:

– ولماذا أريد أن أرسم له صورة بالقلم الرصاص؟ هل قال لك أحدهم إنني أحب الرسم؟

أجابه «سعد» ضاحكاً:

– إنهم يفعلون ذلك في كل الأفلام.

تحسس «إبراهيم» مسدسه وفكر في إطلاق النار على «سعد» الذي كان يضحك بطريقة استفزته, لكنه عدل عن الفكرة.. ذلك الرجل يبدو ساذجًا إلى

أقصى حد.. من الجيد أن فكرة إخراج تلك الصورة خطرت بباله من الأساس.

بعد قليل سيكون معه ما يمكن أن يوصله إلى بداية الخيط.

***

عندما وصل «وليد» إلى «فندق اللوتس» وجده أسوأ مما توقع بكثير؛ وهذا ما أعجبه.. كلما كان المكان فقيرًا وبعيدًا عن وسط المدينة كان أفضل.

كان المكان عبارة عن بناية قديمة من أربعة طوابق غير الطابق الأرضي الذي كان عبارة عن مدخل واسع موضوع فيه بعض الكراسي الكبيرة غير المتناسقة مما يدل أنها قد جُمعت من الكثير من الأطقم.. كذلك تلك الأريكة المهترئة التي يبدو عليها آثار الزيت أو الشحم.. يوجد تمثال فرعوني في أحد الأركان من وضعه اعتقد أنه بذلك جعل من المكان متحف فنان عصري.

البناية في شارع ضيق يبدو أنه سوق للملابس وبعض المقتنيات التي يحب السائحون شراءها.. وصلت السيارة إلى الفندق – أو هكذا يدعي السائق من باب المجاملة فهذا المكان لا يمكن أن يقال عنه ذلك – فقال لهم السائق بفخر:

– مرحبًا بكم في «فندق اللوتس».

بالطبع كان هناك شعار زهرة اللوتس في كل مكان.. على اللافتة المتسخة.. على الجدران.. على جلباب الفتى الذي جرى إلى السيارة ليساعدهم في حمل الحقائب.. كانوا يريدون أن يوحوا للقادمين برقي المكان.

كل ذلك لم يُثِر فضول «وليد».. ما أثار فضوله وجود أجانب بالمكان..

بالطبع كانوا يختلفون عن الصورة الذهنية الموجودة عنده عن الأجانب.. ما الذي يجعل سائحًا يبيت في ذلك المكان؟! شعر بالقلق عندما رأى ملامح بعضهم التي تذكرك بالمجرمين.. هو لا يريد المشاكل, لكنه لا يعرف لماذا يشعر نحوهم بالقلق.

بمجرد أن دخل السائق مع «وليد» و«ربيع» قامت سيدة كانت تجلس خلف منضدة عملاقة لتسلم عليه.. كانت سيدة بدينة ترتدي جلبابًا أبيض واسع الأكمام؛ وبالطبع عليه علامة اللوتس.. صافحت الرجل على طريقة قرع الكفوف وهي تقول له:

- كيف حالك يا «عبد الرحيم»؟ لم أرَك منذ مدة.. هل تعمل مع أحد غيرنا؟

كان صوتها أجشًا يشبه صوت الرجال.. ملامحها كذلك لا تختلف كثيرًا عن ملامح السائق الذي اتضح أن اسمه «عبد الرحيم».. أجابها «عبد الرحيم» ضاحكًا:

- لا والله يا سيدة «حسنة».. لكن سائقي الأجرة عرفوا شكلي ويتشاجرون معي كلما رأوني.. لذلك أعمل من بعيد لبعيد.

فهم «وليد» الآن كيف يقومون بالعمل.. ذلك الرجل يأتيها بالزبائن.. ربما يأخذ عمولته, وإذا احتاج أحدهم توصيلة تتصل هي به.. تبادل تجاري ناجح.

استطرد «عبد الرحيم» وهو يقدم «وليد» كأنه عريس جاء لخطبة السيدة لا للمبيت عندها:

- الأستاذ جاء من القاهرة اليوم ويريد غرفة للمبيت يومًا أو يومين.. أنا أعرف أن الفندق مزدحم، لكنك بالطبع سوف تتصرفين.

هزت «حسنة» رأسها في حزن وهي تقول له:

- أنت تعلم يا «عبد الرحيم» الموسم، والغرف كلها محجوزة.

نظر «وليد» إلى مفاتيح الغرف المعلقة على الحائط خلف السيدة وعرف أنها تكذب.. معظم الغرف فارغة.. لكنه تركها تكمل التمثيلية التي تقوم بها وادعى الغباء حتى يسلم من شكهما.

عاد «عبد الرحيم» يقول لها بتوسل كاذب:

- أرجوك نريد أي غرفة.. لا يمكن أن نتركه بالشارع.

كان أداؤه التمثيلي شديد السوء.. واضح أنه يدَّعي.. لا ينقصه سوى أن يبكي ويصرخ قائلًا:

- أرجوك يا «حسنة» لا تتركيني.

بعد توسله ولأن السيدة «حسنة» طيبة القلب, وبعد أن كاد «وليد» يستجوبها حتى يعرف الغرفة الفارغة ليستريح قالت:

- غرفة واحدة فقط هي الفارغة.

ثم سكتت قليلًا وهي تتوقع أن «وليد» سوف يفقد الوعي من شدة الإثـارة قبل أن تستطرد:

– لكنها غرفة مميزة وسعرها ربما...

لم تكمل السيدة بل اكتفت أن غمـزت بعينهـا كنايـة عـن ارتفـاع سـعر الغرفة فقال لها «عبد الرحيم»:

– لكننا نريد تخفيضًا للأستاذ.

ردت عليه السيدة بامتعاض:

– سوف أحاول.

ثم عادت إلى مكانهـا خلـف المكتـب وفتحـت الـدفتر لترتـدي عوينـات خاصة بالقراءة قبل أن تنادي بصوت عالٍ:

– يا «طه».. يا «طه».

جاء إليها جريًا الفتى الـصغير والـشخص الوحيـد الـذي يعمـل عنـدها بالإضافة إلى السيدة العجوز التي تأتي كل فـترة لتنظيـف المكـان.. وقـف «طـه» أمامها مؤديًا التحية العسكرية وهو يقول لها بأدب:

– تحت أمرك يا سيدة «حسنة».

فقالت له بحزم:

– خذ حقائب الأستاذ إلى الغرفة الثالثة في الدور الثـاني وافـتح الغرفـة

للتهوية وقم بترتيبها قبل أن يصعد.

فهز الفتى رأسه وأخذ الحقائب من «وليد» الذي لم يعطه حقيبة يده التي بها المال والكتاب وملحقاته.. قالت السيدة لـ«وليد» وهي تشير إلى الأريكة المتسخة الموجودة في المدخل بعد أن صعد الفتى بالحقائب:

- تفضل بالجلوس حتى يقوم «طه» بترتيب الغرفة.

رد عليها «وليد» قبل أن يتحرك:

- لقد نسيت أن تخبريني بأجر الغرفة.

فأخبرته السيدة وهي تتوقع أنه سوف يحاول أن يخفضه.. لكن أدهشها أنه أخرج محفظة نقوده وأخرج بعض الأوراق النقدية وهو يقول:

- هذا أجر ثلاثة أيام.

كان «وليد» لا ينوي المكوث كل هذه المدة.. لكنه كان يريد أن يذهب دون أن تلاحظه تلك السيدة.. كان يريد أن يذهب فجأة.

أخذت السيدة النقود في فرح وهي تقول له:

- شكرًا يا أستاذ.. هل يمكن بطاقتك الشخصية حتى نكتب البيانات حتى ينتهي «طه» من ترتيب الغرفة.

أعطاها «وليد» بطاقته التي ليس لها سند حقيقي لتكتب هي البيانات الخيالية الموجودة بها, وبعد أن فرغت ذهب ليجلس على الأريكة بجانب

«ربيع» الذي لم يعد يقوى على الوقوف طويلاً.

كان الرجل الأجنبي ينظر إليه بطريقة غريبة.. ذلك الرجل تبدو ملامحه روسية.. كيف عرف؟ الروس يختلفون كثيرًا عن الأوروبيين.. ربما حياته مع «ديمتري» جعلته يتعرف عليهم بسهولة.. هل يمكن أن يكون الحارس قد وجد طريقة أخرى للسيطرة على أحد ما ومطاردته؟!

ظل «وليد» يختلس النظر إلى ذلك الرجل العجوز الذي كان يحملق فيه بعينين متسعتين لا تتحركان.. يبدو كأنه نائم أو شارد الذهن.. بعد قليل جاء رجل آخر واقترب من الرجل العجوز فأمسك بيده ليساعده على النهوض ثم هز رأسه في أدب لـ«وليد» محييًا وقاد الرجل العجوز وذهبا.

يبدو أن الرجل العجوز كان كفيفًا.. ويبدو أن على «وليد» الهدوء قليلاً.. فالطريق إلى المقبرة لم يبدأ بعد.

كانـت صـورة «ربيـع» واضـحة بعـد أن تم تكبيرهـا وتحـسينها قـدر المستطاع.. هاتف «سعد» لـيس جيـدًا.. آلـة التـصوير الملحقـة بـه ليـست عاليـة الجودة، لكنهـا أدت الغـرض، وأفضل مـن وصـفه الـذي كـان سيـصيب الرسـام بالفالج.

كان «إبراهيم» الآن يدير القضية من مكتب في مديرية الأمن.. كان يشعر أن أيام مجده سوف تعود.. ذلك المنزل حـدث فيـه الكـثير مـن جـرائم القتـل.. جميع الصحف تتحدث عن «السفاح».. القاتل المتسلـسل الـذي نـراه في الأفـلام.. بعض القنوات سجلت مع «سعد» الـذي بـدأ في سـرد الحكايـات بعـد أن يـضيف إليها بعضًا من موهبته في التأليف.

كانت صورة «ربيع» قد تم إرسالها إلى كل المطارات ومحطات القطار على مستوى الجمهورية.. كذلك إلى جميع المديريات.. لكن المشكلة أن لا أحد يهتم.. لا أحد يركز في وجوه الناس من الأساس.

كان على «إبراهيم» أن ينتظر.. هو لا يريد أن ينشرها في الجرائـد حتـى لا يأخذ «وليد» حذره, على الرغم من أن «ربيع» ليس هو المشتبه بـه الأساسي.. بل في ظنه أنه ربما يكون مقتولًا الآن.

«إبراهيم» يعرف أنه من الممكن أن ينتظر ويضيع الوقت دون فائدة، ويكون القاتل قد حصل على فرصة الهرب.. لكنه لا يمتلك غير الانتظار قبل أن يلقي بورقته الأخيرة.. الإعلام؛ سوف يرسل الصورة إلى كل وسائل الإعلام، ومن يستدل عليه يُبلغ عنه.. ربما يرى «ربيع» صورته في وسائل الإعلام.. ربما يكون أيضًا قاتلًا.. ربما يصاب شخص ما بأذى ويُلام «إبراهيم» في النهاية.

كان «إبراهيم» يجلس في المكتب الذي خصصه له ذلك الضابط الكبير ومعه «صابر» يلعب لعبة ما على هاتفه المحمول.. أحيانًا يعتقد «إبراهيم» أن «صابر» لم يكن عليه العمل في هذه المهنة.. رن جرس الهاتف الداخلي فرفع «إبراهيم» السماعة وهو يتوقع أن يكون الضابط الكبير كالمعتاد يسأله عن الجديد في القضية.. هو يسأله باستمرار كأنه يقول له:

– لقد أعطيتك الفرصة.. لكنك فاشل.. فاشل.. فاشل.

وتظل كلمة فاشل تتردد بلا توقف.. لكن هذه المرة جاءه صوت أحد زملائه يقول له بحماس:

– لقد رأى أحدهم ذلك المدعو «ربيع».

قفز «إبراهيم» من فوق الكرسي وسأله بلهفة:

– أين؟

شعر «صابر» بحماس «إبراهيم» فأغلق اللعبة رغم أنه كان قد وصل إلى رقم قياسي جديد ونظر إلى «إبراهيم» الذي كاد الحماس يقتله.

لقد تذكر موظف السكة الحديد صورة «ربيع».. أسرع «إبراهيم» إلى محطة القطار بعد أن أخبر من بالمديرية أنه لو صدق الرجل وبالفعل رأى «ربيع» مسافرًا إلى أسوان فسوف يسافر هو الآخر إلى هناك.

هرول «إبراهيم» إلى مكتب مدير المحطة حيث كان الموظف في انتظاره.. كان ذلك الموظف الذي قام بالتأكد من تذكرة «وليد».. كان يجلس في قلق يلوم نفسه على أنه تدخل في تلك المشكلة.. ربما اعتقدوا أنه شريكه, أو يعلم «ربيع» أنه هو من أرشد عنه فيعود لينتقم.. هكذا كان يفكر.

جلس «إبراهيم» أمام الموظف بعد أن أخبره المدير أنه هو من رأى «ربيع».. وضع الصورة أمام عيني الموظف وقال له هامسًا ليشعره بالخطر:

- هل رأيت صاحب هذه الصورة من قبل؟

رد عليه الموظف بصوت عالٍ:

- لا أسمعك جيدًا يا سيدي.. لا تؤاخذني فأنا سمعي ثقيل.

تأفف «إبراهيم» لأنه أخرجه من حالة التقمص التي كان فيها وأعاد السؤال بطريقة عادية فأجابه الموظف بصوت مرتفع كعادة ثقيلي السمع:

- نعم يا سيدي.. لقد رأيته في القطار الذاهب إلى أسوان.

عاد «إبراهيم» يسأله بشك:

- وما الذي يجعلك متأكدًا إلى هذا الحد؟

أجابه الرجل على الفور:

- من الصعب أن أنسى شكله الغريب.. لقد كان معه شاب لا يشبهه بتاتًا.. كان شكلهما غريبًا مع بعضهما.

فكر «إبراهيم» قليلًا، وقرر أن عليه الذهاب فورًا إلى أسوان.. لكنه قبل أن يسافر سوف يرسل إلى مديرية أمن أسوان حتى يبدأوا البحث عنهما حتى يصل.

إنه ذاهب للبحث عن فريسته.

***

لا يعرف «وليد» لماذا أحب «طه».. ذلك الفتى الذي تبدو عليه الطيبة.. هو ليس مخادعًا كصاحبة المكان.

استيقظ «وليد» مبكرًا رغم أنه لم ينم ليلة البارحة.. لم يعد يقدر على النوم لفترات طويلة.. كان النوم قد أصبح متعِبًا أكثر من الاستيقاظ. كلما أغمض عينيه تبدأ الكوابيس من أول أمه والرجل الذي كان يعتقد أنه والده مرورًا بـ«شادي» وانتهاء بالحارس.. فيقوم فَزِعًا من النوم، وأول شيء يفعله يطمئن على أن كل شيء في مكانه.. كان كلما أمسك بالقلادة شعر بالحارس يتوعده، يتحين الفرصة للخروج.. ساعتها لن يرحمه.

كانت الغرفة على أقذر ما يكون.. ملاءات متسخة.. طلاء متساقط.. رائحة كريهة من مكان ما لا يعرفه، كأن هناك فأرًا ميتًا خلف خزانة الملابس المتهدمة.

«وليد» غير مهتم بكل ذلك.. سوف يمكث هنا يومًا آخر على أقصى تقدير.. يستريح حتى يستطيع أن يكمل الطريق إلى المقبرة.. هو يمكنه المواصلة لكن «ربيع» لا.. بالإضافة إلى أن طريق القرية لن يكون ممهدًا أو مريحًا مثل طريق القطار.

خرج إلى الشرفة التي كانت بالفعل هي الحسنة الوحيدة بالغرفة.. لمح «طه» يخرج من باب البناية فناداه.. نظر الفتى إلى الأعلى وابتسم ابتسامة من لا يحمل من همِّ الدنيا مثقال ذرة, فابتسم «وليد» له وسأله:

– إلى أين أنت ذاهب يا «طه»؟

أجابه الفتى والابتسامة لا تفارق وجهه:

– ذاهب لشراء الإفطار يا أستاذ.. هل تريدني أن أشتري لك شيئًا ما؟

تذكر «وليد» أنه لم يأكل شيئًا منذ الأمس.. كذلك «ربيع» لم يأكل، وربما نسي الطعام.. قال «وليد» للفتى الذي كان ينتظر رده:

– هل يمكن أن تصعد لأطلب منك ما أريد؟

أشار الفتى بالإيجاب وعاد مسرعًا إلى الأعلى.. كان «وليد» قد أجزل له في الإكرامية التي أعطاها له بالأمس, فأصبح محببًا إلى نفس الفتى أن يخدمه.

طرق الفتى باب الغرفة فأذن له «وليد» بالدخول.. كان «ربيع» لا يزال نائمًا لا يشعر بشيء.. ألقى الفتى تحية الصباح على «وليد» فرد عليه التحية ثم

قال له:

- ماذا يمكن أن نفطر اليوم؟

أجابه الفتى على الفور بحماس:

- كل ما تريد يا أستاذ.. فول.. طعمية.. جبن.. لانشون.. اطلب وأنا أحضر كل ما تريد.

فكر «وليد» قليلاً.. ثم سأله:

- هل أفطرت أنت؟

أجابه الفتى:

- سوف أشتري إفطاري مع بقية الأشياء.

فعاد «وليد» يقول له:

- حسنًا.. سوف أعزمك اليوم على الإفطار.. أحضر ما يكفينا نحن الثلاثة, وسوف نفطر في هذه الغرفة.

ثم أخرج ورقة مالية كبيرة وأعطاها له وهو يقول:

- خذ هذه الورقة.. أحضر ما يكفينا وخذ ما تبقى لنفسك.

نظر «طه» إلى الورقة بدهشة ثم قال له بفرح:

- لكن.. هذا كثير.

رد عليه «وليد» وهو يدفعه برفق خارج الغرفة:

- هيا بسرعة ولا تتأخر فأنا جوعان.

رد عليه «طه» بفرح:

- ثوانٍ وأكون عندك.. سلام.

وخرج مسرعًا فَرِحًا بالورقة التي كانت بين يديه.

***

عندما عاد «طه» إلى الغرفة محملًا بأكياس بلاستيكية ممتلئة عن آخرها كان «ربيع» قد استيقظ للتو وجلس على الفراش يحك رأسه بقوة.. دخل «طه» متهلل الأسارير فخورًا بنفسه كأنه عاد للتو من غزوة ناجحة.. وضع الأكياس على المنضدة الوحيدة الموجودة بالغرفة ثم سأل «وليد»:

- أين تريد أن تفطر يا أستاذ؟

أجابه «وليد» وهو ينظر إلى الشرفة:

- كنت أتمنى أن أجلس في الشرفة, لكن لا يوجد سوى كرسي واحد فقط.

فرد عليه «طه» بحماس وهو متجه نحو باب الغرفة:

- أحلامك أوامر يا أستاذ.

لم يَغِب «طه» كثيرًا قبل أن يعود حاملًا كرسيين خشبيين.. كان الوقت مبكرًا والشمس لم تشتد بعد.. يتميز الجو في تلك المنطقة وذلك الوقت من السنة أن النهار يكون شديد الحرارة والليل قارس البرودة.

خرجوا جميعًا إلى الشرفة بعد أن ساعد «وليد» الفتى في حمل الطاولة لإخراجها، وبدأت موقعة الطعام.

لم يأكل «وليد» بهذه الطريقة منذ مدة طويلة.. ربما منذ.. منذ آخر مرة أكل فيها مع «شادي».. لا يدري لماذا يُذكِّره «طه» به, على الرغم من أنهما لا يشبهان بعضهما في شيء.. سواء في اللهجة أو الملامح أو السلوك.. ربما يملك روحًا طيبة نقية مثله.

بدأ «وليد» في سؤال الفتى عن حاله وأسرته وسبب عمله عند «حسنة» وهو يراقب «ربيع» الذي كان يأكل في صمت شارد الذهن.

يحكي الفتى بإسهاب عن أسرته الفقيرة ووالده المريض واضطراره إلى العمل وهو في هذه السن الصغيرة.. بعد أن أنهى الفتى حكايته سأله «وليد» فجأة:

– هل يوجد دار عرض هنا؟

أجابه الفتى وهو يعلم أن الكثيرين يسألون عن تلك الدار:

– نعم.. لكنها ليست كالتي في القاهرة.

فسأله «وليد» وهو يبتسم بمكر:

– وهل رأيت التي في القاهرة؟

أجاب الفتى وهو يهز رأسه نافيًا:

– أنا في الأساس لم أذهب إلى هذه.

فعاد «وليد» يسأله:

– ما رأيك إذًا أن تذهب معي الليلة إلى دار العرض؟

نظر إليه «طه» بدهشة ولم يجب فأضاف «وليد»:

– لماذا لا ترد.. ألا تريد الذهاب إلى دار العرض معي؟!

فرد «طه» على الفور متوترًا من فرط المفاجأة:

– بلى أريد.. لكن لا أعرف هل ستوافق السيدة «حسنة» أم لا.

أجابه «وليد» مُطَمْئِنًا:

– سوف أجعلها توافق لا تقلق.. عد أنت إلى عملك كأنك لا تعرف شيئًا.

فشكره «طه» واتجه نحو الباب، لكنه قبل أن يخرج قال له بامتنان:

– متشكر جدًا يا أستاذ.. لا أدري لماذا تفعل معي كل ذلك, لكنك تبدو طيب القلب.

وخرج ليتركه مع ذكرياته التي كان يملؤها «شادي».

***

نزل «وليد» مع «ربيع» إلى الأسفل حيث كانت «حسنة» تجلس خلف المكتب العتيق الذي تعتقد أنه يعطي المكان رونقاً خاصًا.. كانت تدخن لفافة تبغ وهي تقلب في صفحات السجل الذي تكتب فيه أحوال المكان من دخول وخروج النزلاء.. ابتسمت في وجه «وليد» عندما رأته, فهو قد أعطاها أجر الغرفة دون

اعتراض.

ألقى عليها «وليد» التحية ثم قال لها:

- عندك فتى هنا يدعى «طه».. أليس كذلك؟

قالت له السيدة بجزع على الفور:

- هل فعل لك ما يضايقك؟ يا «طه».. يا «طه».. يا «زفت» يا «طه».

قال لها «وليد» على الفور حتى يهدئها:

- لا.. لم يفعل ما يضايقني.. بل كنت أريده أن يذهب معي لشراء بعض الحاجيات, فأنا لا أعرف شيئًا هنا.

تنهدت «حسنة» في ارتياح.. ثم فكرت قليلًا قبل أن تقول:

- لكن ذلك معناه أنك تريده أن يعمل لك مرشدًا.

فهم «وليد» ما ترمي إليه السيدة فقال لها:

- لا تخافي.. سوف أعطيه أجرة اليوم.

فعادت تقول ببراءة مصطنعة:

- لكنه سوف يترك الفندق, وربما أحتاج إلى جلب شخص لمساعدتي.

كان «وليد» يعرف أنها تكذب, لكنه آثر أن يستمر في دور المغفل فقال ببراءة هو الآخر:

- سوف أعطيك ما يعوضك عنه.. تفضلي.

وضع «وليد» أمامها الورقة النقدية التي تحل له كل مشاكله مع الناس أمثال «حسنة», فأخذتها وهي تكاد تفقد وعيها من الفرحة.. ثم قالت له بعد أن هدأت:

– خذه معك.. خذه إلى حيث تريد, ولا يهم أن تعطيه أي شيء.. أنا أعطيه راتبه في آخر الشهر.

ابتسم «وليد» في حزن ثم نادى عليه, فأتى «طه» وهو يرتدي ملابس العمل, فأخبره «وليد» بما يريد كأنه لم يكن يعرف من قبل.. فنظر «طه» إلى «حسنة» يستأذنها, فأذنت له بإيماءة من رأسها, فهمَّ بالخروج مع «وليد» الذي استوقفه قائلاً:

– هل ستذهب بهذا الجلباب؟

فهز «طه» كتفيه وقال:

– وما المشكلة في ذلك؟

فرد عليه «وليد»:

– غيِّر ملابس العمل.. سوف أنتظرك بالخارج حتى تنتهي.

خرج «وليد» ووقف أمام باب البناية يتأمل المارة.. بينما وقف «ربيع» بجانبه واجماً.. لكزه «وليد» في كتفه سائلاً:

– ما لك يا «ربيع»؟ تبدو حزينًا وواجماً.

أطرق «ربيع» بنظره إلى الأرض وأجاب:

- أشعر بالتوتر والخوف.

فعاد «وليد» يقول له بلهجة مازحة حتى يطمئنه:

- ممَ تخاف؟ المشكلة الآن بيني وبين حارس الكِتاب.. سوف توصلني إلى المكان فقط.

فهز «ربيع» رأسه وقال:

- أنا لا أخاف منه.. بل أخشى اللقاء.

سكت «ربيع» ولم يفهم «وليد» فسأله:

- لقاء من؟

أجابه «ربيع» وهو يحاول حبس دموعه:

- لقاء زوجتي وولديّ.. هل تزوجت زوجتي بعد أن غبت كل تلك السنوات؟ هل سأعرف ولديَّ؟ هل سيسامحني الجميع؟ لقد دفعت الثمن غاليًا.. غاليًا جدًا؟

زفر «وليد» في ضيق ولم يجبه عن كل تلك الأسئلة التي لا يملك لها إجابة, فاستطرد «ربيع»:

- لقد فكرت كثيرًا في القيام بمهمتنا دون لقائهم, لكني أشتاق إليهم كثيرًا.. لم أعرف قيمتهم إلا بعد أن بعدت عنهم.. دائمًا يقولون ذلك.. يقولون

إنك لن تعرف قيمة ما في يدك حتى تفقده.. لكنني عرفت قيمته بعد فوات الأوان.

كان «وليد» سيقول له كلامًا من نوعية.. لا تخف سوف يفهمون.. بالتأكيد سوف يسامحك الجميع.. إلخ، ذلك الكلام الذي لا يقدم ولا يؤخر.. لكن «طه» كان قد وصل.. متأنقاً لأقصى حد يستطيعه.. قميص أبيض مفتوح الأزرار.. البنطال الضيق، ومثبت الشعر على رأسه الذي لم يغير من شكل شعره الملتوي، وإن كان قد أعطاه بعض اللمعان...

ضحك «وليد» عندما رآه وقال له:

- ما هذه الأناقة يا عم «طه»؟

رد عليه «طه» بخجل:

- أنا لم أفعل الكثير.. هذا شيء عادي.

ازداد ضحك «وليد» عندما رأى خجله ووضع يده على كتف «ربيع» وقال لهما:

- هيا بنا.. نريد أن ننسى كل مشاكلنا.. نريد أن نفرح من قلوبنا، وإن كنا نعلم أنها ربما تكون آخر مرة.. هكذا تعلمت من صديق قديم.. فلنفرح الآن ما دمنا نعلم أن المشاكل قادمة لا محالة.

وكان يقصد بذلك الصديق.. «شادي».

***

ظلوا يتمشون في وسط المدينـة قليلًا, ثـم قـاموا بحجـز مقاعـدهم في دار العرض, لم يكونوا يهتمون بما سيتم عرضه, كل مـا كـانوا يريدونـه أن يجلـسوا مرة أخيرة في تلك القاعة المظلمة التي تأخذ الألباب.. كـان لا يـزال هنـاك وقـت كافٍ قبل بدء العرض, فقرروا أن يقضوه على النيل.

لا يعلم «وليد» لماذا اختلف النيـل هنـا عـن «القـاهرة».. ربمـا لم تلوثـه الضوضاء ونفوس أهل القاهرة الذين حـولتهم المدينـة الكـبيرة إلى آلات سـباق في طريق لا يرحم.

كان «وليد» ما زال يسأل نفسه عن السائحين الذين يبدو علـيهم الفقـر.. مثل الذين رآهم في بناية «اللوتس», والذي يطلـق عليهـا زورًا «فنـدق اللـوتس».. عندما سأل «طه» الذي كان في شدة الفرح أجابه وهو يأكل المثلجات التي جاء بها «وليد»:

– ليس كل من يأتي إلى هنا من أصحاب الأموال.. هنـاك الكـثيرون مـن الذين لا يملكون إلا القليل، ومـصر تعتـبر بلـدًا مناسـبًا جـدًّا لأن فـارق العملـة يجعلهم يعيشون هنا في رخاء.. «اللوتس» لا يأتيه إلا أفقر السائحين.

ثم فطن إلى أن ذلك ربما يكون فيه إهانة لـ«وليد» فاستطرد:

– لكنك بالطبع يا أستاذ ليس لك علاقـة بهـذا الكـلام أنـا أتحـدث عـن الأجانب.

هز «وليد» رأسه متفهمًا لكلامه.. حتى لو كان يقصده لا يهم.

كان «ربيع» عابسًا معظم الوقت مهمومًا بزوجته وولديه الذين ربما لن يجدهم من الأساس.. جاء الموعد فذهبوا إلى دار العرض، وبعد أن انتهى العرض ذهبوا للعشاء.

في نهاية اليوم اقترح «وليد» أن يعودوا سيرًا على الأقدام.. لكن «ربيع» أخبرهم بأنه يشعر بالدوار والتعب, فتوقف «وليد» ليوقف سيارة أجرة بينما جلس «ربيع» على الرصيف من فرط التعب.

أوقف «وليد» سيارة أجرة وقبل أن يقول لسائقها المكان سمع صرخة «طه».. التفت ليجد «ربيع» ممدًا على الأرض لا يتحرك. نزل السائق من سيارته فحمل «ربيع» معهما إلى سيارته و«وليد» يقول له بفزع:

- إلى أقرب مستشفى.

وكان هذا ختام يومهم السعيد.

# لقاء

في المستشفى أخبر الطبيب «وليد» أن «ربيع» ربما تعرض لما ضايقه وأدى لارتفاع ضغط دمه.. كان يمكن أن يؤدي الأمر إلى ذبحة صدرية أو جلطة.. ثم أضاف في النهاية:

- هو بخير، لكنه يجب أن يبيت هنا الليلة, وفي الغد يخرج لو كانت حالته مستقرة.

شكر «وليد» الطبيب.. سوف يضطر إلى أن يبيت ليلته هنا.. قال لـ«طه» الذي ذهب معه:

- عد أنت يا «طه» ولا تخبر «حسنة» أين نحن؟

رد عليه «طه»:

- لكنها يا أستاذ ستسأل عنك بالتأكيد.

فقال له «وليد» بصوت منخفض حتى لا يوقظ «ربيع»:

- أخبرها أنني اشتريت بعض الأشياء ثم قلت لك إنني ذاهب بها إلى أحد أصدقائي أو أقربائي وسوف أبيت عنده.

فعاد «طه» يقول معترضًا:

- لكنها لن تصدق ذلك.

فرد عليه «وليد» بضجر:

- لا يهم.. سوف أعود في الغد على كل حال.

هز «طه» رأسه ثم قال له وهو يقوم عن الكرسي الذي إلى جواره:

- المهم أن نطمئن على الحاج.. هل تحتاج مني أي شيء.

هز «وليد» رأسه نافيًا دون أن يتكلم.. ودون سابق إنذار مال عليه «طه» واحتضنه مودِّعًا.. كان «طه» يحبه بصدق ويشفق على حاله.. كذلك «وليد» شعر بالتأثر لموقفه وأراد أن يطيل معه العناق الذي شعر فيه بأخوة لم يباشرها منذ أن مات «شادي».

خرج «طه» ثم أغلق الباب خلفه ليترك «وليد» بمفرده يتأمل «ربيع» الذي يرقد في سُبات عميق.. لم يعد جسده العجوز يحتمل.. لم يعد جهازه العصبي يحتمل.. ربما يكون قد تحمل كل تلك السنين.. تحمل كل تلك الأحداث.. لكنه لا يتحمل العودة إلى زوجته وولديه بعد كل تلك السنين.

عرف «وليد» أن له ولدين هما «عبد العاطي» و«محمد».. هما في مثل سنه تقريبًا.. شيء غريب أن يكون لشخص ما أسرة وبيت.. حياة هادئة مستقرة.. ويهدم كل ذلك من أجل أطماع وأوهام لن توصله إلى شيء في النهاية.

ظل «وليد» جالسًا على الكرسي رافعًا قدميه على نهاية الفراش الذي ينام عليه «ربيع».. كان المستشفى خاصًا مرتفع التكاليف, لذلك كان الكرسي مريحاً والغرفة هادئة, وبعد ذلك اليوم الطويل والمشي طوال اليوم كان من

الطبيعي أن يغلبه النعاس.. حتى لو كان هناك من يطارده.. في يقظته ونومه.

***

طوال الطريق و«إبراهيم» يضحك على «صابر» الذي اتضح أنه يخاف من ركوب الطائرات.. «صابر» نفسه لم يكن يعرف ذلك لأنه لم يجرِّبه من قبل.. يجلس بجانب «إبراهيم» الذي قال له وهو يضحك:

- لماذا تخاف هكذا يا «صابر»؟ أقل من ساعة ونصل.

رد عليه «صابر» وهو يوشك على البكاء:

- هذا لو وصلنا من الأساس.. أنا أشعر بالدوار.

رد عليه «إبراهيم» مُطَمْئِنًا:

- لا تخف، سوف أطلب من المضيفة أي دواء لك.

ضغط «إبراهيم» على زر فجاءت المضيفة على الفور.. نظر إليها «إبراهيم» بعين نصف مفتوحة في محاولة منه أن يكون فاتنًا وقال لها:

- صديقي هذا مريض هل يمكن أن...

قاطعته قبل أن يكمل حديثه قائلة وهي تبتسم بطريقة آلية:

- ثوانٍ وأعود إليك.

كان من الواضح أن «صابر» يعاني الدوار نتيجة ركوبه الطائرة.. غابت المضيفة قليلًا ثم عادت ومعها كوب فيه شيء يفور أعطته لصابر الذي أخذه وأسند رأسه على الكرسي وأغمض عينيه.. قال «إبراهيم» للمضيفة وهو ما زال ينظر

إليها بعينين نصف مفتوحتين ليفتنها:

- شكرًا يا آنسة على ذوقك.

كان يفكر في أنها ربما لم تلحظ نظراته الفتاكة في المرة الأولى، لذلك لم تعامله جيدًا، فقرر أن يحاول مرة أخرى.. بالتأكيد سوف تفقد الوعي هذه المرة.. لكنها لدهشته ظلت صامدة وقالت له سائلة:

- هل أنت أيضًا مريض؟

فهز «إبراهيم» رأسه نافيًا، ورد مبتسمًا لأنه ظن أنها وقعت في حبه كعادة جميع الفتيات بالطبع:

- لا لست مريضًا.. لكن شكرًا على السؤال.

لكنها ردت عليه وهي تنصرف:

- لماذا إذًا تغمض عينيك هكذا؟ الطائرة ليست مشمسة.

شعر «إبراهيم» بالغيظ وود لو يسبقها ويقوم بعمل فتحة في أرضية الطائرة لتقع منها دون أن تشعر.. لكنه عاد فعدل عن الفكرة لأسباب فنية.

حاول «إبراهيم» نسيان المضيفة التي تجاهلته وأنفق ما بقي من وقت الرحلة في التفكير بجدية في القضية.. من المفروض أنهم حصلوا على بعض المعلومات التي سيعرفها فور وصوله.. سوف يكون في انتظاره النقيب «شريف».. كان يأمل أن يسمع أنهم عرفوا مكان «وليد».. هم لا يملكون سوى معلومات عن

«ربيع».

وصلت الطائرة بسلام ولم تسقط بهم، كما كان يتوقع «صابر» الذي فتح عينيه اللتين كانتا مغلقتين طوال الرحلة.. هنَّأه «إبراهيم» – ساخرًا – بسلامة الوصول ثم أضاف بنفس السخرية:

– وصممت أن تأتي معي حتى تحميني.. عندما تستطيع أن تفتح عينيك أولًا تحميني بعد ذلك.

رد عليه «صابر» بثقة:

– سوف ترى ماذا سأفعل به عندما أراه.. سوف تعرف قدراتي الحقيقية.

مط «إبراهيم» شفتيه وردد ساخرًا:

– قدراتك الحقيقية؟ سوف نرى.

نزل «إبراهيم» من الطائرة ولم ينسَ أن يُلقي السلام على المضيفة التي هنأت جميع الركاب بالوصول في أثناء نزولهم من الطائرة ما عدا هو.. حتى إنها لم ترد عليه السلام.. أقنع «إبراهيم» نفسه أنها ربما لا تقصد, أو ربما لم تسمعه.

خرج «إبراهيم» إلى ساحة الاستقبال وكان – كما وعدوه – في انتظاره النقيب «شريف» ببزته الرسمية وقد خلع غطاء الرأس فظهر شعره الناعم الطويل الذي لا يتناسب وعمله.. وكان لونه يميل إلى اللون البني.. بشرته

البيضاء التي شابتها حمرة من شمس الجنوب زادت من وسامته.. فكر «إبراهيم» في أن ذلك الشاب يمكنه العمل في مجال التمثيل.. شعر «إبراهيم» ببعض الغيرة، خصوصًا عندما رأى كل من بالمطار يلقي عليه التحية أو يردها بحرارة.. وبخاصة المضيفات.. اقترب منه «إبراهيم» وسأله بغلظة فلم يكن هناك ضابط غيره:

- هل أنت النقيب «شريف»؟

رد عليه «شريف» بوجه مبتسم ودود:

- حضرتك الرائد «إبراهيم».. أليس كذلك؟

أجابه «إبراهيم» بفخر وهو يرفع أنفه إلى السماء:

- بلى.. أنا هو.

سلم عليه «شريف» بحرارة وهو يقول له بسعادة مبالغ فيها:

- لقد قالوا لي أن آتي لأخذك إلى المديرية حتى لا تضل الطريق.

نظر إليه «إبراهيم» بغيظ وقال لنفسه:

- أضل الطريق! على أساس أنني طفل صغير.

تعرف «شريف» على «صابر» فسلم عليه باحترام شديد وخرجوا جميعًا إلى سيارة شرطة كانت في انتظارهم أمام المطار.

عندما ركبوا جميعًا سأل «إبراهيم» «شريف» بلهفة:

- هل توصلتم إلى أي معلومات عن صاحب الصورة؟

أجابه «شريف»:

- أسوان ليست مدينة كبيرة مثل القاهرة, وليست مناسبة للاختباء بها.

فعاد «إبراهيم» يسأله:

- يعني توصلتم إلى مكان صاحب الصورة.. أليس كذلك؟

ابتسم «شريف» وهو يرد عليه:

- اصبر حتى نصل.. لقد سمعنا عما وجدتموه في ذلك المنزل ومدير الأمن بنفسه يهتم بالموضوع.

حاول «إبراهيم» أن يصبر لكنه لم يستطع فسأله باستجداء:

- أريد فقط أن أعرف.. هل توصلتم إلى أي شيء؟

ضحك «شريف» هذه المرة بصوت مرتفع وأجاب:

- سوف تسمع أخبارًا جيدة عندما نصل.

ولم تزد تلك الإجابة «إبراهيم» إلا فضولًا.

***

عندما استيقظ «ربيع» في الصباح كانت حالته جيدة.. سأله «وليد» عن حاله فأخبره أنه يشعر بتحسن.. كذلك أخبره الطبيب أنه يمكنه الخروج, فقال «وليد» لربيع:

- هل أترك الحقيبة معك؟

كان «وليد» يقصد تلك الحقيبة التي بها الكتاب والمال والتي كان «وليـد» لا يتركها أبدًا, فرد عليه «ربيع» بقلق:

- إلى أين ستذهب؟

أجابه «وليد»:

- سوف أعود إلى الفنـدق لجمـع بقيـة أغراضـنا حتـى يجهـزوا فـاتورة المستشفى فأعود لآخذك ونذهب مباشرة إلى القرية.. يكفي ما ضاع من وقت.. لكن من الجيد أننا كنا هنا وأنت مريض.. ربما لو تعبـت في الطريـق إلى القريـة أو في القرية لما وجدنا الرعاية المناسبة.

هز «ربيع» رأسه موافقًا على كلامه وقال:

- حسنًا.. دعها ولا تخف لكن لا تتأخر.

فخرج «وليد» وأخبر الإدارة أنه سـوف يغيـب قليـلًا وتـرك لهـم مبلغًـا تحت الحساب حتى يعود.

استقل «وليد» سيارة أجرة وأخبره بمكان الفندق, ظل يتأمل تلك المدينـة الجميلة طوال الطريق.. هل سينعم بالتجول فيها مرة أخرى كما فعل بالأمس.. من يدرى.. ربما.

عندما وصلت السيارة إلى بداية الشارع الذي يقع فيه الفندق طلب «وليد»

من السائق التوقف على الفور ونزل من السيارة وأعطاه أجره.

لقد لاحظ «وليد» حركة غير عادية أمام باب الفندق.. تلك السيارة التي نجح في رؤية لوحاتها المعدنية عرف أنها سيارة شرطة.. «طه» يجلس أمام باب الفندق وفور أن رآه جرى نحوه قائلًا بفزع:

- إنهم يبحثون عنك.. يريدون القبض عليك.. ماذا فعلت يا أستاذ؟

لم يَحْتَج «وليد» لأكثر من ذلك حتى يلتفت ويستعد للهرب, لكنه وجد أمامه «صابر».. يبدو أنه ذهب لشراء شيء ما وكان عائدًا.. عرفه «صابر» فور رؤيته ووجدها فرصة للقبض عليه.. سوف يظهر على شاشات التلفاز على أنه من ألقى القبض على القاتل.

انقض «صابر» عليه دون تردد فطوَّقه بذراعيه وصرخ بصوت عالٍ:

- يا «إبراهيم» بيه.. لقد أمسكت به.

خرج الجميع من الفندق بسرعة على صوت «صابر» الذي كاد يوقظ المومياوات المعروضة بالمتاحف, وكان أول الخارجين «إبراهيم» الذي شاهد منظرًا غريبًا, فعلى الرغم من صغر حجم «وليد» بالنسبة لصابر فإنه ضربه برأسه في أنفه فبدأ الدم يسيل من أنف «صابر».. لم يتركه «صابر» لكن يده ضعفت قليلًا, فاستطاع «وليد» أن يفلت منه ويحمله بين يديه ليلقي به على الرصيف.. لحظات من الدهشة سادت الجميع عندما رأوا «صابر» يرتفع في الهواء بسهولة لينزل على الأرض قبل أن ينتبهوا إلى «وليد» الذي أطلق ساقيه للريح.

جرى الجميع خلفه, لكن أسرعهم كان «إبراهيم» الذي لم يعرف أن من قام بتدريب «وليد» ضابط مخابرات روسي.

ظل «وليد» يجري والمسافة بينه وبين الجميع تزداد إلا «إبراهيم» الذي كان يلاحقه.. عرف «وليد» أنه لن يستسلم.. انحرف إلى طريق جانبي فتبعه «إبراهيم» وقد أشهر مسدسه وهو يقول له بصوت مرتفع:

- قف أو أطلق عليك النار.

كان «وليد» متأكدًا من أنه لن يطلق النار مخافة أن يصيب أحد المارة, لكنه كان يخشى أن يجتمع المارة أنفسهم عليه بسبب هذا المشهد.. كانوا قد وصلوا إلى الكورنيش عندما قرر «وليد» أن يتخلص منه.. بدأ في إبطاء سرعته حتى تقل المسافة بينهما, وعندما شعر باقترابه فعل ما لم يكن يتوقعه «إبراهيم»؛ بدل «وليد» اتجاه جريه وأصبح يجري نحوه.

جعلت المفاجأة «إبراهيم» يتجمد في مكانه, وعندما فكر في تهديده بالسلاح كان «وليد» قد اقترب منه مسافة كافية ليركله فيوقعه على الأرض ويقع منه المسدس.. قام «إبراهيم» بغضب فانقض عليه كالثور الهائج.. لكن «وليد» تفادى ضربته بمنتهى السهولة وأعطاه لكمة في أنفه كسرت عظامه.. اختل توازن «إبراهيم» ولم يعد يعرف أين «وليد»، وبدلًا من أن ينقضَّ عليه مرة أخرى, انقضَّ على سور الكورنيش ليسقط من فوقه.

جرى «وليد» نحو السور ليجد «إبراهيم» معلقًا.. فعاد بسرعة إلى

مسدسه فأخرج منه خزانة الطلقات وألقى به في الماء ثم قال لـ«إبراهيم»:

– تشبث جيدًا سوف تأتي المساعدة قريبًا.

لم يفهم «إبراهيم» هل يسخر منه أم يتكلم جديًا. كان بعض المارة قد وقفوا لا يفهمون ما الذي يحدث ويخافون من التدخل حتى قال لهم «وليد» وهو يعطي المسدس لأحدهم:

– سوف يقع الرجل في الماء.. ساعدوه على الصعود بسرعة.. إنه ضابط وهذا مسدسه.

تردد المارة قليلًا.. فهم يسمعون عن الذين يساعدون الناس وتكون نهايتهم السجن, لكنهم في النهاية عزموا على مساعدته.

عندما صعد «إبراهيم» واستعاد القدرة على الرؤية كان «وليد» قد اختفى, وعندما سأل المارة عن مكان ذهابه فلم يستطع أحد الإجابة.

***

عندما ابتعد «وليد» عن المكان الذي ترك فيه «إبراهيم» عاد للسير بطريقة عادية حتى أوقف سيارة أجرة وذهب إلى المستشفى.. وصل إلى هناك فأسرع إلى غرفة «ربيع» الذي كان جالسًا في انتظاره.. فور دخوله سأله «ربيع»:

– لماذا لم تحضر الثياب معك؟

لم يُرد «وليد» أن يقلقه فقال له كأنه لم يسمعه:

– أين حقيبة الكتاب؟

أشار «ربيع» إلى أسفل الفراش, فنزل «وليد» بسرعة فوجدها ليفتحها ويطمئن على الكتاب والمال وبقية الأشياء.. حمل الحقيبة على ظهره وقال لـ«ربيع»:

– هيا بنا لقد أنهوا فاتورة الحساب.. سوف نعطيهم الحساب ونحن خارجين.

أحس «ربيع» بالقلق لكنه تأكد من أن «وليد» لن يجيبه بصراحة ما دام تجاهله أكثر من مرة.. أنهى «وليد» إجراءات الخروج فأوقف أول سيارة أجرة قابلته وقفز فيها مع «ربيع».. كان «ربيع» سيسأله من جديد لكنه أشار إليه بالصمت وأمر السائق أن يذهب بهم إلى موقف السيارات التي تذهب إلى القرى المجاورة, ومنها قرية «ربيع».

في موقف السيارات كان «ربيع» يتوقع أن يمكثوا بعض الوقت حتى يجدوا سيارة توصلهم إلى القرية.. لكن الزمان تغير وأهل قريته كثروا حتى صارت لهم سيارات خاصة بالعمل على طريقهم.. وجدوا سيارة بسرعة فركبوها, ولم يشعر «وليد» بالراحة إلا بعد أن تحركت السيارة مبتعدة عن أسوان.

هو يعرف أنهم سيصلون إليه.. هو لن يدافع عن نفسه على كل حال في المحكمة.. هو يعلم أنه ميت لا محالة.. كل ذلك لن يهمه بعد تدمير الكتاب.

***

تغيرت القرية كثيرًا عن الحال الذي تركها «ربيع» عليه.. لم يعرفها

هو من الأساس عندما وصلا إليها، حتى إن السائق هو الذي أخبرهما أنهما وصلا.

أخبره «وليد» بما حدث وزاد ذلك من قلقه وتوتره.. نزلا عند بداية القرية حيث اعتاد السائق أن يترك زبائنه, فوقف «ربيع» في حيرة من أمره لا يعرف إلى أين سيذهب.. ظلا على هذا الحال حتى سأله «وليد»:

– ما لك يا «ربيع»؟ ألا تعرف الطريق؟

أجابه «ربيع» وهو ينظر حوله في محاولة منه لمعرفة الطريق:

– القرية تغيرت تمامًا عما كانت عليه.

فقال له «وليد» الذي شعر بأنه لم يعد يملك المزيد من الوقت ليضيعه:

– حسنًا فلنسأل شخصًا ما عن الطريق.

فرد عليه «ربيع»:

– أنا فقط أحتاج لمعرفة طريق الترعة.. أظنها من هذا الاتجاه.

لكنه للتأكد أوقف أحد المارة فسأله عن الطريق المؤدي إلى الترعة, فوصف الرجل الطريق له وكان مغايرًا لما كان يتوقعه «ربيع» الذي عاد فسأل الرجل بدهشة:

– ألا يؤدي ذلك الطريق إلى الترعة؟!

ابتسم الرجل وهو يجيبه:

- لقد تغير هذا الطريق منذ زمن بعيد.. لقد سدَّته البيوت.

فشكره «ربيع» ورحل الرجل.. فقال «ربيع» لـ«وليد»:

- هيا بنا، يبدو أننا يجب أن ندور حول هذه البيوت الجديدة حتى نصل إلى الترعة.

كان «ربيع» في سيره كالسائح الذي نزل مدينة لأول مرة, لكنه كان يتحسر على الأرض الزراعية التي تآكلت وأوشكت على الانقراض.. الكل يبني ولم تعد هناك الأرض الخضراء التي كانت.

وصلا إلى الترعة وقد بدأت بعض المعالم التي يتذكرها «ربيع» في الظهور فقال لـ«وليد» بحماسة:

- المفروض أن يكون بيتي من هذا الاتجاه.

كان «ربيع» متوترًا.. دقات قلبه ترتفع.. ماذا لو لم يجدهم.. بل الأدعى للخوف ماذا لو وجدهم.. لم يعرف «ربيع» بماذا يدعو.. هل يدعو بأن يجدهم أم لا.

وصل «ربيع» إلى المكان الذي من المفترض أن يكون فيه بيته, لكنه لم يجد البيت.. كان هناك بيت يبدو عليه أنه جديد مكون من ثلاثة طوابق.. لقد ذهب بيته وذهبت عائلته.. نظر «ربيع» إلى «وليد» وقال له بفزع:

- هذا ليس بيتي.. لقد ذهب البيت.. ذهبت أسرتي ولن أجدهم.

قال له «وليد» مهدئًا:

- لا تخف فسوف نبحث عنهم.. سوف نسأل أصحاب البيت الجديد عنهم.

لم يقتنع «ربيع» بكلام «وليد» لكنه اقترب معه إلى البيت، وفجأة وجدها تفتح باب البيت ممسكة بإناء فيه ماء مستعمل وترشه في الشارع الترابي أمام البيت.

كانت تلك السيدة هي «حفيظة» زوجته.

تجمد «ربيع» في مكانه ولم يتحرك.. كان كالطفل الذي أوقع المزهرية وهو الآن يقف أمام والدته بخجل وخوف.. لاحظ «وليد» تسمُّره في مكانه فعرف أنها زوجته فقال له هامسًا:

- هل أنت متأكد أنها هي؟

لم يرد «ربيع» بل ظل واقفًا في مكانه لا يتحرك.

وقوفهما على هذا الحال أثار انتباهها فنظرت إليهما لتعرف ما يريدان.. يبدو أنهما غريبان ليسا من أهل القرية.. لكن ذلك العجوز الأسمر وجهه مألوف.. إنه يشبه ابنها «عبد العاطي» كثيرًا.. إنه يبدو كأنه.. «ربيع»!!

اتسعت عينا السيدة وشهقت ثم نزلت عن عتبة الدار القصيرة واقتربت

منهما وهي لا تزال ممسكة بالإناء.. فكر «وليد» في أنه لو كان مكانها فسوف يضرب «ربيع» به, وهو لا يحتمل ذلك, لقد حصل على جزائه على كل حال.

بدأ «ربيع» بالسير نحوها بحذر وسار خلفه «وليد» لحمايته من ضربة السيدة المتوقعة.. كانا كلما اقتربا من بعضهما تأكدت هوية كل منهما للآخر.. حتى باتت المسافة بينهما مناسبة لسماع كل منها الآخر.

وقفا في صمت لتتجمع الدموع في عيونهما قبل أن تقول السيدة بلوم:

- لماذا تأخرت يا «ربيع»؟

هكذا فقط.. كأنه ذهب لشراء شيء ما وتأخر.. لم تضربه بالإناء كما توقع «وليد».. فقط لامته على تأخره, كأنه تأخر ساعة من نهار.. لم يرد «ربيع»، فقط نزل على قدميها ليقبلهما وهو يقول لها باكيًا:

- سامحيني يا «حفيظة».

رفعته السيدة بسرعة وهي تتلفت حولها مخافة أن يراه أحد على هذا الحال, وقالت له:

- لا تفعل ذلك.. لقد أفهمت ولديك أنك اختفيت بسبب الثأر.. أنت بطل في نظرهم.

قام «ربيع» وقد زادت كلمات زوجته من شعوره بالخجل.. نظرت «حفيظة» إلى «وليد» بتساؤل فقال لها مبتسمًا:

- أهلًا بكِ يا سيدتي.. لطالما حدثني «ربيع» عنك.

هزَّت «حفيظة» رأسها وابتسمت له قائلة:

- أهلًا وسهلًا بك يا أستاذ.

ثم قالت لـ«ربيع» وهي تمسك بيده لتدخله إلى الدار:

- ارفع رأسك.. يجب أن تدخل على ولديك وأحفادك مرفوع الرأس.

نظر إليها «ربيع» في سعادة.. لقد أصبح جَدًّا أيضًا.

لم يُرِد «وليد» أن يدخل معه في تلك اللحظة الحميمة.. سوف يتركه حتى يرحب به الجميع.. لكن يبدو أن «ربيع» قد نسيه بسبب فرحته, فظل واقفًا طويلًا حتى جاء «ربيع» يقول له متأسفًا:

- أنا آسف يا «وليد» بيه.. لقد أنستني الفرحة.

ابتسم «وليد» عندما رأى التغير الذي طرأ عليه.. بالفعل لا يعرف المرء قيمة ما معه حتى يفقده.

***

كان استقبالًا مهيبًا للجد الذي عاد بعد طول غياب, وكان «وليد» يجلس يشاهد فرحة الجميع به ويتعجب لتلك السيدة التي حافظت على صورة الوالد, ربما فقط من أجل ولديها.

كان ابنه الأكبر «عبد العاطي» قد نجح في شراء قطعة أرض بعد سنوات من العمل هو وأمه في حقول الغير.. اليوم صار عندهم الأرض والبيت الذي بناه

«عبد العاطي» على أرض البيت القديم بمساعدة «محمد» الذي أصرت الوالـدة أن يكمل تعليمه وهو الآن يعمل مدرسًا.. تزوج الولدان ورزقا بأطفال.

كان «وليد» ينظر إلى «حفيظة» بإجلال.. كان يتمنى لو يطول بـه الزمـان فيرزقه الله زوجة مثلها.. لكن ذلك أمل بعيد المنال.

مال «وليد» على «ربيع» الذي كان يجلس بجانبه وقال له هامسًا:

- لم أكن أعرف أنك بهذا الغباء.

فهم «ربيع» ما يريد قوله فرد عليه مازحًا:

- ولا أنا.

عاد «وليد» يقول له:

- إيَّاك وتضييع هذه النعمة مرة أخرى.

فرد «ربيع» وهو يقبِّل ظهر كَفِّه:

- الحمد لله.. لن أترك هذه القرية حتى أموت.. على كل حال لم يعد في العمر ما يكفي كي أضيعه.

ثم استطرد وقد تغيرت ملامحه وكساها الخوف من جديد:

- لكن الشرطة التي تطاردنا وتقتفي أثرنا ماذا سنفعل بها؟

أجابه «وليد» مُطَمْئِنًا:

- ننتهي من موضوع الكِتاب وأنا سوف أتصرف في هذا الأمر.

سأله «ربيع» بقلق:

- ماذا ستفعل؟

أجابه «وليد»:

- ما كنت سأفعل من دونك.. لقد كنت من البداية أريد أن أبعدك عن هذا الموضوع، لكنه النصيب.

عاد «ربيع» يسأله عما ينوي فعله, لكنه غيَّر الموضوع وبدأ يتحدث مع ولدي «ربيع» عن حياة والدهما في تلك الفترة, وكيف أنه ظل يعمل لسنوات طويلة في بلدان متعددة, جمع في تلك السنوات الكثير من المال بكده وتعبه.

كان «ربيع» نفسه» يستمع إلى قصة «وليد» باهتمام فهذه هي أول مرة يسمعها.

عندما انتهي «وليد» من قصته الوهمية.. قالت «حفيظة» لـ«ربيع» بلهجة ذات مغزى:

- يبدو أن الأستاذ «وليد» يحبك كثيرًا.

كان «ربيع» يعلم أنها تُلَمِّح إلى أنه يختلق تلك القصص، فسكت ولم يرد.

بدأ الجمع ينفض بالتدريج.. الأطفال ذهبوا للعب والنساء لتحضير الطعام والرجال لتغيير ثيابهم فقد أتوا من أعمالهم فور معرفتهم بعودة «ربيع».. انتهز «وليد» فرصة جلوسهما بمفردهما وقال لـ«ربيع»:

– أريدك أن تخبئ المال الـذي معـي عنـدك, إذا مـت أو تم القبض علـي فخذه كله لك.

قال له «ربيع» بفزع:

– إن شاء الله سوف تعيش لتنفقه في صحة وعافية.

ابتسم «وليد» وقال له:

– المهم الآن أنا لا أحتاج سوى الكِتاب والأدوات الأخـرى في الحقيبـة.. خذ المال وخبئه في أي مكان آمن.

ثم استطرد وهو ينظر إلى باب الغرفة ليتأكد من عدم وجود أي شخص:

– أريد أن أذهب إلى المقبرة في أقرب وقت.

فهز «ربيع» رأسه وهو يفكر في الوقت المناسب.

# المقبرة من جديد

«غازي» هو الخفير المسؤول عن حراسة المقبرة.. هي في الحقيقة ليست كالمقابر الأثرية الكبيرة الأخرى لأنها في الحقيقة ليست مقبرة كما نعلم.

كان «غازي» موظفًا بالهيئة العامة للآثار، وهو من سكان القرية, عندما أتت هيئة الآثار وبدأت الحفر بعد أن هرب «ديمتري», لم تجد الكثير.. بعض المشغولات الذهبية القليلة والأواني المتكسرة التي لا يمكن من خلالها الجزم بعمر المكان أو صاحبه.. ظن الخبراء أن المكان ينتمي لأحد العامة الأثرياء الذين ليس لهم ثقل تاريخي, والدليل عدم وجود مومياء.. لكن المكان في النهاية المكان صار أثرًا, وتم نقل بعض الجثث التي كانت تخص أهل القرية من المكان وعمل حاجز حول المدخل الذي تمت صناعته, وعلى الرغم من أنهم يعرفون جيدًا أنه ليس هناك من سيرغب في دخولها أو زيارتها فإنهم يجب أن يعيِّنوا خفيرًا لحمايتها.

حماية ماذا وهي فارغة؟! لا أحد يعرف، المهم حمايتها؛ فهي كما قلنا من قبل تعتبر أثرًا.

تم نقل المقتنيات القليلة الثمينة التي كانت بها إلى متحف بأسوان فصارت المقبرة بالفعل غير قابلة للسرقة, لكن وجود «غازي» ضروري لعدم

استغلال المكان من أحد بصورة غير قانونية.

مع الوقت لم يعد أحد من الهيئة العامة للآثار يأتي إليها أو يزورها منذ زمن, ويبدو أنهم هم أنفسهم نسوا أمرها, ومع الوقت اعتبر «غازي» أنها ملك خاص له.

لم يكن «غازي» يمتلك وازعًا أخلاقيًا يمنعه من استغلال المكان في أي شيء.. يؤجره أحيانًا لبعض الشباب الذين يريدون تجربة المخدرات في مكان بعيد عن الأنظار.. لكنه رفض أن يؤجره لشاب أراد أن يمارس الرذيلة مع فتاة.. ربما تكون المخدرات مسموحًا بها، أما ذلك الفعل فهو لا يقبله على كرامته.

هكذا أصبح للمكان قوانينه الخاصة التي وضعها «غازي».. لم يكن «غازي» يخشى الشرطة, فالنقطة الموجودة بالقرية لا يوجد بها سوى ضابط صغير اسمه «هيثم» وصف ضابط من أهل القرية الطيبين ومجندين.. نقطة الشرطة في القرية هي التي تحاول أن تتجنب المشاكل.

ذات مرة قام أحد المتحمسن الذين حصلوا على قسط من التعليم في المدينة بتقديم بلاغ ضد «غازي», لكن أحباب «غازي» كثر, وكلهم لهم علاقة بالمخدرات, فحتى التجار صاروا يعرفونه لأنه من أكبر الموزعين لهم.

بالطبع لم تقم النقطة بعمل أي شيء لأنها لم تجد أي دليل، ولأن أصحاب المصالح تدخلوا, وتم تهديد مقدم البلاغ لو كذب مرة أخرى.

عرف «وليد» الكثير عن المقبرة وعن «غازي», وفرح عندما عرف تدني

أخلاقه.. سوف يكون سهلًا عليه شراؤه بالمال.

أصر «وليد» أن يذهب بمفرده رغم أن «ربيع» أراد الذهاب معه, لكنه قال له بحزم:

– لقد انتهى دورك عند هذه النقطة يا «ربيع».

ذهب «وليد» إلى المقابر عند الغروب.. سوف يكون عليه عمل بعض الطقوس الليلة وإكمالها غدًا.. اقترب «وليد» من «غازي» الذي كان جالسًا كعادته عند باب المقبرة ينتظر الزبائن الذين لا يحضرون أحيانًا.. عندما رأى «غازي» الغريب القادم نحوه توجس منه خيفة واعتدل في جلسته قبل أن يسأله بغلظة:

– هل تريد شيئًا يا أستاذ؟

أجابه «وليد» بصوت بارد أثار رعب الرجل:

– بالتأكيد لم آتِ في هذا الوقت كي ألعب معك.

كان «غازي» كأي خفير يحترم نفسه يحمل بندقية ذات الفوهة المزدوجة, التي في الحقيقة لا تعمل, بل يحملها فقط «غازي» من باب الزينة.. وجَّه «غازي» فوهة البندقية نحو صدر «وليد» وهو يسأله بصوت مرتعش:

– من أنت وماذا تريد؟

أزاح «وليد» فوهة البندقية بعيدًا عن وجهه وهو يجيبه:

– أريد أن أستأجر المكان.

سأله «غازي» بتردد وشك:

– ومن قال لك إنني أقوم بتأجير المكان؟

زفر «وليد» في ضيق وقال له:

– هل أبدو كأحد الموظفين العاملين بالحكومة؟ ليس لديَّ الوقت لهذا الهراء.. أنا أحتاج المكان, وأريد أن أدخله بهدوء, وأريد منك حراستي وعدم السماح بدخول أحد بعدي حتى الغد.

سكت «غازي» قليلًا قبل أن يهز رأسه علامة على الرفض ويقول له بصوت مرتعش:

– اذهب يا أستاذ إلى حال سبيلك.. أنا رجل شريف.

حك «وليد» لحيته التي كانت نصف نامية وتظاهر بأنه سوف يذهب.. ثم فجأة التفت إليه وركل البندقية من بين يديه.

لم يفهم «غازي» ما حدث.. هو فقط ينظر إلى فوهة البندقية الموجهة إلى وجهه, و«وليد» يقول له بسخرية:

– ما رأيك الآن يا «غازي»؟ هل تعتقد أنني أريد إيذاءك؟

عاد «وليد» فناوله البندقية فأخذها «غازي» منه وأطرق ببصره إلى الأرض.. أخرج «وليد» رزمة من الأوراق الكبيرة وأعطاها لغازي وهو يقول له:

– خذ هذا لك.. لكن لا أريد أن يدخل أي شخص حتى أنتهي من

عملي.. سوف أعطيك رزمة مثلها كل يوم.

لمعت عينا «غازي» في فرح.. لم يصدق نفسه.. يمكنه أن يموت كل يوم في سبيل هذه الرزمة.. استطرد «وليد» بحزم:

- لو عرفت أن أحدًا ما قد دخل.. فسوف أقتلك.

ابتلع «غازي» ريقه بصعوبة وقال له:

- لا تقلق يا أستاذ.. سوف أغلقها بالقفل فور خروجك حتى تنتهي مما تفعل.

هز «وليد» رأسه في رضا وربَّت على كتف «غازي» الذي عاد فسأله بشك:

- هل تقوم بعمل أعمال سحرية؟

رد عليه «وليد» محذِّرًا:

- لا تسأل عن شيء لو عرفت إجابته فسوف يكون فيه ضررك.. خذ المال دون أسئلة أفضل لك.

هز «غازي» رأسه وابتسم ابتسامة شاحبة, وترك «وليد» مع المقبرة بمفردهما.

نزل «وليد» الدرجات التي نُحتت في الجدار القائم المؤدي إلى الأسفل.. كان «غازي» قد أعطاه المصباح الخاص بالنزول ليلًا.. كل من كان ينزل ليلًا كان يتوقف بالقرب من السلم الحجري, إلا أن «وليد» كان يعرف أن عليه التوغل,

ظل «وليد» يمشي حتى وصل إلى النقطة التي اعتقد أن عليه البدء منها.. رائحة التراب تملأ المكان.. المصباح لا يضيء جيدًا.. حارس الكِتاب يعرف بقدومه.. يشعر «وليد» بالحقيبة تهتز.. هل تهتز بالفعل أم أن تأثير نقص الأكسجين بدأ في الظهور عليه؟!

جلس «وليد» على الأرض يستريح قليلًا.. هو لم يمشِ كثيرًا, ولا يدري لماذا تعب.. ربما ندرة الهواء في هذا المكان, لذلك من يتعاطى المخدرات فيه يشربها بالقرب من الباب.

فتح «وليد» الحقيبة وبدأ في إخراج الكِتاب ثم الكأس والسكين, ثم القلادة التي كان «ربيع» يلبسها، ثم قلادة أخرى تشبهها.. رسم بعض الدوائر بالجير كما كان يفعل «ديمتري», وكما فعل هو من بعده.. بدأ في رصِّ الشموع وإشعالها.. فتح الكتاب وبدأت طقوس الاستدعاء.

مرت قرابة الساعة وهو يتمتم بكلماته غير المفهومة.. حتى بدأ يشعر بتلك الرياح الباردة التي هبت وأطفأت الشموع.. الظلال تتحرك بسرعة في المكان.. هذه هي أولى المراحل.. لقد أصبح المكان جاهزًا لاستقبال الحارس.

***

عليه أن ينتظر يومًا آخر.. يجب أن تظل المقبرة مقفلة لمدة يوم.. بذلك أمر «غازي» الذي وعده بالتنفيذ لأن «وليد» وعده برزمة أخرى عندما يعود في الليل.

كان عليه أن ينتظر النهار كله مع «ربيع» في بيته.. هو لا يريد أن يجلب له المتاعب لكنه لا يعرف مكانًا آخر يذهب إليه.

كانت القرية كلها قد عرفت بأمر عودته وجاء أهلها يهنئونه بسلامة العودة, لم يعد أحد يتذكر لماذا ذهب أو كيف عاد.. الذي يقال عنه إنه كان يعمل في إحدى الدول العربية.

كان «وليد» جالسًا مع «ربيع» في غرفة استقبال الزائرين عندما دخل «عبد العاطي» فرحًا يقول له:

- أحد أصدقائك جاء من مصر يا أبي.

فهمَّ «وليد» على الفور وهمَّ بالجري إلى خارج الغرفة, لكنه وجد فوهة المسدس في وجهه.

كان «إبراهيم» يقف أمامه مربوط الأنف, ومن خلفه يظهر «صابر» مربوط الأنف كذلك.. قال له «إبراهيم» بصوت أخنف وصرامة في الوقت نفسه:

- لو تحركت فلن أتردد في إطلاق النار.

كان يمكن لـ«وليد» أن يجازف بحياته, لكنه لن يجازف بحياة من بالغرفة.

لم يعد «عبد العاطي» يفهم أي شيء مما يحدث.. سأل والده بدهشة:

- ما الذي يحدث؟!

طأطأ «ربيع» رأسه ولم يرد.. قال «إبراهيم» لـ«صابر» دون أن يرفع بصره عن «وليد»:

- ضع الأصفاد في يديه.

كانت الكلمات تخرج بصورة غير مفهومة بسبب الضمادة الموجودة على أنفه, مما جعل «صابر» يسأله:

- ماذا تريد يا بيه؟

وكانت كلمات «صابر» هو الآخر غير مفهومة.. مما جعل «إبراهيم» يسأله هو الآخر:

- ماذا تقول؟

شعر «وليد» بالضجر فقال لصابر بسخرية:

- يقول لك أن تضع الأصفاد في يدي.

فقال له «إبراهيم» بغيظ:

- اسخر كما تشاء.. سوف يتم تعليقك قريبًا في حبل المشنقة.

وضع «صابر» الأصفاد في يد «وليد» ثم ابتعد بسرعة, فقال له «إبراهيم»:

- فتِّش المكان بسرعة.

وبالطبع لم يكن صعبًا عليه أن يجد الحقيبة التي بها الكِتاب.. فتح «إبراهيم» الحقيبة ليجد بها الكأس والأشياء الأخرى فابتسم في انتصار وهو

يقول له:

- آثار! تتاجر أيضًا في الآثار.. هيا بنا إلى نقطة الشرطة.

دفع «إبراهيم» «وليد» أمامه بينما أخذ «صابر» «ربيع» الذي خرج باستسلام, فقال «وليد»:

- «ربيع» لا يعرف أي شيء مما كان يحدث.. أنا المسؤول وسوف أعترف.

رد عليه «إبراهيم» بتشفٍ:

- هذا الكلام تقوله في النيابة, أنتما الاثنان مطلوب القبض عليكما.

خرجا معه في هدوء بينما حاول «عبد العاطي» أن يمنع والده من الذهاب، إلا أن «ربيع» قال له بحزن:

- لا تفعل شيئًا يا بني.. إرثٌ قديم ويعاد توزيعه من جديد.

وخرجوا جميعًا إلى النقطة.

***

في النقطة قرر «وليد» أن يتكلم بصراحة.. كان عليه أن يحكي عن الكتاب واستجواب الموتى وذكرياته مع عصابة اللصوص.. هو يعرف أنه لن يصدقه أحد، لكن ماذا سيخسر.. أخبرهم أن «ربيع» لم يكن يعلم أي شيء مما يحدث لأنه لم يكن يدخل المنزل من الأساس.

ليس غريبًا أن نقول إنه لم يصدقه أحد.. قال له «إبراهيم»:

- لا تعتقد أنك عندما تدَّعي الجنون سوف تنجو من حبل المشنقة.

رد عليه «وليد» صادقًا:

- أنا لا أهتم لموتي.. أنا أريد فقط أن أنجز مهمتي.

كان الضابط المسؤول عن النقطة, الذي يدعى «هيثم»، يقف فاغرًا فاهه في عدم فهم هو وضابط الصف الواقف إلى جواره.

قال «إبراهيم» لـ«وليد»:

- سوف تصل قوة من الشرطة لنقلك إلى أسوان.

ونظر إلى هاتفه وقال بسخط:

- فور أن تكون هناك تغطية.

ثم استطرد موجِّهًا كلامه لـ«هيثم»:

- هل من المعتاد ألا تكون هنا تغطية للشبكة؟

أجاب «هيثم» الذي كان ذلك أول شيء يفهمه:

- لا.. هذا أول يوم تقطع فيه الاتصالات.. حتى الخطوط الأرضية لا تعمل.

زفر «إبراهيم» في ضيق وقال له:

- ضعهما في الحجز حتى الغد.

فقال له «وليد» وهو ينظر إلى الخارج حيث الشمس التي اقتربت من

الأرض علامة على وداعها ذلك اليوم:

– أرجوك لا تأخذ كلامي على محمل الهزل.. تعالَ معي وسوف أريك.

فقال له «إبراهيم» وهو يتحسس أنفه:

– يكفيني ما رأيت.

أخذهما الضابط إلى الحجز.. فوضعهما فيه دون أن يفك الأصفاد من يدي «وليد». جلس «وليد» بالقرب من «ربيع» لا يتكلمان.. لقد صار الكلام بلا فائدة.. شعرا أن كل شيء قد انتهى.. سوف يعترف «وليد» بالقتل ويحاول قدر الإمكان أن يبرئ «ربيع» الذي لم يعد يتكلم على الإطلاق.. «وليد» لا يعرف مصير الكتاب أو ماذا سيحل به.. ربما يضعونه في متحف, لكنه استدعى الحارس إلى مكانه القديم.. من المفترض أن يكون موجودًا اليوم.

كان «وليد» يريد القضاء عليه لأنه لا يضمن ما يمكن أن يفعله.. ربما وجد شخصًا يستحوذ عليه مثلما فعل مع «ربيع».

***

إحدى صفحات الكتاب...

حارس الكتاب لا يعرف المستقبل...

حارس الكتاب يرى فقط ما حدث في الماضي...

حارس الكتاب يملك عينًا ثاقبة...

حارس الكتاب يموت كما نموت ليرثه حارس آخر يعطيه تلك القدرة

على رؤية ما رآه الموتى...

**حارس الكتاب يُعلِّمك كل ما يراه...**

**حارس الكتاب لا يريد منك سوى أن تهبه نفسك.**

# عيناه

القلادة علامة على أنك جاهز بالتضحية بجسدك في أي وقت من أجل حارس الكتاب.

***

كان الإحباط قد بلغ بـ«وليد» مداه.. لم يعد من الواقعي أن يشعر بالأمل.. كان ذلك عندما سمع تلك الجلبة.. صوت صراخ وطلقات نارية.. تحفَّز «وليد» وشعر «ربيع» أن نهايته قد حانت.. قال لنفسه إنه لا يستحق حياة طيبة بعد كل ما فعله، وعليه أن يتقبل الأمر برضا.

صوت الصراخ يقترب من باب الزنزانة.. ظِلٌّ كبير يظهر من خلف فتحة بابها, وبدلًا من أن يتم فتح الباب طار الباب بجزء من الحائط في اتجاه «وليد» الذي تفاداه في آخر لحظة.

كان «صابر», وعندما نظر «وليد» إلى صدره عرف سبب ما يفعله.. لقد كان يرتدي القلادة.

***

كان «صابر» يجلس أمام الطاولة التي وضع عليها حقيبة «وليد».. كان بها ذلك الكتاب القديم الذي لم يهتم به «صابر», ما أخذ بلُبِّه القلادة الذهبية الجميلة.. لم ير مثلها من قبل.. لا يدري لماذا يريدها إلى ذلك الحد.. هل أحد

غيره يسمع ذلك الصوت الخارج منها ويأمره بأن يرتديها؟ لا يظن ذلك.. ما المشكلة في ارتداء هذه القلادة المسالمة الجميلة؟

***

كان الدم ينزف من كتف «صابر» وهو لا يشعر بأي شيء.. ظهر «إبراهيم» من خلفه يحاول ضربه, لكن «صابر» رفعه بيد واحدة في الهواء ثم ألقى به إلى جانب «وليد».. شعر «إبراهيم» بكل عَظْمَة من عظام جسده تئن وتستغيث.. هنا انقض «صابر» على «وليد» وهو يقول له بصوت مخيف:

– كنت تعتقد أنك سوف تتخلص مني بهذه السهولة.. يا لك من أحمق.

شعر «وليد» بالرعب, معنى أنه جعل «صابر» يرتدي القلادة أن له قدرة خاصة لا يعرفها هو.. كان «ربيع» يجلس بخوف وقد تجمد في مكانه, فقال له «وليد»:

– الزجاجة يا «ربيع».. الزجاجة التي بها المادة الخضراء.

فهم «ربيع» ما يريد.. كانت تلك المادة التي صنعها ليستطيع خلع القلادة من رقبته.. كانت في الحقيبة.. جرى «ربيع» إلى مكتب الضابط ليجده هو وضابط الصف على الأرض يتأوهان.. دار «ربيع» في الغرفة بسرعة فوجد الحقيبة ملقاة على الأرض وبها كل ما كان فيها إلا القلادة التي يرتديها «صابر» الآن.. أخذ «ربيع» الحقيبة وجرى بها إلى «وليد» الذي كان ما زال يحاول تفادي «صابر».. قال له «ربيع» صارخًا:

- الحقيبة يا «وليد».

فقال له «وليد»:

- مفاتيح الأصفاد من الضابط.

كان «إبراهيم» يحاول النهوض تملؤه الدهشة, وقد تحسس مسدسه.. سوف يقتل «صابر» وينتهي الأمر.

قال له «ربيع» متوسلًا:

- لا يا سيدي.. لا تفعل.. ربما يكون عنده أولاد.

نظر إليه «إبراهيم» فتردد قليلًا في الضغط على الزناد.. «صابر» بالفعل عنده أولاد.. لكنه سوف يقتل الجميع.. عاد «ربيع» يقول له:

- هو لا يشعر بما يفعل.. لقد استحوذ عليه حارس الكِتاب.

لم يقنع «إبراهيم» بذلك الكلام.. الكلام عن الجن وتلك الأشياء التي لا يمكن كتابة التقارير عنها.. سوف يقتله.

فجأة صرخ فيه «وليد»:

- المفاتيح.. ليس أمامنا المزيد من الوقت.

بسرعة أخرج «إبراهيم» المفاتيح وألقاها نحو «وليد» ليفك الأصفاد.. قفز «وليد» في الهواء وفك الأصفاد قبل أن تصل قدماه إلى الأرض, ووقف وجهًا لوجه مع الحارس.. الآن يمكنهما القتال بعدل.. زام «صابر» كحيوان بري وانقض

عليه.. كان لا يستطيع الوصول إليه و«وليد» مربوط اليدين, فبالطبع لا يمكنه الوصول إليه الآن.

تفاداه «وليد» وجرى إلى الحقيبة فأخرج منها المخدر وزجاجة المادة الخضراء.. نظر إلى «إبراهيم» وقال له:

- أحتاج مساعدتك.

هز «إبراهيم» رأسه بخوف وقال له:

- أنا تحت أمرك.

فقال له «وليد» وهو ينقض على «صابر»:

- سوف أربط يديه بالأصفاد ثم تمسكه أنت, وأنا سوف أحقنه بالمخدر.

لم يكن الأمر بهذه السهولة, فجسد «صابر» ليس ضعيفاً مثل جسد «ربيع» الذي لم يقاوم كثيرًا.. بدأ «وليد» في تكييل الضربات لصابر وذلك الأخير لا يتزحزح, لكنه شتت انتباهه عن «إبراهيم» الذي جاء من الخلف وضربه بكل قوته على رأسه بعمود خشبي كان قد وقع على الأرض مع سقوط باب الحجز.. شعر «صابر» بعدم الاتزان لفترة وجيزة كانت كافية كي ينقض عليه «وليد» ويُكَبِّله بالأصفاد.. ثم ركب «إبراهيم» على كتفه فوقع معه على الأرض, وكانت تلك هي الفرصة المناسبة كي يغرز «وليد» الحاقن في رقبته ويخدِّره.

بالطبع لم يكن يستطيع أن يرفع عنه القلادة إلا باستخدام ذلك السائل

الموجود في الزجاجة.. بدأ جسد «صابر» يهدأ, إلا أنه ظل يرتعش.. كذلك «إبراهيم» كان يرتعش من الإنهاك والخوف وهو يسأل «وليد»:

- ما هذا الذي يحدث؟!

أجابه «وليد»:

- هذا الدليل على أنني لا أكذب.. هذا حارس الكِتاب تلبَّس مخبرك.

نظر إليه «إبراهيم» بخوف ووضع رأسه بين كفيه.. كان الضابط «هيثم» قد استطاع القيام والمجيء إلى الحجز, وبمجرد أن رأى «صابر» الممدد على الأرض قال لهم:

- كيف سيطرتم عليه؟!

فقال لهم «وليد»:

- ليس أمامنا وقت يجب نقله إلى المقبرة بسرعة.

سأله «إبراهيم» بعدم فهم:

- من هذا الذي سننقله إلى المقبرة؟ وأي مقبرة؟!

أجابه «وليد» وهو يشير إليهم بمساعدته في رفع «صابر»:

- لا يوجد وقت للشرح.. أنتم سوف تأتون معي على كل حال.

وساعده الضابطان في نقل «صابر» إلى السيارة التي ستنقله إلى المقبرة.. بينما سار خلفهم «ربيع» بالحقيبة.

***

عندما رأى حارس المقبرة الجسد المحمول والرجال يقتربون منه توقع الشر, لكنه عندما رأى ضابط النقطة ورجلًا غريبًا آخر تأكد أن هناك مصيبة قادمة لا محالة.

قال الخفير للضابط فور رؤيته:

- والله ليس لي دخل بما حدث في...

أسكته «وليد» بسبة ثم قال له وهو ينزل ليأخذ منهم «صابر»:

- لو أدخلت علينا أحدًا فأنت تعرف ما ينتظرك.

هز الخفير رأسه بخوف ولم يتكلم.. هو لم يعد يفهم أي شيء.. خصوصًا بوصول الضابط معه.

نزل الجميع إلى الأسفل وبدأوا في جر جسد «صابر» الذي جعل المهمة شاقة.. لكنهم في النهاية وصلوا حيث المكان الذي رسم فيه «وليد» الدوائر بالأمس.

قال «وليد» للضابطين وهو يأخذ الحقيبة من «ربيع»:

- ضعا الجسد في وسط تلك الدوائر.

كان المصباح الوحيد الموجود لا يسمح برؤية جيدة.. خصوصًا في وجود ذلك العدد في هذه المنطقة الضيقة.. لكنهم استطاعوا بعد معاناة أن يفعلا ما أمرهما به.

بدأ «وليد» في رش جسد «صابر» بتلك المادة كما فعل مع «ربيع» والتمتمة بتلك الكلمات التي لم يفهم أحد من الحاضرين منها أي شيء.. بدأ جسد «صابر» يهتز, الجلد نفسه يهتز كأن هناك ثعابين تتحرك تحت جلده.. رش «وليد» بعض السائل على يديه وعلى القلادة حتى يستطيع أن ينزعها, ونزعها.

هنا اهتزت الأرض وبدأ التراب في السقوط عليهم.. يبدو أن هذا المكان على وشك الانهيار.. سمع الجميع ذلك الصوت القادم من كل مكان ومن اللامكان.. كان يقول بغضب شديد:

- أنتم الآن في بيتي.. في مملكتي.. لن تستطيعوا الفرار.. سوف ندفن هنا جميعًا.. سوف أتخلص منكم ويأتي من يطيعني.. أستحوذ عليه واستجوب له.

ابتسم «وليد» في ثقة وقال له:

- هذا لن يحدث إلا في أحلامك.. هذا لو كنت تحلم.

وارتدى القلادة بسرعة.

***

في كتاب الاستجواب.. أن حارس الكِتاب لا بد أن يستجيب لمن وهبه جسده وارتدى القلادة.

***

كان هناك الكثير من الظلال تحوم في المكان.. كأن هناك خاصية جذب

الظلال عند «وليد».. الظلال كلها تتجه نحوه وتختفي فيه.

نظر الجميع إلى «وليد» برعب وتوقعوا أن يتحول مثلما حدث مع «صابر», لكن شيئًا من ذلك لم يحدث.. كان يهتز كأن هناك من يضربه من داخل جسده.. كأن هناك من يريد الخروج من جسده ولا يستطيع.. سمع «وليد» ذلك الصوت من داخله يصرخ:

- ماذا فعلت؟

رد عليه «وليد» بصوت مسموع:

- لقد كنت أرتدي قلادة السجن.. أنت الآن مسجون في جسدي لا تستطيع الخروج.

كانت تلك هي القلادة الأخرى.. هو الآن يرتدي الاثنتين.

سمع «وليد» صوت ضحكة ساخرة والصوت يقول له:

- حسنًا ليس علي سوى انتظار موتك حتى أخرج.

فرد «وليد» عليه ساخرًا:

- ومن قال لك إنني سأحتفظ بك حتى ذلك الوقت.

ثم قال لـ«ربيع»:

- سوف تجد قَطَّارة في الحقيبة.

فتش «ربيع» في الحقيبة حتى وجدها والصوت يسأل «وليد» بقلق:

- ماذا ستفعل؟

قال «وليد» لـ«ربيع»:

- ضع نقطة في كل عين.

ثم أضاف موجهًا حديثه للصوت:

- سوف أسلبك أعز ما تملك.

وضع «ربيع» النقطة الأولى في عينه اليمنى, فسمع «وليد» فقط تلك الصرخة, وعندما وضع النقطة الأخرى في عينه اليسرى زاد الصراخ.. فأغمض «وليد» عينيه وقال:

- لم تعد تمتلك قوة رؤية ما رآه الموتى.. لم تعد تمتلك أي قدرة، وبخاصة علي.. سوف تعيش أعمى في مملكتك, وتموت دون أن تورث شيئًا لمن خلفك.

وخلع «وليد» القلادتين بسرعة فعادت الظلال وأصبح الجميع يسمع تلك الصرخات.. كأن الظلال نفسها تصرخ.

الأرض تهتز والمصباح ينطفئ.. الجميع يخرج في الظلام.. الجميع اكتسب بعض الشعرات البيضاء.. حتى «صابر» الذي أفاق قبل النهاية بقليل ولم يرَ غير القليل.

خرجوا جميعًا والتراب ينهال على رؤوسهم.. لم يمت أحد.. هذا ما

يهم «وليد».. لم يمت المزيد بسببه وتخلص من الحارس.. كان «ربيع» يلـهث في رعب لكنه أحس بالراحة, فسأل «وليد» بفرح:

– ماذا فعلت؟ كيف تخلصت منه؟

لم يرد «وليد» عليه.. فقط نظر نحوه.. نظر نظرة جعلته يفهم كل شيء.

نظر إليه «وليد» بعينيه البيضاوين تمامًا, اللـتين تنزفـان دمًـا ففهـم مـا حدث.

***

خرج تقرير المباحث الذي أصر عليه الرائد «إبـراهيم» بعـدم الاستدلال على هوية أو عنوان القاطنين بالمنزل الذي وجدت فيه الجثث.

بعد تلك الحادثة ظل «إبراهيم» في ذلك القسم راضيًا وتـزوج بعـد ذلـك بقليل.

# مشهد أخير

كان «وليد» يجلس كعادته كل يوم في المقرأة التي قام بعملها في أول طابق بالمستشفى الخيري الذي بناه في القرية.. لقد فقد بصره وقام ببناء ذلك المستشفى والمقرأة التي يحفظ الأطفال فيها القرآن ويتعلمون أصول اللغة العربية، وبذلك أصبح الجميع يدعونه «الشيخ وليد».. أي شخص كفيف يقوم بعمل الخير يجب أن يطلق عليه لقب الشيخ.

كانت تلك هي السنة النهائية للأطفال الذين بدأوا الحفظ فور بناء المقرأة.. المُحَفِّظ يبدأ معهم كعادة الكثيرين من نهاية المصحف, لذلك هم الآن في سورة «البقرة».. بدأ «وليد» يستمع إلى الآيات التي عليهم حفظها:

– «وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» (الآية: **102**).

لم يستطع «وليد» أن يمنع نفسه من البكاء.. حتى إنه لم يشعر بـ«ربيع»

الذي جاء ليقوده إلى المنزل كعادته.. ربَّت «ربيع» على كتفه وهو يقول له:

- لقد مضت سنوات على هذا الأمر.. لقد انتهى كل شيء.

فرد عليه «وليد» بحزن:

- أرجو أن أكون قد كفَّرت عما فعلت.

فأمسك «ربيع» بيده ليقوده وهو يقول له:

- الله غفور رحيم.

فتنهد «وليد» وسكت.. كانا قد خرجا إلى الشارع عندما سأل «وليد» «ربيع»، ليغير الموضوع الذي كانا يتحدثان فيه:

- ما أخبار المدرسة؟

فرد عليه «ربيع» بحماس:

- العمل فيها مستمر ليل نهار.. سوف ننتهي منها في أقرب وقت.

فهز «وليد» رأسه راضيًا وهو يقول له:

- سوف يديرها «محمد» ابنك كما اتفقنا.

فابتسم «ربيع» وهو يقول له:

- هذا شرف لنا.

فتنهد «وليد» من جديد في حزن وسكت حتى سأله «ربيع»:

- لماذا تبدو حزينًا؟ لقد انتهى أمر الحارس منذ سنوات، ولن يعود

بإذن الله.

فهز «وليد» رأسه نافيًا وهو يرد عليه:

- أنا مشتاق لرؤية.. أقصد لزيارة أختي «هند».. كما أود لو أزور والدة «شادي» وأهله مرة أخرى.

رد عليه «ربيع»:

- كما اتفقنا.. لا يجب العودة إلى القاهرة.. يجب أن ننسى تلك الحياة.. لماذا لا تتزوج وتكون لك أسرة؟!

فرد عليه «وليد» وهو يبتسم:

- إذا وجدت لي زوجة نوبية أصيلة مثل زوجتك فأنا مستعد.

فقال له «ربيع» بمكر:

- أنت تعرف أن النوبيات لا يتزوجن إلا من النوبيين.. يبدو أنك لا تريد الزواج-وتضع هذا الشرط ذريعة حتى تظل بلا زوجة.

فضحك «وليد» ولم يرد عليه, لكن «ربيع» استطرد:

- على العموم أنت لم تعد غريبًا.. بعد كل ما فعلت لأهل القرية لم يعد أحد يعتبرك غريبًا عنها.

فسأله «وليد» بحذر:

- ماذا تقصد؟

أجابه «ربيع» بمكر من جديد:

- سوف أزوجك نوبية.

فقال له «وليد» بسرعة:

- لكن كيف؟ أنتم كما قلت لا تتزوجون من هو غريب عنكم.

فرد «ربيع» بثقة:

- وأنت لم تعد غريبًا كما قلت لك.

ثم أضاف مداعبًا:

- ما رأيك.. تتزوج أم أعيد لك الحارس؟

فرد «وليد» على الفور مداعبًا هو الآخر:

- الحارس أرحم يا عم «ربيع».

وضحك كلاهما بشدة حتى إنهما تعبا من كثرة الضحك, وبعد أن هدأ قليلًا عاد «وليد» يسأل «ربيع» بقلق:

- هل أنت جاد في موضوع العروس هذا؟

فأجابه «ربيع» بجدية:

- وهل في مثل هذه الأمور دعابة؟!

فاكتست ملامح «وليد» بالجدية وظل يفكر طوال الطريق.. هل من الممكن أن يبدأ حياته من جديد ويتزوج من لن تعرف شيئًا عن ماضيه؟

ربما تكون الأسرة التي يرغب في تكوينها أمر يحتاج إلى ذلك العناء.

# أعمال للكاتب

- نظرات دمية (مجموعة قصصية)
- حالة توحد (رواية)
- استجواب (رواية)
- الحشَّاش (رواية)

تحت الطبع

- (الجزء المتمم لرواية حالة توحد)

***

صفحة الكاتب على الفيس: أدبيات- محمود أمين

https://www.facebook.com/adabiat.mahmoud

صفحة دار بصمة على الفيس: دار بصمة للنشر والتوزيع

https://www.facebook.com/darbasma



عندما أريد أن أعرف منك شيئًا لن أسألك وأنتظر كي تجيب أو ترفض أن تتحدث إلي.. لن أعذبك حتى تنطق.. سوف أعرف منك وعنك كل ما أريد دون أن أسألك سؤالا واحدًا، ودون أن أنتظرك كي تقول كلمة واحدة .. سيكون استجوابي لك استجوابا من نوع خاص.




تصميم: عبدالرحمن حافظ